



Bibliotheca Alexandrina



0118911

مسيد الحلو
مأجستير في الآداب

للأدب الفرنسي في عصره الذهبي

بمجموعة دراسات للبيئة الفرنسية في القرن السابع عشر ، ولنشأة الأدب
الكلاسيكي فيه وتطوره ، ولحياة أدبائه ومناحي تفكيرهم وفنهم ،
مع نماذج مختارة من تمثيلياتهم ونثرهم وشعرهم .

الجزء الثالث

حسبب الحلوي
مأجستير في الآداب

للأدب الفرنسي في عصره الذهبي

بمجموعة دراسات للبيئة الفرنسية في القرن السابع عشر ، ولنشأة الأدب
الكلاسيكي فيه وتطوره ، ولحياة أدبائه ، ومناحي تفكيرهم وفنهم ،
مع نماذج مختارة من تمثيلياتهم ونثرهم وشعرهم .

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الجزء الثالث

الطبعة الثانية

١٩٥٦

لافونتين LA FONTAINE

ولد جان دي لافونتين عام ١٦٢١ في مدينة « شاتو تيارى » (١) ؛ وهو أكبر الاصدقاء الاربعة سنًا : فهو يكبر مولير بسنة ، وبوالو بخمس عشرة سنة ، وراسين بثماني عشرة سنة . كما انه أبطأهم إنتاجًا : فقد اخرج مولير أكثر روائعه ، وبوالو أكثر اهاجيه الاجتماعية ، واخرج راسين مأساة اندروماك ، قبل ان ينشر لافونتين امثاله الخرافية Fables.

امضى لافونتين ايام الطفولة لاهياً متجولاً في الغابات الملكية التي كان ابوه يتولى الاشراف عليها . ثم بدا له بعدما انهى مدرسته ان يكون قاضياً او محامياً ، غير ان ما يفرضه هذا العمل من نظام يحد من حريته عدل به عن هذه الخطة ، ففضل ان يتابع حياة الالهة والتواني في مقاطعته الصغيرة ، حيث لا يصرفه شيء عن المطالعة والاسترسال الى احلامه الجميلة . ولما بلغ السادسة والعشرين زوجه ابوه ونزل له عن منصبه ، فقبل الرجل كل شيء في غير مبالاة . وبعد ست سنوات رزق ولداً . بيدان واجبات الوظيفة والحياة الزوجية كانت تبدوا له جد عسيرة ؛ فتخلى عنها من غير ضجة ، ورحل الى باريس ليكون على مقربة من اديبائها الذين سبق ان اجتمع اليهم في زيارته المتتالية لهذه العاصمة ، وهناك أصبح لا يفكر في ماضيه ابداً . وفي باريس قدم الشاعر الى وزير المال « فوكيه » (٢) ، وكان هذا الوزير في اوج مجده ، وكان يحيط نفسه بالعلماء والادباء ورجال الفن ؛ وقد وافق هواه ما في طبع لافونتين من سهولة ومرح فضمه الى حاشيته ووظف له راتباً يكفيه ، وفي عام ١٦٦١ عزل فوكيه وسجن ، فأبدى الشاعر على ضروب الوفاء ما يستحق الثناء ؛ اذ تجرأ فناشد الملك في احدى قصائده ان يعفو ؛ ولم يتأخر عن زيارة صاحبه السجين . . . وقد ساءت حاله عندئذ كثيراً واضطر ان يقضم كل ما يملك (٣) .

كان انتاج لافونتين قليلا في السنوات الست الاولى من اقامته في باريس ؛ فقد

L. F. U. 311 (٣) . Fouquet (٢) . Thateau-Thierry (١) من مقاطعة شمبانيا .

L. T. 292 ; Portraits Lit. 54



LA FONTAINE

استسلم الى هذه الحياة المترفة الهيجة ، بين جماعة مختارة تستلذ عشرته ولستمع بذكائه وظرفه . ثم يزول هذا الحلم الجليل ، اذ يقبض على الوزير ويلقى في ظلمات السجن . وفي اثناء ذلك تطلب منه دوق «بويون» ، بنت اخي الوزير مازاران ، السبذة التي دبرت المؤامرة فيما بعد على راسين وتمكنت من اسقاط مأساة الفيدر بضعة ايام ، تطلب منه ان ينظم بعض الحكايات ، فيلبي طلبها ، ويخرج عام ١٦٦٤ اولى حكاياته Contes . كان له من العمر حين ذاك ثلاثة واربعون عاماً . وقد استبعد الناقد سانت بوف ان يكون تأخر الشاعر في انتاجه ناشئاً عن توفره على القراءة الجدية قبل ذلك الحين . وهو يفضل ان يعزو ذلك الى ما في طبعه من كسل وانصراف الى النوم والتلهي (١) . ثم اخرج عام ١٦٦٨ الاجزاء الستة الاولى من الأمثال الخرافية Fables . وبعد عام اخرج رواية خرافية سمّاها : «أهواء بسيشيه» واتبعها باخرى اسمها «آدونيس» . ثم اخذ يوالي تأليف الحكايات المنظومة والخرافات المنظومة وينشرها (٢) .

على ان سوء الحال لم يلازم الشاعر طويلاً بعد هوي نجم «فوكيه» . فما لبث ان وجد من يضعه اليه من الأصدقاء ، فهو ينتقل من احضان جماعة الى احضان جماعة ؛ اذ كان مفهوماً ان هذا الطفل الكبير لا يستطيع ان يقوم بأود نفسه ولا ان يتدارك حاجاته المادية . وفي عام ١٦٦٤ اصبح تحت رعاية دوق اورليان . وقد وجد عندها من الفراغ ما لم يكن يجده عند الوزير الذي كان يتقاضاه شعراً على ما يقدم اليه من مال . فلما توفيت الدوقة انتقل الى كنف صديقتها مدام دي سابلية وبقي عندها عشرين عاماً . يلازمها ملازمة الظل ، اذ كانت لا تخرج الى مكان إلا «صحبة كلها وقطها ولافونتين» . بفضل هؤلاء المضيفين الكرماء كانت حياة الشاعر خفيفة هادئة ، لحنها وسداها بعض الزهات ، وتأليف الحكايات والخرافات ، وبعض الزيارات للمجمع العلمي الذي اصبح آخر الامر عضواً فيه (٣) .

دخوله الاكاديمية - لقد تجاوز الشاعر الستين من عمره ، واصبح رجلاً ذائع الصيت ، يتحدث الناس عن ظرفه ، ويمجبون بشعره ، واصبح له اصدقاء اقوياء يأخذون بيده لدخول المجمع العلمي ؛ فتقدم اليه عام ١٦٨٢ ، ولكن لافونتين كان له كما لغيره اعداء ، وان لم يكن هذا الرجل الطيب عدواً لأحد . هؤلاء الاعداء اخذوا عليه تلك الحرية التي يعيش فيها ويكتب بعض آثاره بوحيا ؛ وكان الملك يشد هذه المرة

(١) Portraits lit. 57 (٢) L. F. U. 311 (٣) L. T. 293 (٤) Pierre Clarc 409

أزر اعداء الشاعر لانه لم يكن يرضى عن شذوذ مسلكه (١)، فضلا عن ان الشاعر كان من محبي الوزير فوكيه ؛ وكان الوزير « كوليبر » الذي خلف فوكيه على خزينة البلاد كذلك من خصومه . كل ذلك حال بين لا فونتين ودخول الاكاديمية ؛ ولكن بعد عام شغل منصب آخر فتقدم الشاعر اليه وحاز موافقة اعضاء المجمع ، غير ان الملك يحول بين الشاعر والمعضوية هذه المرة كذلك ويأمر بتقديم صديقه ومؤرخه الشاعر الناقد بوالو . ونشاء البصاف ألا يطول أمد هذه المنافسة بين الصديقين العظيمين ، اذ لا يلبث « كوليبر » ان يموت وكان عضواً في المجمع ، فيشغل مكان آخر . ويفوز الرجلان بالمعضوية معاً (٢) . وقد جاء في بلاغ الملك في الموافقة على تعيين لا فونتين هذه الاشارة التي لا تخلو من النمز من جانبه : « لكم ان تضماموا اليكم لا فونتين ، فقد وعد ان يكون حكيماً (٣) » . فرد الشاعر في خطبته التقليدية عند دخوله المجمع بهذه الكلمة الطريفة على الملك الذي أخر قبوله : « ان أميرنا لا يفعل شيئاً لا تزينه الكياسة ، سواء أمنح أم منع . » وقال رئيس المجمع بعد ان أثنى على مناقب الشاعر : « لا تقم يا سيدي وزناً لما فعلته في الماضي ! » ثم عرض الاعضاء حسب العادة آخر انتاجهم الشعري ؛ وعلى اثر ذلك نهض لا فونتين ليؤدي واجب الوفاء للسيدة التي احسنت اليه وليشركها في مجده ، وألقى قصيدة بليغة (٤) ، تقطف منها ما يلي :

من مكن اللذات لم أسر إلا وراء الظلال
لقد اسأت دائماً استغلال أئمن النعم :
فمن الافكار الملهية ، والحوار المستبهم ،
ثمرات الفراغ الباطلة ، ولذات الاوهام ؛
الى الأقاصيص واللعب ، وباء الاقوام ،
التي بها تزيغ المقول منها اوتيت من نهج رزين ؛
الى الشهوات السخيفة التي تعبت بالقوانين ؛
الى مثات الاهواء الأخرى يستنكرها ذوو الالباب ،
كل اولئك عبث ما شاء مني بزهره الشباب .
وانما يحو هذه الآثام ان افعل أفضل المبرات ؛

(١) L.T. 293 (٢) Pierre Clarc 409 (٣) قصة الادب : ج ٢ قسم ١
مر ٣٠٠ (٤) Pierre Clarc 410

أعلم ذلك ، ولكني لا ازال اسعى وراء الترهات .

• • •

فان وجب آخر الأمر ان افارق مثل هذه الافكار ؛
فلن ارى من لحظات العمر ما يغري باطراح الاوطار :
فأرندة الى الوراء ؛ ولعلي انتظر حتى فوات الاوان .
اد من ذا الذي يستطيع ان يحدد لرحيله الزمان .
وإن أجلنا لقريب منها تمتد منه الأسباب .

• • •

ماذا تجدي علي هذه الاشعار عنيت في تدبيجها ؟
أليس لي ان انتظر من ثمرتها غير الثناء عليها ؟
ليس يعني ما فيها من نصيح اذا لم اسلك نهجها الاثير ،
واذا لم اعرف في الأقل أي بدأت شطر العمر الاخير ؛
ذلك باتي لم اعش ، فقد استعبدني طاغيتان :
الحب والشهرة الباطلة ايام حياتي يتقاسمان .
ما هو العيش ؟ يا لمريس ؟ في وسعك ان تخبرنا ؟
جوابك حاضر ، ولكانه يطرق آذاننا :
هو الاستمتاع في هدوء بالحقوقي من الخيرات ،
واستغلال الفراغ جيداً مع جميع الاوقات ،
وأن نقضي ما علينا من فروض للكائن المتعال ،
وان نرغب عن ملئة الشيطان لنحظى بحسن المال (١) .

وفي الاكاديمية اشترك لا فونتين في معركتين : فبعد انتخابه بقليل انجاز الى جانب
المجمع في خصومته مع اللغوي المعروف « فيروتيار » (٢) ، حين اخرج قاموسه . وبعد ثلاث
سنوات نراه كذلك يخوض غمار المعركة بين انصار القديم وانصار الحديث فينتصر
للقدامي (٣) .

ثم تهتدي المضيئة الكبيرة وتزهدي في الدنيا وتتخلي عن مجلسها الحافل بالأدباء

(١) عن 62 Portraits lit Furetière (٢) ولد ١٦١٩ ومات ١٦٨٨

(٣) Pierre Clarc 410 ، L.T. 293

والظرفاء ، ومن بينهم الاديبان المعروفان : مدام دي سيفنيه و مدام دي لا فاييت ، وتولي وجهها مشطر الفقراء والمرضى وتمدها لموتهم ، فتقفر حياة الشاعر وتظلم ؛ ثم يأخذني التردد الى قصر الامير كوتي ؛ ويتعرف الى امرأة ذات ثراء هي مدام هيرفارت (١) ، فتشمله برعايتها وحديثها ، وتنزله ضيفاً عليها بعد وفاة مدام سابلير (٢) . وفي عام ١٦٩٢ أصيب الشاعر بمرض خطير واهتدى بدوره وندم على ما فرط منه واعلن على رؤوس الأشهاد استنكاره لما في « حكاياته Contes » من زيف وشطط ؛ ثم شفي واستمر على توبته (٣) . وفي شباط « فبراير » ١٦٩٥ عاوده المرض ، فكتب الى صديقه « موكروا (٤) » يقول :

« مضى علي شهران لا ابرح منزلي ابداً الا لزيارة المجمع في بعض الأحيان ، اذ أن ذلك يسليني . عندما كنت عائداً منه في الأمس اعتراني في منتصف الطريق ضعف ظننتني لا بد ميتاً منه . ايها الصديق العزيز ! ليس الموت بشيء ؛ ولكن هل تفكر اني سأمثل عن قريب بين يدي الله ؟ اتعرف كيف عشت . قبل ان تلقى هذه البطاقة ربما فتحت لي ابواب الابدية . . . »
وهاك جواب صديقه :

١٤ شباط (فبراير) ١٦٩٥

صديقي العزيز : لقد سبب لي كتابك الأخير كثيراً من الألم . بيد أنني سأقول لك في الوقت نفسه ان ميولك المسيحية تحمل الى قلبي كبير العزاء . يا احب الأصدقاء ، ان أكثرنا استقامة هم كذلك في حاجة الى عفو الله سبحانه ورحمته . فكن كامل الثقة فيه وابتهل اليه تعالى من كل قلبك . اي شيء لا تستطيع التوبة النصوح ان تناله من هذا الطيب المطلق ؟ فاذا أفضل الله برداً صحتك اليك ، فأنا أمل ان تأتي لتمضي آخر العمر معي ، وان تقابل الحديث عن غفران الله . اما الآن ، فاذا كنت لا تقوى على الكتابة اليّ ، فأنا ارجو السيد « راسين » ان يتفضل علي بهذا المعروف ، وهو اسمي ما يمكن ان يقدمه اليّ . الوداع يا اقدم الأصدقاء وأكرمهم . أسأله تعالى ان يتمد منك الجسم والروح بعظيم رحمته . »

لم يكن يفكر قبل ذلك في الدين ، ولكنه لم يقف منه موقف العداء (٥) ؛ وها هو

La Littérature du siècle classique 88 (٢) Hervart (١)
L.T. 293 (٥) Maucroix (٤) L.F.U. 312 (٢) Portraits lit 66

ذا الآن يُنِيب الى الله ؛ ومات الشاعر العظيم في بيت السيدة هيرفارت في ١٣ نيسان (ابريل) ١٦٩٥ وهو في الرابعة والسبعين من عمره. ولم تكن امرأته بلاريب الى جانبه. فعندما نزعوا ثوبه وجدوا تحته قميص التوبة والزهد (١) !

اخلاقه : — في اليوم الثاني من وفاة الشاعر كتب صديقه موكروا : واتي لم أجد قط نفساً اكثر براعة ولا صفاء من لا فونتين : فهو لا يعرف التدليس ولا الزوير ، ولعله لم يكذب مرة واحدة في حياته (١) . ، ان الرجل كله في هذه الكلمات القليلة ، وكذلك لا فونتين الشاعر . فالصدق وسلامة القلب والجري مع الطبع ، هذه الخلال التي حببت الرجل الى اصحابه هي التي مسحت اثره بالجمال والجاذبية . ما من مرة تحدث عن نفسه ، في الشعر او في النثر ، الا التزم الحقيقة . فاذا نحن قرأناه لم نَحْشَفَ علينا شيء من مزاجه وميوله وصداقاته وغرامياته ونواحي نشاطه ونواحي ضعفه . هناك سذاجة عذبة تحملنا على الاغضاء في حنان عن الشذوذ في حياته وفي شعره ؛ سذاجة طفل غريب نراها في فوضى حياته كما نراها في ورعه آخر ايامه . لقد كان — كما يقول الأب اوليني (٢) — صادقاً في توبته ، كما كان صادقاً في سلوكه ، فلم يخادع الله ولا الناس (٣) . لم تكن حياته مثالية ، اذ لم يضطلع يوماً بواجب ما : كان تنقصه الارادة والشعور بالمسؤولية . ترك كل شيء ، امرأته ، واولاده ، ووظيفته ، وجاء الى باريس ، ليعيش فيها فارغ البال ، على نفقة المعجبين الكرام . فهو في الحق اناني . بيد انها انانية من نوع خاص : انها انانية الأطفال المنبثقة من الغريزة الصافية ، والمنزّهة عن الحرص والبخل والمصلحة ، والمتصفة بالعفوية التامة . فلا فونتين مها تكن الظروف انما يستسلم لطبيعته ، بما فيها من حنان وعطف وصداقة على الخصوص ، وما من احد عبر عن هذه العلاقة النبيلة بمثل دقته ورقته (٤) (راجع ترجمتنا لقصيدته : الصديقان .) ان اثنى الذات في نظره ان يترك لأحلامه العنان فتنتطلق وفق ما يشتهي ، حتى لقد نظم هذه الابيات واوصى ان توضع على قبره :

لقد وليّ جان مثلاً جاء ،

أكل رأس المال والعائدات ،

واعتبر الكنوز أشياء لا ضرورة لها .

اما وقته فانه تصرف فيه جيداً :

(١) Pierre Clarac 491—492 (٢) Olivet (٣) L.F.U. 312

(٤) L.T. 294

فنام شطراً وارتاح شطراً آخر !

غير أننا نخطيء إذا فهمنا ما يقال عن كسله وإهماله فيها حرفياً ، وهو الذي قرأ في الواقع كثيراً وتأمل كثيراً وانتج كثيراً . فلهذا لم يكن ينام بقدر ما ينبغي لنا ، ولمسكه كان يؤدي بعض واجبه حينما كان يحلم ولا يعمل في الظاهر شيئاً . فبفضل هذا الإهمال والتلهي استطاع الرجل أن يحقق النظر ويطيل التفكير ويولد الصور ويتقن القوافي ويخرج التحف الخالدة ؛ وعلى الجملة فقد كان لدى شاعرنا ما نحب أن ندعوه بالكسل الخالق .

ونخطيء إذا أخذنا بالظواهر فظننا أن بساطة عاداته وسذاجة أعماله كانتا تسدلان حجاباً امامه وتحولان بينه وبين المنظر إلى الحياة بجلاء وعمق ؛ فلئن كان الطبع رخواً مطواعاً ، فلقد كان الذهن مرهفاً نفاذاً . وصفه الأديب الكبير « لارويار » فقال انه يبدو خشناً بليداً لا يجيد الحديث ولا يعرف أن يقص على جلسيه ما رأى . وقال أوليفي « ربما لم يحزر الإنسان ماله من مواهب إذا نظر إلى ملامح وجهه ؛ فإبتسامه بلهاء ، ومظهر ثقيل ، وعينان فاترتان في الأغلب . . . قلما بدأ الحديث ، بل كان في العادة أن يسهر عنه حتى ليجهل ما يخوض فيه الآخرون . هنالك شيء آخر يداعب خياله . . . » ولكن أوليفي يعود فيضيف إلى ذلك : « بيد أنه حينما يكون بين أصدقائه وحينما ينشط في الحوار في جدل مستحب ، خاصة على المائدة ، هنالك يندفع ويحمي وكشتعل عيناه : ذلك هو لا فونتين في حقيقته (١) . » ويقول الناقد الشهير سانت بوف : « استقبل شاعر الوزير فوكيه منذ البداية كزينة من امتع الزينات في ذلك المجتمع المذهب . ومها قيل عنه فانه كان محبباً جداً إلى الناس ، وبخاصة إلى أصحابه الأذنين ؛ كان حديثه على ما فيه من سذاجة وإرسال ، يزدان عند الحاجة بلمعات ذكية ، وكان ذهوله يمتحي في الوقت المناسب لئلا يزيد الإجابية وجمالاً : لا شك انه كان أقل دعة في المجتمع من كورني . كان النساء والبطالة والنوم تتوزع رغباته . وكان ينسجم في كل ذلك على خير وجه ، بل كان يتمدح به أحياناً ويتحدث مختاراً عن نفسه وميوله من دون أن يشعر جلسيه الملل وربما حملة فقط على الابتسام (٢) . » أما ما وصفه به لارويار ، فنستطيع أن نلاحظ فيه بعض المغالاة ، على طريقته في تفخيم بعض الملامح وإبرازها ، ولا يخفى ما يرمي إليه من مقابلة

Les Caractères II, P : 48 P : 494 : Pierre Clarac (١)

Portraits lit 56 (٢)

عبقرية الرجل بظاهرة المادي . وكان لا فوتين الى ذلك عظيم الاحترام للنساء ، شي على ذوات الفطنة والرزانة منهن ، من غير احتقار لغيرهن (١) . وعلى الجملة فان احدا لم يكشف بامانة عن حقيقة الشاعر كما كشف هو عن نفسه ؛ فلنصنع الى ابيات اخرى من تلك التحفة الخالدة التي الفاها يوم استقباله في الاكاديمية ، فهي تكشف لنا عن الكثير من اخلاقه ومزاجه :

انما انا شيء خفيف ، والى كل موضوع أطيح ؛
فانتقل من غرض الى آخر ، ومن زهر الى ازاهير ؛
واخلط بعض المجد بعدد كبير من اللذات .
لعمري اكون أرفع مقاماً في معبد الذكريات
لو أنني في نوع واحد كنت افنيت أيامي ؛
بيد أنني انتقل في أشعاري كما انتقل في غرامي .
حين ارسوم صورتني انا الذي اتوجه لنفسي باللوم ،
ولا اريد أبداً ان اجعل عيوني حسنة بالوم ؛
لست ارمي الا الى ان ابين من غير ان اداجي
نتائج الخير والشر الكامنة في ومزاجي .
ما إن يكاد العقل يضيء مني هذه الروح
حتى احس من أيامي الاولى بوخز الجروح .
ما أكثر ما اصطلح علي مذ ذاك من اهواء ،
فاستمتعت بمحقوق المنتصر ذي الفلواء .
انا اخشى ان يمضي في السفاسف ما بقي من اوقاتي
على نحو ما مضى في اللذات ربيع حياتي .

يقول « تين » : « ليس في الناس من يفوق لا فونتين وداعة وطواعية وعجزاً عن الانطواء على الضغينة . ليست مسخريته من الخبث في شيء ؛ انما هي اللهو المجرد من الاذى . بل قد تطفه الرحمة احياناً على المخدوعين من اشخاص حكاياته فنشعر بذلك لدى قراءته . ابداً لم يؤذ انساناً ولم يتحدث عن احد بسوء ، الا ان يكون ذلك شعراً في معرض التعميم .

اما النساء فلم يذكرهن الا بالخير على الدوام (١) . ثم يقول في مكان آخر (٢) : « لقد اعطى صديقيه : بانتريل ومو كروا (٣) كل ما يملك . . . أعني وقته ومجده ، فترجم لهما الاشعار ، وقرن اسمه الى اسمها ليقرأ الجمهور مؤلفاتها . »

اما عن عبقريته ففي استطاعتنا كذلك ان نستقي من شعره كثيراً عن مصادر هذه العبقرية واتجاهاتها ؛ وهو في كل ذلك لا يحيد عن الحقيقة ولا يتجاوزها : فهو يذكر لنا انه تنهل من ادباء القرن السادس عشر ومن ادباء النهضة والقرون الوسطى ؛ وانه قرأ في شغف شعراء اللاتين من امثال تيرانس وفرجيل واوفيد وسينيكا ، كما انه قرأ للادباء اليونان ونخص منهم افلاطون وبولتارك ، وذلك في الترجمات ، لأنه فيما يظهر لم يكن يلم باليونانية إلاماً كافياً . بل ان نهمه الفكري ليتجاوز هؤلاء القدامى الى غيرهم من مختلف الشعوب :

أعزُّ أريوست (٣) وأحترم لوتاس (٣) ؛
ويملك مشاعري مكيا فيللي (٣) وبوكاس (٣) ،
فما أني في ذكرها حتى يمس جليسي الجبال ؛
وانا اقرأ لادباء الجنوب كما اقرأ لادباء الشمال .

كيف كوَّنت هذه القراآت المتشعبة اكبر شعراء فرنسا طرافة وشيخ شعراء المنظومات الخرافية في العالم اجمع ؟ انه هو كذلك الذي يكشف لنا عن هذا السر :

بعض المقلدين أعتف انهم كالحق من الأنعام ،
اذ يتبعون راعي د ماشو (٤) ، تماماً كالأغنام .
اتي التصرف على وجه آخر ، فحينما يؤخذ بيدي فأنفاد
كثيراً ما اسير وحدي سعيّاً وراء السداد .
سترون اتي افعل مثل هذا على الدوام ،
فما كان اقتدائي ابدأ بعبودية واستسلام :
لا آخذ غير الفكرة والطريقة والقانون
التي كان اساتذتنا انفسهم يتبعون .

(١) Taine 26, 31 (٢) Maucroix, Pintrel (٣) Le Tasse, Arioste

(٤) Boccace, Machiavel مدينة ايطالية ولد الشاعر فرجيل بقرنها وهو الذي

يكفي عنه لا فوتين براعي ماتو فيما يظهر .

على انه اذا اعجبني عندم بعض المواضع الرائعات ،
وامكن ان نملك بين اشعاري من غير ما إعنات ،
فانا انقلها ، وأريد ان أتقي التكلف العقيم ،
حين أجد ان أسيم بطابعي ذلك اللحن القديم .

والحق ان لافونتين اقتبس كل شيء من غيره ، ثم وسمه بطابع عبقرية وفنه (١) .
أخذ من «لرزوب» (٢) اليوناني ، واضع الحكايات الخرافية المنشورة ؛ وأخذ من
«فيدر» (٣) اللاتيني ، ومن «بلي» (٤) الهندي ، ومن الاديبين الفرنسيين في القرن السادس
عشر : مارو ورابوليه (٥) ، ومن كل من عرف من كتاب الخرافة المحترفين والطارئين .
وكثيراً ما كان يخلط عناصر قصتين ، او يزيد او يختصر او يصلح ، وهو بصوغ
ذلك كله على طريقته وينفخ فيه من خفة روحه وجمال دجائه (٦) .

على ان التخلي عن شرف ابتكار الموضوع هو في مجال الحكايات الخرافية دليل ذوق
أصيل . فالامثال من هذا الطراز هي بطبيعتها نوع عفوي بدائي : ان تفكير الفرد
لقاصر عن خلق مواضيع خرافية في المنظومات الخرافية وفي الملاحم على حد سواء .
لا بد ان تنبعث هذه الاشكال الرمزية من اوساط الشعب او ان تتخمر مدى سنين
طويلة لتتقبل النفس كل ما فيها من غرائب واحالات (٧) .

ولافونتين ، على تحرر فكره تحرراً لا يقدمه فيه اديب من رجال عصره ، لا
نراه يشذ في مذهبه الفني عن غيره . فهو كمعاصريه لا يعترف الا بالطبيعة وبمحاكاة
الأقدمين . نجد ذلك واضحاً في ابيات ارسلمها الى صديق له على اثر نجاح احدي
ملاهي مولير :

لقد غيرنا ذلك الاسلوب القديم ؛
فما نرتضي اليوم «جودلي» (٧) ومذهبه العقيم .
لن نبتعد بعد الآن خطوة واحدة
عن الطبيعة السليمة الراشدة .

غير ان احداً لم يفهم الطبيعة الانسانية ولم يعبر عنها مثل ما عبر اليونان والرومان ،

(١) المصدر السابق 312-313 (٢) Esope عاش حوالي القرن السادس قبل الميلاد ،

وخرافاته نثرية ، جافة ، موجزة . (٣) Phèdre (٤) Pilpay

(٥) Marot, Rabelais (٦) L. T. 296-297 (٧) Jodelet

فلا معدى لنا اذن عن محاسنهم ، ولكن من دون ان يطفى ذلك على شخصيتنا
وابداعنا (١) .

وهو لا يشذ كذلك عن رجال عصره في نظره الى امتناع العمل الفني الاصيل
على التسرع والارتجال . لقد اطال البحث عن ميوله الادبية ، ولم يخرج منظوماته الا
بعد تلمس وتفحص ، وبعد ان بلغ السابعة والاربعين من عمره . ان ما نراه في هذه
المنظومات من سهولة عجيبة لا شك انه لم يتوصل اليها الا بالجهد وطول التنقيب . كل
منظومة ما زال يفتّر منها بجهد وعناية حتى بلغت ما نراه فيها من كمال . لقد حفظت
قصيدته : الثعلب والذباب والقنفذ ، على صورتين ، فلم يترك في ثابتيهما من اولاهما غير
بيتين اثنتين (٢) . هذه هي السهولة الصعبة ، كما عبّر عنها الابتاعيون ، وكما نصح بها
بوالو : لمصنّع بجهد شعراً سهلاً .

اما هدف الفن عنده فهو الهدف الذي وضعه جهاذه الاتباعيين نصب اعينهم :
ان يثقف ويبحث على السرور . قال بوالو :

القارى اللبيب يتجنب العبث في تسليه ،

ويريد ان يمود عليه بالفائدة كل وقت يمضيه (٣) .

والى ذلك يشير لافونتين في مقدمة المجموعة الاولى من الامثال الخرافية : « هذا
ما يطلب اليوم ؛ يراد جدّة وسرور . لا ادعو سروراً ما يثير الضحك ، بل نوعاً من
الجمال ، روحاً مستحسناً يمكن ان نبته في صنوف المواضيع جميعاً ، بما فيها الجدّي
العابس (٤) » .

الامثال الخرافية — ان شاعراً في مثل نزوع لافونتين الى الحرية لا بد له من
معالجة نوع لئس العريكة يطوع (٥) لختلف اهوائه ، ويتناول عند الاقتضاء جميع
مراميها . والامثال الخرافية هي اكثر الانواع الادبية استجابة لهذه الاغراض : فهي
تكون قصصاً او حواراً او سرداً عابثاً او سرداً جاداً او مقطّعات ريفية او وجدانية او
نقداً او تصويراً للحيوان والانسان والطبيعة . ما من كتاب يفوق « امثال لافونتين »
Fables تنوعاً وانسجاماً ؛ وكثيراً ما يتغيّر المنحى في القصة الواحدة ، كما في
« فلاح الدانوب » ، حيث يبدأ الشاعر بوصف واقعي ، ثم ينتهي الى مقطع خطابي بليغ (٦) .

(١) L.T. 296—297 (٢) L.T. 294—295 (٣) البيتان : ٨٩ ، ٩٠ من « فن الشعر »

(٤) L.T. 297 (٥) يتقاد (٦) L.T. 295—296

يتناول لافونتين في امثاله موضوعات تقليدية كما ذكرنا؛ ثم يجددها بما يسكب فيها من طبعه الفني، ومن تأثراته ورشاقة تعبيره. يتساءل المرء غالباً: ايّ جهد عبقرى استطاع ان ينقل الى هذا الافق الرحيب نوعاً من الادب جدّ دقيق؟ الجواب على ذلك ميسور: ذلك ان الشاعر يصب شخصيته وروحه في كل ما يكتب. انه لم يقتصر على نظم مواضيع «ايزوب» و«فيدر» وغيرها من كتاب الامثال الخرافية، ولكنه يصب في هذه المواضيع الهزيلة نظراته الخاصة ومزاجه فينفخ فيها الحياة والقوة والجمال. مثال ذلك ان هذين الكاتبين يقدمان له حادثاً لا لون له ولا نكهة: العربية والذئابة. فاذا قرأ ذلك لافونتين تذكر رحلة قام بها في مقاطعة «ليموزان» وتخيّل احد وديانها، وتذكر العربية التي كانت تصعد المنحدر الجديب بجهد وعناء. كل هذه الانطباعات المستيقظة تنظم الآن في لوحة عجيبة، ذات الوان متناسقة عميقة. من نفسه، لا من مصادره انما يتدفق الشعر وطرافة التصوير (١).

وكثيراً ما يظهر طابع الشاعر الخالص بأوضح الصور، ولا سيما في رشيّق سخريته ورقيق عاطفته؛ ولكن من غير ان يشوب ذلك ما يجده عند الابتداعيين (٢) من اجواء غائمة صاخبة. فاما سخريته فهي شائعة في كل مكان؛ نراها في تلك الحرية وعدم الكلفة حينما يتحدث عن الآلهة، وفي ذلك الاسلوب الفخم يتناول به المعاني الصغيرة، وفي ملاحظات عابثة ماكرة، واخيراً في بعض النعوت الغريبة المفاجئة. واما العاطفة فنراها هنا وهناك: كثير من هذه المنظومات ما هو إلا معرض لاحلام الشاعر وتأملاته في الموت: «حكاية الموت والمحضر»، وفي الصداقة، «الصديقان»، وفي الحب: «الحمامتان»، وفي العزلة: «حلم ساكن الموغول». ما أكثر ما يتساءلون اين هو الشاعر الغنائي في القرن السابع عشر: ألا إنه هنا، في هذه الامثال الخرافية التي عرفت كيف تقدم من العناصر الغنائية الكمية والكيفية المناسبين لروح ذلك العصر وذوقه. انها لمزيج فريد للمادة الموضوعية والعاطفة الشخصية (٣). لقد ختم الشاعر كل امثولة بطابعه، فما من واحدة، حتى التي لم يصب فيها كبير توفيق، الا كشرف علينا خلال بعض ابياتها طلعة الرجل المشرقة الطروب (٤). يقول سانت بوف: «ان لافونتين هو وحده شاعر فرنسا الحالم الذاتي، قبل «أندريه شنيه». لقد وضع

نفسه طائفاً مختاراً في شعره ، وحدثنا عن نفسه ، عن أهوائه ونواحي ضعفه . ما أكثر ما نجد عنده تلك النغمات التي تنبعث من القلب وذلك التحنن الحزين الذي يقرّبه من شعراء هذا الجيل (١) .

غير أن لافونتين يسكب هذه الشاعرية في نوع من الأدب التمثيلي يقوم في الأساس على عمق التحليل ودقة الملاحظة ، ورشاقة الحوار ، وفجائية الحوادث والحلول ، وبخاصة على تنويع الطبائع وإبرازها . أنه يريد أن يكتب :

تمثيلية واسعة الآفاق في مئة فصل
تجري حوادثها على مسرح هذا العالم (٢).

فخلف ستار من الرموز التي يطلبها هذا النوع ، يعرض علينا الشاعر لوحة كاملة للحياة الإنسانية والمجتمع الفرنسي آن ذاك . أن لافونتين ليملك القدرة على النوص إلى أغوار النفوس ، وحاسة الشعور بالواقع معا : فقد استطاع أن يصور الناس من كل صنف : ملوكاً ، وسادة ، واثرياء ، ورجال الدين ، وعلماء ، وفلاحين ؛ ومن كل الشيم : متكبرين ، وجبناء ، وفضوليين ، وذوي اثر ، واستغاليين ، ومنافقين — كل بهيئته ولهجته اللتين تناسبانه وتعبّران عنه . أنه يعرف الإنسان ككواكب ، ويعرف المجتمع كسان سيمون (٣) . يقول الناقد الكبير «تين» في كتابه القذر عن لافونتين : «أن لافونتين بين شعراء فرنسا بمنزلة هوميرون بين شعراء اليونان . فهو شامل مثله : الرجال والآلهة والعجاوات والمناظر الطبيعية الخالدة ، والمجتمع لتلك العصر ، كل أولئك في كتابه الصغير . تجد الفلاحين فيه إلى جانب الملوك ، والقرويات إلى جانب السيدات العظيمات ؛ كل في ظروف حياته وعواطفه ولقنته ... أن صفارنا ليتعلمونه عن ظهر قلب كما كان صفار الآتينيين يستظهرون هوميرون . بيد أنهم لا ينفذون إلى أعماقه بل يفهمونه على الاجمال .»

وتقضي قوانين هذا النوع أن يتقمص الاناسي مظاهر الحيوانات ، فإدب لافونتين بهذه المناسبة يكشف عن مواهب لا تجاري في تصوير الحيوان . أنه يرسم لنا بدقة وحياة عجيبتين الهيمّة الظاهرة للحيوان : شبحه ، هيئته ، تصرفه . هذه صور طبق الأصل ، كما قالت مدام دي سيفنيه في رسالة لها إلى ابنها . وعلى أساس هذه المظاهر

المادية يختار الشاعر الصفات المعنوية المناسبة لهذا الحيوان أو ذاك (١). ان شاعر الحكاية الخرافية لا يقف عند اظهار الانسان في لباس الحيوان، بل يزيد فيكشف عن خصائص الحيوانات وطبائعها المختلفة، في دقة متناهية نادرة. ان طبيعة الشاعر في نفسه ما كانت لتصدّه عن توخي الصفات البارزة الحقيقية من هذه الحيوانات التي طالما كان يلاحظها في البرية والريف. فادّا تم له ذلك جعل يلاحظ غرائز هذه الحيوانات المختلفة، على نحوها القريب من غرائز الانسان. هذه الكائنات الغريبة ليست اذّا من الاناسي ولا من العجوانات. انها ولأند خيال الشاعر؛ فهي بين المخلوقات قبيل قائم بذاته: انها حيوانات لافونتين (٢).

اما مسرح الحوادث فقد اختاره الشاعر في الاغلب من الريف حيث امضى طفولته وجانباً من شبابه. اننا لا نجد انفسنا لدن قراءته امام صور شائهة باردة من وحي الخيال، بل امام مناظر الطبيعة قد رسمتها يد صناع في خطوط سريعة دقيقة، توحى اكثر مما تقول، فما من احد املك لفن الايجاز من لافونتين. كل كلمة تبحر في محلها المناسب تستطیع ان تستحضر عنده الصورة التي يشاء، غابة كانت ام مرجاً ام ساقية ام وادياً ام أفقاً لا زورديا. يكاد يجمع النقاد على ان لافونتين وحده بين شعراء عصره، اذا استثنينا بعض رسائل مدام دي سيفنيه، هو الذي 'أشرب' جمال الطبيعة وعبر عنه في شعره بقوة ورشاقة، ذلك الجمال القديم الذي شاءت النظريات الاتباعية ان تصرف النظر عنه، ثم جاء لافونتين ففرف من بحره واعاد اليه اعتباره (٣): فحقول الحنطة العريضة يتنزه في ارجائها السيد المالك عند الصباح الباكر، حيث نخفي القنابر اعشاشها والأرانب او كرها؛ والبساتين الخضراء والمروج النضر ومنمطفات الاودية تفوح بالرند والسعتر، وزرائب الماشية، وموارد الماء، كل اولئك يطالعك في شعر لافونتين بالوانه والحانه وطيب انفاسه. يقول سانت بوف: ولافونتين هو شاعر فرنسا المعنونة في القدم والحارس الأمين على لغتها الرشيقة العريقة (٤).

مغازي (٥) لافونتين — اخذ الأديبان الفرنسيان الكبيران: جان جاك روسو ولامارتين على شاعر الامثال الخرافية ان امثاله هذه لا تدعو الى كرم الاخلاق، او

(١) L. T. 299 (٢) L. F. U. 318 (٣) L. T. 299 ; L. F. U. 318

(٤) L. T. 300 (٥) جمع منزي

انها تدعو الى مبادئ حائرة او قاصرة . وهما يريان ان مغازيه كثير ما تلم الانانية والخذاع من حيث يجب ان تزرع في نفوس الابناء المروءة والاستقامة . يهـ رسول روسو ان قصة الثعلب الذي مكر بالغراب فأطرى صوته واخذ قطعة جبنه لحرية ان تلمم أحط انواع المداينة ؛ وان قصة الصرصور والنملة حرية ان تعلم القساوة ؛ وقصة الثعلب الذي رفض ان يحيا حياة الكلب الأهلي السعيد لثلا يربط مثله تتضمن درساً في التمرّد وفساد الخلق . ويقول لا مارتين ان هؤلاء الحيوانات التي يسخر بعضها من بعض ، والتي تطفى عليها الأثرة والبخل والصفافة ، والتي تنكر للصدقة والرحمة والخير ، لمن الخطر بمكان (١) . هذا النقد شبيه جداً بما اخذه الكاتب المعاصر ج . ب . شو على شيكسبير . وعندي ان هذا الرأي لا يخلو من وجاهة . فالتمثيلية التي الشأها لا فونتين من مئة فصل ، على حدّ تبينه عن حكاياته ، ليس فيها فصل واحد في النجدة والتضحية والشهامة ، تلك المثل العليا التي يندر وجودها في هذه الدنيا ولكنها موجودة على كل حال ، على انه اذا تخطينا هذه الناحية فانا لا نجب ان نعزو الى الشاعرين الكبيرين أية دعوة الى مبدأ لا ترضى عنه الاخلاق . فالرجلان في الاساس مصوران ، يرضان لنا الحياة كما هي ، وليسا بواعظين ولا داعيتين الى مبدأ ما . ان تمثيل الحياة تمثيلاً أميناً مطلب بعيد المدى يحقق الفائدة بلا جدال ، لست ادري لماذا يرى روسو في قصة الثعلب والغراب دعوة الى النفاق ولا يرى فيها حافزاً على اليقظة والاحتراز من ملق المحتالين . وقصة الصرصور الذي غنى صيفته ولم يدخر شيئاً لشتائه ثم جاء بطلب احسان النملة فردته خائباً ، أليست هذه القصة مشهداً من مشاهد الحياة اليومية تقع عليه العين في كل مكان ؟ نعم ، كانت النملة جسد قاسية على الصرصور المسكين ؛ ولكن لا فونتين لم يكن من القساوة في شيء ، بل كان مثال الخير والرحمة عندما اهاب بنا ان نفهم الحياة فهم جيداً ، وان نتدارك امرنا ، وألا نتمادى الاعلى انفسنا . كما اني به بين جماعة من النشء يحضضهم النصيح ، ويقول لهم : يا ابنائي الاعزاء ، لقد تعلمت في البيت والمدرسة كثيراً من مكارم الاخلاق وزيت لكم المثل العليا حتى أشربتها نفوسكم وتناولت اليها اعناقكم ؛ فبقي عليكم ان تفهموا الحياة فهم جيداً وان تعلموا ان فيها المرائين والمخادعين والقساة والأنانيين ، فخذوا حذرهم وكونوا على بينة من امركم لثلا تصبحوا خدعة الأشرار وهزّاتهم . . . اما امثلة الكلب والثعلب ، فما ارى فيها

تمرداً ولا فساد خلق ؟ ومن عجب ان يصف الحرية بهتين الصفتين رجل مثل روسو ، رائد الحرية وفيلسوفها قبل الثورة الفرنسية الكبرى . نعم ان لا فونتين لم يردد دروس البيت والمدرسة ، ولو أفرد لذلك بعض فصول تمثيلته الكبرى لكان عمله اروع واوفى ؛ ولكن الرجل فيما يظهر لنا من سيرته لم يكن ينقصه طيب القلب وحب الخير ، فلم يجد دافعاً الى التغيي بها ، وراح يتغنى بالفضائل التي لمس نفعها وأحس بحاجته اليها . على ان الامثال الخرافية لا تقتصر دائماً على التحذير ، وكثيراً ما تقدم لنا نصائح ايجابية ، ولكنها عملية قريبة المتناول ، تنبث من التجارب كما نراها في الحياة (١) :

الانسان في الغالب بحاجة الى من هو اصغر منه .

في كل أمرٍ إنما يُنظر الى النهاية .

ضمانان خيرٌ من ضمان واحد .

لا ينبغي لنا ان نعاشر الا أكفأنا .

يفعل الرفق ما يعجز عنه القسر .

أعز نفسك مُعينك السماء .

واحياناً تدلنا على بعض الواجبات :

اياك ان تسخر من البؤساء .

تعاونوا ، فذلك قانون الطبيعة .

يقول شامفور : « ليس لا فونتين بشاعر البطولة ، بل شاعر الحياة المألوفة والحكمة الدارجة . العمل ، اليقظة ، النظر الى عواقب الامور من غير قلق ، العيش مع النظراء ، عدم احتقار المعونة تأتي من أصغر منا ، الاعتدال : هذا ما يحبه لا فونتين وما يحببه الى الناس (١) . »

اسلوبه : — اراد لا فونتين ان يحقق في الادب ذلك المطلب البعيد المدى ، المختلف الانواع ، الذي يتناول الاناسي والمعجوات ، الطبائع والمادات ، الحقول والنايات ؛ فأبث عليه طبيعة الفنان وسعة آفاقه ، كما أبثا على مولير ، ان يجس نفسه في حدود اللغة القاموسية الضيقة على نحو ما ارتضتها الصالات الأدبية لذلك العهد . انه بين ادباء فرنسا نظير الجاحظ بين ادبائنا من هذه الناحية ؛ فلغته لا تجاري طواعية وترويحاً

والانسجاماً؛ لغة تأخذ من كل لون وطبقة، وتجمع بين القديم والحديث؛ يؤلف بينها فن محكم رهيف يتواري وراء ظاهر من المغوية الخلوة. لقد جمع شتات هذه اللغة من اوساط الشعب، من لهجات البلدان ذوات الطوايح المحلية، من اوضاع الهال ارباب الحرف، من قصصيتي القرن السادس عشر، من «مارو» و«رابوليه»، واخيراً من صوب قريحته عند الاقتضاء. انه ليعزج ذلك كله مزجاً عبقرياً عجيباً ويصبه في معين اسلوبه الصافي، فلا ينبو عن اذنك تعبير مها خشن او انحط مصدره، لأنه يجيء في مكانه المناسب، فيكون طبيعياً، بل ضرورياً (١).

وليس هذا، على بالغ اهميته، كل شيء في اسلوب لا فونتين؛ فقد وقف النقاد معجبين حائرين امام ظاهرة اسلوبية اخرى يكاد يكون فيها شاعر الامثال الخرافية نسيج وحده: تلك هي القدرة الفذة على اختراع الاوزان وتنويعها والملازمة بينها وبين مختلف الافكار. فاذا قرأنا احدي قصائده لفت نظرنا دقة حسه الموسيقي الذي استطاع به ان يختار الفاظه ويؤلف بين انغامه؛ ثم لفت نظرنا ان الشاعر لا يتقيد فيها بوزن واحد، بل يكثر من الاوزان، ويختار لكل فكرة اصلحها - وما اكثر ما تنوع الافكار عند شاعر الامثال - فللفكرة القريبة الوزن الخفيف السريع، ولل فكرة الخطيرة الوزن الطويل المكث. هذا النوع المعبّر من الوزن، الذي يماشي العاطفة او الفكرة، وينسجم مع النفس في شتى احوالها هو ما يدعونه اليوم بالوزن الحر Le vers libre؛ وهو جدير ان يستوقف القارئ العربي على الخصوص لما يجد من مشابة بينه وبين السجع في ارقى صورته. هذا الوزن الحر الذي يرجع الفضل في اكتشافه في الفرنسية الى لافونتين هو احد البواعث الكبرى لما نجد في شعره من حياة وحركة وعفوية؛ وهو امرٌ نغني بافصح خسارة اذا اغفلناه حين الترجمة، ولا يشفع بعدئذٍ فيها جودة السبك والقدرة على النظم، لاننا نمثل بذلك عن اسلوب الشاعر الفرنسي الرغبة، الى هذا الاسلوب المعروف بالريثم. يقول «تيودور دي بانفيل» (٢): ان هذا المزج الوثيق بين الاوزان، حيث يتغير لباس الفكرة حسب الفكرة نفسها، وحيث تشيع الانسجام والتناغم قوة الحركة الخفية، تلك هي الكلمة الأخيرة للفن العالم الدقيق، الذي يسبب لك الدوار بمجرد النظر الى ما يمترضه من صواب. بيد أن لا فونتين كما ابدع آله قد اخذها معه: كل اولئك الذين

(١) L.T. 302 ، L.F.U. 318 Théodore de Banville (٢) من L.F.U. 318

ادعوا انهم تَلَوْا تَلَوْه وساروا على آثاره فخيّل اليهم انهم استخدموا الوزن الحر قد
 وهموا ولم يوفقوا الى غير خليط صبياني مهووس . وايس ذلك لانهم يجهلون روح هذا
 الفن وسبيله ، وما فيه من حركة والسجام وخفة فقط ، ولكن لانهم يجهلون كذلك آلية
 هذا الوزن نفسها . ، ويقول : « ان الوزن الحر » هو اروع ما ابدعته
 قريحة لا فونتين : فبفضل هذه الاوزان التي تتغير الى مالا نهاية له ، استطاع ان يجبي
 المناظر وان ينوع الألوان . انها هي التي تفتن خيال الكبار والصغار ، وهي التي
 تثبت المنظومات الخرافية في ذاكرتهم . وبفضلها اصبح ذات يوم ذلك القصصي
 العاثر من اكبر الشعراء في فرنسا (١) .



نماذج مختارة من «الرمال الخرافية»

الذئب يصير راعياً^(١)

كان الذئب قد أخذ ينال حظّه القليل
 من غنم جيرانه
 فبدأ له أن يستعين بجلد الثعلب الأصيل^(٢)
 ليموّ على عارفيه وخلاته .
 فتنكر بزي الرعاة ، فالعباءة ارتدى
 واتخذ لنفسه عصا
 ولم يُغفل المزمّار .
 وبالغ في أسلوبه المكثار ،
 فكتب من طوعه على قبضته :
 « اني انا « غيوّ » ، « من القطيع في امرته ،
 فلما استقام الأمر حسب مبتغاه
 ووضع رجليه الاماميتين على عصاه ،
 تقدم « غيوّ » المزور بخطا وثيدة .
 على حين كان غيوّ ، غيوّ الحقيقي على العشب
 يغطّ حينئذ في نومة فريدة ،
 وكان كلبه ينام ، وكذلك ربابته^(٣) ، فليس هو فحسب .
 كذلك كان أكثر النعاج^(٤) في نومة سميدة .
 تركهم المتافق في نومهم يسترسلون ؛

(١) Livre III P : 44—45 (٢) لبس جلد الثعلب : احتال (٣) الراباة : آلة موسيقية (٤) النعاج : جمع نعجة ، وهي الاثني من الضأن

واذ فُكّر في استدراج النّعم الى وِجاره (١)
 اراد ان يضمّ صوته الى لباسه وشعاره ،
 أمرٌ ظنّ ان لا غنى عنه ،
 غير ان الأذى كلّهُ كان منه :
 لم يحسن تقليد صوت الراعي .
 فدوّت بنغمته الغابات والمراعي
 وهتكت السّتر وكُشف الامر .
 الكلّ "أفاق على هذه الاتّعام ،
 النّعم ، والكلب ، والراعي المقدّام .
 تلبّس الذّئب المسكين بمجرّيته ،
 ولم يستطع في عباءته الاقدام ،
 ولم يجد دفعا ولا هروبا من كربته .

• • •

كل مختال على الدوام متردّ في عثرته .
 ومن يكنّ دثبا فليجاري في فعله الذّئاب :
 فذلك خير له وأضمن لحسن المسآب .

(٢) الثعلب والتيس

كان المقدّم (٣) «ثعلب ، ذات يوم يسير
 في صحبة صديقه «تيس ، الطويل القرنين :
 لم يكن هذا أبعد من أنفه «يمدّ المينين (٤) :
 والآخر كان في الخداع معلّما منقطع النظير .
 لقد اضطرّهما العطش الى ان ينزلا بئرا :
 هنالك كلّ منهما ارتوى .

(١) الوجار مأوى الذّئب والضبع وغيرها (٢) Livre III P: 46
 (٣) رتبة عسكرية تخيلها الشاعر للفكاهة (٤) يصفه بالنباوة

وبعد ان أطفأ من الظمأ بالماء جراً ،
 قال الثعلب للئيس : « كيف العمل ، وماذا ترى ؟
 ليس كل همتنا ان نشرب ، فلنبغِ الخلاص .
 ارفع يديك وقرنيك الى الغلاء ، وحاذر الاتكاص ؛
 اسندها الى الجدار : على ظهرك الذهاب في الغلاء
 لاني صاعد اولاً ،
 ثم اكون على قرنيك واثباً ؛
 بمساعدة هذه الآلة الغراء ،
 أخرج من هذا المكان ،
 وأنتشلك بعدئذ منه في امان . »
 قال الآخر : « رأي جميل ، بحق لحيتي ؟ وانا اثني
 على الاذكيا امثالك .
 ولولا ما علمت من مقالك ،
 لما وجدت هذا السر ؛ هذا اعتراف مني .
 خرج الثعلب من البئر وترك رفيقه
 ملقياً اليه بهذه الموعظة الرشيدة
 يجعله بها على جميل الصبر .
 قال : « لو كانت السماء اولئك الحصاة
 بقدر ما اوتاك من لحة في الذقن وحسن القيادة ،
 لما تسرعت من غير تفكير
 فنزلت هذا البئر . الوداع ، فأنا منه خرجت
 لجهنم ان تخرج ، ابذل من الجهد ما استطعت ؛
 فاني الآن مشغول بأمر خطير
 لا يسمح لي بالوقوف على الطريق »
 تبصر في اعمالك بالعواقب تنج من كل ضيق .

الفروع واولاده

إعملوا ، وتحملوا الصناء :
هذا رأس مال دائم معهود .

. . .

إحس بدنو" الأجل فلاح من الاغنياء
فاستحضر اولاده وأسر" اليهم من غير شهود
قوله : وحذار ان تبيعوا الحقل
الذي تركه لنا آباؤنا :

فهنالك كنز تفضيه أرجاؤنا .

لا اعرف المكان ؛ ولكن الشجاعة والعقل
سيظفرا نيك به ؛ وتعودون خير معاد .
فهبوا حقلكم غب" وقت الحصاد :
إحفروا الأرض حفراً ، لا تتركوا من مكان
إلا تمهده ايديكم بين آن وآت . ،
ما كاد الوالد يقضي اجله حتى هب" بنوه الكرام
يقلبون الارض قلباً ؛ حتى انها آخرت العام
عادت عليهم بالخير المميم .

لا مال نخبتنا ، لكن الاب كان الرجل الحكيم
اذ يئن لهم وهو لهذه الدنيا يمجوز (١)
ان العمل المثمر هو احد الكنوز (٢)

الحظ والولد الصغير

على حافة بئر سحيقة
كان ولد يغط في نومة عميقة

(١) يجتاز ، وذلك كناية عن الموت (٢) V P: 75-76 Livre:

وهو اذ ذاك تلميذ غريب ،
 والتلاميذ يرون أن كل شيء فراش وسرير .
 فلو كان في مثل حاله احد الاشراف
 لوثب عشرين باعاً بلا خلاف .
 لحسن الطالع ، بالقرب من ذلك المكان
 مر " الحظ " ، وأيقظه في أمان ،
 وأنشأ يقول : " يا صغيري ، انا منقذ لك الحياة
 فكن بعد الآن عاقلاً ، تلك مني اليك رَجاءٌ ،
 فلو ترديت في هذه البئر لوُجّه اللوم الي
 وهي مع ذلك غلظتكَ ،
 فأنا اسألك فلا تخف عني :
 أفهذه الفظيمة ، طيشتك ،
 هوى من اهوائي ؟ ، قال هذا وتوالت .
 اما انا فرأيه ارى .
 ما يحدث امر في المسالم
 إلا توجه الى الحظ لاثم ،
 فهو الضامن المسئول في كل الامور .
 وما يمكن من حق ولا طيش ولا تهاون أو غرور .
 الا ظننا اننا نتصل منها باتهام خطئنا :
 فالخط دوماً علّة خطئنا !!

(١) الحيوانات المرضى بالطاعون

الضراء التي نشرت الذئعر ،
 تلك التي ابتدعتها السماء في نقمة وسعتر (٢) ،
 لتعاقب الأرض على شرورها وجرائمها ،

(١) 15 — 13 P, VII Livre (٢) حالة الجنون

الطاعون^(١) ، وذاك انه ينبغي ان ندعوه باسمه الملعون ،
 فهو جدير ان يُعْثَى في يوم واحد آشثرون^(٢) ،
 ضراء صبت على الحيوانات سخائمها^(٣) .
 لم تنفق^(٤) عن بكرة ايها ، بيد أنها أصيبت جميعا
 لما إن ترى بينها مشغولا
 في التماس دعامه لحياة فانية^(٥) ؛
 مامن طعام يشرطهم شاهدة^(٦) .
 لا الذئاب ولا الثعالب يرصدون
 فريستهم اللطيفة البريئة ،
 والقماري^(٧) كانوا يهربون :
 لم يبق حب^(٨) ، فلا افراح هنيئة .
 عقد الاسد مجلسا وقال : يا اصدقائي الاعزاء ،
 اظن ان قد أذلت السماء
 من اجل خطايانا بهذه الداهية .
 فعلى الاكثر من بيتنا إجراما
 ان يضحى بنفسه ليُعمل فيه غضبُ السماء انتقاما
 فلمله بذلك يمد إلينا الشفاء ثانية .
 والتاريخ ينبئنا أنهم في مثل هذه الأعراض الويلة
 كانوا يقدمون مثل هذه التوضيحات الجلييلة .
 لا نُداهتَن^(٩) انفسنا قط ، ولننظر من غير كسامح او غفران
 الى الحالة التي عليها الوجدان .
 أما انا فقد استرسلت في إرضاء شهوات الشهم^(١٠)
 فافترست كثيرا من القنم^(١١) .
 بماذا اساءت الي^(١٢) ؟ لا إساءة
 بل انه حدث لي احيانا أن اكلت^(١٣) ، ولم اراع^(١٤) ،

(١) نهر في الجحيم ، ويراد به الجحيم نفسها (٢) احتادها (٣) تنقت الدابة : ماتت
 (٤) شهوة الى الطعام (٥) جمع قمرية : ضرب من الحمام .

صاحبها الراعي

سابذل اذن نفسي ، اذا وجب ؛ لكن ارى ببراءة
انه يحسن بكل واحد ان يتهم نفسه مثلي
لأن علينا ان نأمل ، وفق كل عدالة
أن أكثرنا ساءة يلقي الموت واهواله

قال الثعلب : « سيدي ، وسأوسك على طييك تدل » ومن قدرك تقني .
ليت شعري أبعث أكل الخرفان والاسافل والأنواع البليدة
خطيئة ؟ كلا ثم كلا . فانت يا ذا الجلالة الرشيدة
تشر بها بالهامكها وترد هاسعيدة ؛
أما الراعي فحق ما قيل
إنه جدير بكل اذى وتكيل

لأنه من هؤلاء الناس الذين لا يفتشون
يحملون لانفسهم علينا سلطاناً وهم يتخيّلون . ،
كذلك قال الثعلب ؛ فأخذ المراءون بالتصفيق .
ولم يجرؤ احد على التفكير العميق
فيما اقترفه النمر او اللب او القوى الأخرى
من آثام لا تغتفر واذى .
كل واحد من اهل الشراسة ، حتى الكلب الحقيق ،
كان حسب ادعائه كالقديس الصغير .
• • •

تقدم الحمار بدوره وقال : لدي ذكرى غامضة
أتى مروت يوماً بمرج الرهبان ،
فالجسوع والعشب الغض والفرصة العارضة
ولا يخلو الامر من اغراء الشيطان ،
دفعني فأخذت من عفو هذا المرج بقدر طول لساني .
لم يكن لي فيه اي حق ، اذ يجب التكلم من غير غش . ،
على اثر هذه الكلمات نادى الويل للجحش .

"برهنن الذئب"، وما اقل علمه ، بلغوا البيان
على وجوب التضحية بهذا الحيوان الملعون
هذا الأمعط ، هذا الأجر ، مصدر البلاء ، الخئون.
ثم قضوا عليه ان يصلب لهذه الهفوة
أياً كل عشب الآخرين ! جريمة توجب كرهه !
لا شيء يستطيع ان يكفر عن كبريته
غير موت عاقبوه به من ساعته .

. . .

كيفما تكن بين بسطة القوة او مظاهر الضعف
يكن حكم القضاة عليك بالعدالة او بالفساد .

(٢) العربية والزبانية

في طريق صاعد واصير كثير الرمال
معرض للفق الشمس تال منه كل منال .
كان ستة جياد اقوياء تجر عربة .
وكان النساء والرهبان والشيخ مترجلين (٣) جميعا ؛
والدواب تنفض بالعرق زافرة خائرة القوى .
وفيهم كذلك عرضت لهم ذبابة ، وكانت من الخيل على مقربة ،
وزعمت انها تنشطهم (٤) بما لها من طنين ،
فهي تنجز (٥) هذا وتخز ذاك ، ظانة في كل حين
انها تسير الآلة الثقيلة ،
وهي تجلس على الجير ، وعلى انق الخوذي .
ما كادت العجلة تخطو خطوات قليلة
وما كادت ترى الجماعة تمشي ،

(١) أمعط الحيوان : قل شعره فهو أمعط (٢) Livre VII, P : 17—18 (٣) من
ترجل : منى راجلا (٤) كثيراً ما نستعمل ضمائر الذكور المفرد للتشخيص
(٥) من وخز : قرص قرصاً خفيفاً

حتى نسبت الى نفسها المجد من دونهم ،
 فذهبت وجاءت معنية مستعجلة : حتى كأنها
 عريف معركة يجول في كل مكان منها
 ليدفع بمجنوده الى الامام ويستعجل النصر بهم .
 ان الذبابة المشكو في هذه المصلحة العامة
 من انها تعمل وحدها والآخرين في راحة تامة ؛
 فما من احد يساعد الخيل لتخرج من هذه الورطة .
 الراهب يتلو صلاته وفرضه :
 ما أحسن ما يستخدم وقته ! وهناك امرأة تقني :
 الحق انها قضية اناشيد فهي تجدي وتعتني !
 ذهبت سيدتنا الذبابة تآزر في الآذان ،
 وتلقي بسخافاتهما في الميدان .
 بعد جهد جاهد وصلت العسيرة المكان المال .
 الآن فلنتنفس الصعداء ! قالت الذبابة في الحال :
 « لشد ما عملت حتى استوت جماعتنا أعلى الجبل .
 الا ايها السادة الجياد أعطوني أجر هذا العمل » .

• • •

كذلك بعض الناس يذلون الحماسة والجهد ،
 فهم يتدخلون دائماً في كل الامور
 ويمثلون دور الضروري ذي الضرر ،
 على انهم ، وهم الثقلاء اينما كانوا ، لا يستحقون غير الطرد .

المحاربة وقعب الحليب (١)

« قرطاس » ، على الراس ، كانت تحمل قعب حليب
 موضوعاً على حشيشة (٢) وضع حادق أريب ،

(١) Livre VII, P : 19—20 (٢) وسادة

وكانت تأمل ان تنتهي الى المدينة بخير وسلام .
 فهي تسير بخطا واسعة خفيفة قصيرة الثوب ؛
 اذ لبست ذلك اليوم لتنشط على ما يرام
 خفّين مستويين وسروالاً من غير عيب .
 فلما أحسّت حلاقتها هكذا ثيابها
 اخذت بفكرها تقيّئ حسابها
 فتحصي ثمن الحليب ، وتستخدم ما يفلح من نقود ؛
 وتشتري مئة بيضة ، وتتخذ ثلاث حواضن لها ؛
 كانت الامور تسير سيراً حسناً بمجدها المهود .
 وكانت تقول : سهل عليّ
 ان اُربي "ابعض" الفارابيح "حول" بيتي الصغير
 فان لم يترك الثعلب بسين يدي
 من الدجاج ما يكفي لاقتناء خنزير ، فانه لحاذق بصير .
 فالخنزير سيكلف قليلاً من النخالة ليقنو الشحم الغزير ؛
 لقد كان لما امتلكته (١) من الضخامة بمكان ،
 وسأحصل ببيعه على مال جيد كثير .
 ومن ينبغي ان اضع في زريتي من ذوات الالبان
 بقيمتها بقرة حلوباً ذات عجل وديع ،
 وأن اراه لاعباً واثباً بين القطيع ؛
 قرطاس على الأثر وثبت كذلك وقد استخفها الطرب :
 فوقع الحليب ؛ الوداع ايها الدجاجة والخنزير والبقرة ذات الحلب (٢) .
 تركت سيده هذّه الارزاق (٣) بعين ساخطة مكذّرة
 هكذا مالها المبدّد ،
 طالبة من زوجها المعذرة ،
 على خطير أن "تجلسد" .

(١) صيغة الفعل الماضي هنا بمد صيغة المستقبل يدلّ على عاطفة « قرطاس » ، وكأنّها ظنّت ان حلها
 قد تحقّق (٢) الحلب : كالحليب (٣) الارزاق الخيالية ، والسخرية هنا ظاهرة .

لقد صاغوا من هذا الخبر أطروفة ،
باسم قعب الحليب كانت موصوفة ،
ايّ ذهن لا تطرقه الاحلام ؟
ولا يبتني قصوراً من اوهام ؟
بيكروشول (١) ، بيرّوس (٢) ، الحلاية والناس اجمعون ،
الحقّ منهم والراشدون ،
كلّ يحلم في يقظته ؛ لاشيء أحلى من ذلك عندنا :
ضلالٌ مستعذب هو عندئذٍ لنفوسنا مالب .
كل مافي العالم يصبح ملكنا ،
كل الاجباد ، كل الحسان الكواعب .
عندما اكون وحيداً ، اتحدّني اشجع الشجعان
أشرد مع الخيال ، اخلع الشئاء دا السلطان .
أنتخبُ ملكاً ، شعبي يحبّني ،
تيجان الماس تمطر رأسي وابلا :
فادا ما حدث ان طارئاً اطانني الي نفسي وايقظني ،
فأناحنّا ، الفلاح الجاني ، كما كنت اوتلا .

الصرصور والنملة

قضى الصرصور في الفناء
صيفه جمّعاء ،
فوجد نفسه جرداً محروم
لما أوشكت الشمال على القدوم (٣) :
ما من قطعة واحدة صغيرة
من ذبابة او دودة حقيرة .

(١) يطل واسع الاطراع تخيله الكاتب رابليه Rabelais (٢) ملك ايريا ، كان يحلم باحتلال العالم (٣) الشمال : الريح التي تهب من ناحية القطب ايذاناً بقدوم الشتاء .

فيمش بجارته النملة ،
 شاكياً الجوع والقلّة ،
 راجياً ان تقرضه بعض الحب
 ليقم أوّده ويفتأ السغب (١)
 حتى الفصل الجديد (٢) .
 قال لها سيكون التسديد
 قبل آب (٣) ، بينما من حيوان ؛
 رأس مال بفائدة يُزات .
 غير أن النملة ليست بدائنة :
 ذلك أيسر ما فيها من وزر (٤) .
 فقالت للمستدين بسخر :
 ما صنعت أيام الصيف الفائتة ؟
 — كنتُ أغثي ليل نهار ،
 وقيت الأدي ، لكل قادم .
 — كنتُ تقني ؟ يسرني مرحاك الدائم :
 فارقص الآن لكل مار (٥) .

(٦) الغراب والثعلب

جثم المعلم « غراب » ذات يوم على غصن ،
 وكان في منقاره قطعة من جبن .
 واذا جذبت الرائحة المعلم « ثعلباً » اليه
 وقف يجاذبه ما يشبه الحديث التالي بين يديه :
 « هيه ! صباح الخير ايها السيد الغراب
 ما الطفك ! ان بهاءك لشيء عجاب !

(١) فتاً : سكن . السغب : الجوع (٢) يريد الريح (٣) آب : شهر الحصاد
 (٤) الوزر : الأثم (٥) Livre I ، P : 19 (٦) Livre I ، P : 20

من غير كذب ، لو كان ريشك
يشاكله في الحسن صوتك
اكننت في هذه الغابات سيد الطيور ،
سمع الغراب هذه الكلمات فجئن من السرور ؛
واراد ان يظهر جمال نعمته
فأفزع منقاره المريض عن صيده .



تلقفها الثعلب وقال : يا سيدي الكريم :
لأعلم ان كل منافق فميم
يمش على نفقة من يستمع اليه .
فمن يعطك هذا الدرس لا تستكثر قطعة الجبن عليه .
فأقسم الغراب وهو خجيل خزيان
ألا " يكون بعد اليوم ضحية الملق ، ولكن بعد فوات الاوان .

الصفدة التي تريد ان تكون في صفدة الثور (١)

رأت صفدة ثورا
اعجبها جميل قامته .
انها اتمد ، وهي التي في حجم البيضة صفرا ،
وانها لتنتفخ ، وتجهد ان تكون في صفدته ،
حسداً منها لهذا الحيوان ،
وكالت تقول لأختها الرزان (٢) :
وأريثك ، أبكفي هذا ، ألم أبلغ حجم البقرة الكبيرة ؟
- كلا . - أعيدي النظر اداً تري اختك أين بلغت
- ما كنت لتبلغيه أبداً . وما زالت الصفدة الحظيرة
تجد في الانتفاخ حتى انشقت .

. . .

الدنيا ملائى أناساً ما هم أحذق من الصفدة وأحكم :
فأوساط الناس كلهم يريدون ان يبنوا مثل العظماء
وصغار الأمراء يوفدون السفراء
وكل وجه يريد ان يكون له الحجاب والخدم .

الذئب والكلب (٣)

لم يكن للذئب غير الجليد والعظم :
لشد ما كانت حراسة الكلاب .
هذا الذئب التقى درواساً (٤) جميلاً من ذوي المزم
شحيماً (٥) صقيلاً ، كان قد ضل بين الرحاب (٦) .
أيسطو عليه ، أينسب فيه انياب غادر ؟

(١) Livre premier, P : 20 (٢) مؤث رزين : وهو الوقور

(٣) Livre premier : 21-22 (٤) الذئب : الكبير الرأس من الكلاب

(٥) سمياً (٦) الاراضي الواسعة المنبت ، رجة او رجة

كان السيد الذئب يريد ذلك عن طيب خاطر .
 بيد أنه أعرض عن قتال وآثر السلامة
 فالدرواس كان من الضخامة
 بحيث يزود عن نفسه بشجاعة .
 فاقترب منه الذئب اذاً في ضراعة ،
 وجاذبه الحديث ، واثنى على ما فيه من براعة ،
 وعلى صحته ، وهي منه موضع الإعجاب .
 اجاب الكلب : « ايها السيد العالي الجناح ،
 عليك انت انما يتوقف ان تكون في السمن لي مثلاً .
 فارق الغابات تحسن فعلاً .
 إن اشباهك فيها لبؤساء ،
 صعاليك محدودون (١) وأبالسة أشقياء ،
 * كتب عليهم ان يموتوا طوي (٢) .
 اذ أين منك الحياة الوداعة واللجمة السائنة ؟
 فطعامك على مثل حد السيف إن كنت بالغه .
 الا فاتبعتني تصب حظاً احسن وأوفى .
 فاستأنف الذئب يقول : « ما ينبغي لي ان اعمل ؟ ،
 فرد الكلب ان لا شيء تقريباً ، إن هو إلا ان تطارد
 المتسولين كأنك لكل حامل عكاز راسد ؛
 ثم تداهن سكان المنزل ، وترضي مولاك :
 بذلك تنال أجر مسماك ،
 فتحظي بأنواع كثيرة من فضلات الطعام ،
 من عظم دجاج وعظم حمام ؛
 دع عنك صنوف الملاطفة .
 عند ذاك اخذ الذئب يحلم بالسعادة والهناء
 وجرت دموع الحنان منه بسخاء .

(١) المحدود : المنوع من الخير (٢) جوعاً

وفيما هما على الطريق لمح عنق الكلب أمعط .
 قال : ما هذا - أجب : هذا شيء يسير .
 قال : زدني - قال لعل الطوق الذي به أربط
 هو سبب ما ترى من عنق قشير .
 قال الذئب : أربط ! فانت اذا لا تستطيع ان تركض
 حينما تريد ؟ قال الكلب : لا استطيع دوماً ، ولكن ما يهم ؟
 قال الذئب : كل المهم ، بحيث ان الطعام الذي تعرض
 تعافه نفسي ولا ترى فيه غير الشؤم ،
 لا ، بل لا أعدك كذلك بحريتي كنزاً ثميناً .
 قال هذا المعلم « ذئب » واخذ يعدو عدواً مبيناً .

الذئب والحمل (١)

حجة الاقوى هي الفضلى على الدوام ؛
 وسنقيم الآن الدليل على هذا الكلام :
 . . .
 كان حمل يريد الارتواء
 من ماء جارٍ سلسل ؛
 ففاجأ ذئب طاوي الحشا يترقب صيداً ويتجول ،
 إذ جذبته الجوع الى تلك الانحاء .
 قال هذا الحيوان بلهجة المنضب :
 « ما الذي شجعتك كل هذه الشجاعة على تكثير مشربي ؟
 ستلقى ما تجره عليك وقاحتك .
 اجاب الحمل : يا سيد ، اذا سمحت جلاتك
 لم تستسلم الى الغضب ؛
 واحري بك ان تنظر يا عالي الرب

الى اتي اروي نفسي الظامية
من المياه الجارية
تحتك على قيد عشرين خطوة ،
وأنتي لذلك ما كنت لأحدِ الاسباب
لاستطيع ان اعكرز لك الشراب



— بل تعكره ، أجابت هذه البهيمة المعروفة بالقسوة ؛
وانا اعلم أنك منذ عام بسطت في لسان الحقود .
— ولكن كيف استطيع ذلك ولم اكن في الوجود ؟
كذلك رد الحمل ، وزاد : إتي لا ازال أرضع .
— إن لم يكن ذلك إياك فأخوك الأفطع .
— ليس لي اخ — هو اذاً من ذوي قرباك ؟
لانك لا تمعفي احداً من أذاك ،
كذلك ذووك ورعاتك وكلاهم وما يتبع .
لقد بلغني أنباء ذلك : فحق لي ان انتقم .
وعلى اثر ذلك حمله الذئب

الى بطن الغابة، ثم أكله إكالة النهم،
مكتفياً بهذه الدعوى فحسب .

(١) الموت والمحطاب

حطاب فقير كسره الاغصان من كل جانب ،
كان يسير بخطا وثيدة في انحناء وأنين ،
تحت عبء الحمل وتحت عبء السنين ،
ومجهّد أن يدرك كوخه الأدخن الكارب (٢).
فلما خارت قواه من الألم والعناء
وضع عنه حمّله واخذ يفكر في هذا الشقاء :
أي صفو عرف منذ كان في هذا العالم ؟
أعلى الآلة المستديرة (٣) من هو أشقى وآلم ؟
لا خبز أحياناً ، وأبدًا تعوزه الراحة الرغبة (٤) :
فأمرأته واولاده والجنود والضريبة
والدائن والسخرة (٥)

رسمت منه هيئته الشقي وفقره .
عندئذ نادى الموت فأقبل من غير إبطاء ،
وسأله : ما تبغني من هذا النداء ؟
قال : انما دعوتك لتمدّ اليّ يدا
تردّ على ظهري هذا الحطاب ، وما اراك متأخراً أبداً .

. . .

يأتي الموت لكل شيء بالشفاء ؛
غير انه لا ينبغي لنا ان نبذل حالاً بحال :

(١) 28 — 29 Livre premier (٢) من كربه النعم إذا احزنه واشتد عليه ، فهو كارب ، ولا يصح أكربه فهو مكرب (٣) يريد الكرة الأرضية (٤) الرغبة : المرغوب فيها (٥) السخرة : هي العمل الذي تفرضه الحكومة على الناس من غير أجر .

« المذابح ولا النساء ،
ذلك هو شعار الرجال .

الثعلب واللفرفة (١)

هزّت أرواحيجمة الكرم الأب ثعلباً ذات يوم
فاستبقى للفداء الأم لقلاقة لديه .
كانت المأدبة حقيرة لا يظهر في أعدادها كبير ثم
فالظريف لم يهت عليه
ان يوجد بغير حساء صاف ؛ كان يعيش في تقدير .
وقد قدّم في صحيفة (٢) هذا الحساء ،
فلم تستطع ذات المنقار الطويل (٣) ان تطعمهم من هذا الاناء ؛
على حين استغف (٤) الخبيث بمجد يسير .
وارادت اللقلاقة ان تنقم لهذه الخديعة ،
فلم تلبث ان وجهت اليه دعوة سريعة .
قبل الثعلب المدعوة بادي السرور ، وقال :
« لا أحب ان اعامل اصحابي بكلفة واحتفال ،
وفي الموعد المضروب حطاً عصا الترحال
في بيت اللقلاقة الداعية ،
حيث أطرى اخلاقها العالية ،
وارتاح لجاهز الطعام .
شهوة الطعام ، لا يخلو منها الثعالب على الدوام .
لقد كان يطرب لرائحة اللحم
جمل قطعاً صناراً ، وكان يخاله جيد الطعم .
وارادت الداعية ان تثيره وتخزيه
فوضعت طعامها في اناء ضيق الفم طويل العنق .

(١) 29-30 : Livre premier (٢) الصحن الذي يتسع لطعام رجل واحد

(٣) اللقلاقة (٤) شربه كله

ما يسر ما كان منقار القلاقة يمر فيسه
 بيد ان خطم (١) السيد لم يصل الى هذا الممتق .
 فوجب عليه ان يمشى جاثماً الى مأواه
 آسفاً كاسفاً ككتلب أمعت دجاجة في أذاه ،
 مدنياً عليه ذنبه وقد تدلت أذناه .

• • •

أيها الخلد اعون إنما أكتب لأجلكم
 فانتظروا أن تبوءوا بما بآء به أمثالكم .

الصديقان

كان صديقان صدوقان يعيشان في « مونوموتابا » (٢) ،
 ولم يكن احدهما ليملك شيئاً لا يشاركه فيه الآخر
 ان الاصدقاء الذين يسكنون تلك الرحابا
 يقال إنهم اكرم من اصدقاء هذه الحواضر .
 فذات ليلة حينما كان كل انسان مسكناً الى الرقاد
 مستفيداً جهده ممسكاً يغشى الكون من سواد ،
 خرج احد هذين الصديقين من سريره في زعر وهم
 وأسرع نحو قصر حميمه وايقظ الخدم :
 لقد مس آل له النوم ، مورفيه ، عتبة هذا القصر .
 دهش الصديق الراقده فتسلح وحمل ما في خزانته من وفر ،
 وتقدم الى الآخر قائلاً : ما اقل ما كنت تعدو
 والناس نيام ؛ فانت تنام الليل جيداً فيما كان يبدو :
 فلعلك لم تنخر كل مالك في المقامرة ؟
 والا فدونك الموض . أم تراك كنت في مشاجرة ؟

(١) الخطم : فم الدابة (٢) يقول الشارح : انما اختار الشاعر هذا الاسم التريب ليعين
 غرابة الصداقة في الدنيا وندرتها ، فكأنه يقول : اذهب الى بلد الاوهام والخرافات لتجد
 صديقين وفين .

فلدي خنجري ، هلم . ام انت في ضيق نفس وملال
من انك تنام ابدًا وحدك ؟ فان أمةً من ذوات الجلال
ترقد الى جانبي : أفتريدها نحوك تسمى ؟
— كلا ، قال الصديق . فلا هذه ولا الاخرى .
اشكرك على لطفك الاسمى .

بيد أنك ظهرت لي حزيناً فيما يظهر للنائم ،
وخشيتُ ان يكون ذلك حقاً ، فانا عجلان قادم .
يدفعني الى ذلك حلمي (١) البفيض .

. . .

ايها اصدق جباراً ؟ ماذا يلوح لك ايها القاري ؟
اما انها لقضية تستوقف النظر .
الصديق الصدوق ما احلى منه الوداد ؛
انه يبحث عن حاجاتك في اعماق الفؤاد ؛
يحفظ لك الكرامة والعفاف ،
فلا داعي الى ان تبسط حاجتك بين يديه .
حلمٌ ، ومٌ ، من كل شيء يخاف ،
اذا كان لذلك علاقة برجل حبيب اليه .

الرؤس والفأر .

البعامة والنملة .

علينا ان نجسّن جهد المستطاع الى الناس أجمعين ؛
فالاسان دوماً في حاجة الى من هو أصغر منه
هذا هو الحق ، وهتان حكايتان عنه ،
فما اكثر ما نجد على ذلك البراهين :

. . .

(١) الحلم : بضمة وبضمين : الرؤيا .

بين أقدام احسد الأسود
 خرج فأر من الارض على غير رويّة .
 لقد كشف ملك الحيوانات عن خلقه المهود ،
 بهذه المناسبة ، فمنحه الحياة بغير ما أذية .
 هذا المعروف ما كان ليضيع ؛
 إذ احتاج الأسد الى الفأر الوضع ؛
 أكان هذا الأمر يخطر على بال ؟
 مع ذلك فقد حدثت ان وقع هذا الاسد
 في حباله (١) حينما عن آجابه ابتعد ،
 ولم يستطع زئيره ان يفك اسره بحال .
 هنالك بادر السيد الفأر وما زال يمسسل الاسنان ،
 حتى قرض حلقه جرّت على الحباله العطب .
 الصبر وطول الزمان
 يصنعان أكثر من القوة والغضب (٢) .

★ ★ ★

الامثلة الأخرى مأخوذة من حيوانات أصغر :
 على حافة ساقية جلاواء كانت يمسامة تشرب ،
 عندما تردت فيها نملة كانت ذلك الماء تقرب ؛
 وكنت ترى النملة في جدها الأكبر
 تحاول من غير جدوى شاطئ هذا الخضم .
 لم تلبث اليامة ان أسدت جملها :
 إذ خفت الى النملة وألقت في سيلها
 عوداً من العشب أتقدها من تلك الظلم .
 هكذا نجت ؛ وعلى أثر ذلك
 مرّ فلاح جافٍ حافي القدمين هنالك .

(١) الحباله : الفخ (٢) الكتاب الثاني ، القطة الحادية عشرة . لاحظ ان لهذه القطة
 مفرزين « المرّب »

هذا الفلاح كان يحمل بالصدفة قوساً .
 فما ان رأى طير فينوسا (١)
 حتى ظنه في قدره وطاب به نفسه .
 واذا كان فلاحنا يتهيأ ليقتل يمامته
 تمخذه النملة في القدم ،
 فيدير الصلوك هامتة :
 فتراه اليامسة وترحل على وجه أتم .
 لقد طار معها عشاء هذا الفلاح
 ولم يحظ الرجل بمحيزة (٢) من ذات الجناح (٣) .



(١) كان الاقدمون يندرون الحمام لفينوس الهة الجمال (٢) بقليل (٣) الكتاب الثاني ،
 القطعة الثانية عشرة

لا روشفوكو LA ROCHEFOUCAULD

هو فرنسوا ، امير «مارسيياك» ، الذي عرف فيما بعد بالدوق لا روشفوكو . ولد في ايلول ١٦١٣ ، من اسرة نبيلة قوية ؛ وتزوج في سنه الرابعه عشرة ، وقد كتب بمدث في «حكيمه» : « من المعلوم انه لا ينبغي للمرء ان يتحدث عن امراته » . وفي الحق انه لم يتحدث قط عنها . ولكن هذا لا يعني انه مشغل بعدد من شهيرات النساء : منهن السيدتان شيفروز ، ولومجفيل ، والآنسة هوتفور ، اللواتي خضن معه غمصار حرب «الفروند» ضد الوزيرين ريشليو ومازاران ؛ تلك الحرب العوان التي اضرم ناراها البرلمان الفرنسي ، بعضده الأمير كوندني والكاردينال دي رتز وطائفة من النبيلات ، ومن ورائهم جميعاً المملكة الاسبانية تشد ازرهم وتمدّم بالسلاح . كان ذلك في طفولة لويس الرابع عشر ، وشئون الحكم في يد مجلس الوصاية . فلما وضعت الحرب اوزارها ومل صاحبنا السياسة ، توثقت اواصر الصداقة بينه وبين عدد من ادبيات فرنسا مثل : مدام دي سيفنيه ، ومام دي لا فاييت ، ومام دي ساپليه ، وهن يومئذ من ذوات الصالات الادبية المعروفة (١) . لم يكن لا روشفوكو يرمي في الواقع من وراء تلك الحرب الا الى تحقيق مطالعه ، شأن جميع الذين اشعلوا ناراها معه ؛ ولا شك ان تشاؤم الرجل ، كما يبدو في كتابه «الحكم» راجع الى سوء ظنه في نفسه وفي الناس ؛ ثم زادته تجاربه العنيفة وهو يدبر المكائد ويخوض الماركوبيلو الناس من أمم يقيناً فيما يرى ؛ وقد اعترف « بأنه يكاد يكون من المستحيل ان يكتب اللسان تاريخاً موثقاً للحركات الماضية » لحرب الفروند ، لان الذين كانوا لها سبباً انما بعثتهم عليها مطاعم دنيئة ، فحرصوا على الا يعلم الناس حقيقة ما جرى فيها ، خوفاً من ان تأخذ عليهم الاجيال القادمة أنهم ضحوا لمصالحهم بسعادة وطنهم (٢) . «التشاؤم والحزن وسوء الظن بالناس والشعور بالخيبة تلك هي الملامح البارزة في حياة هذا الاديب وفي «حكيمه» . وقد كتب وهو في الخامسة والأربعين : « في هيتي حزن وكبرياء . لقد بلغت كآبتي أنني لم تفتّر شفّتي عن أكثر

(١) L.F.U. 289 L.U. مادة : Fronde (٢) L.T. 224



لا روتفو کو

من بضعة ابتسامات ، منذ ثلاث او اربع سنين . أمضي اكثر وقتي اما حالماً لا أنبس بكلمة ، او غير آبه لما اقول (١) . كانت السنون الاربعون الاولى من حياته رواية حب وحرب وطموح . اما الحكمة فلم تنفره الا بعد لأبي (٢) ؛ فكانه إنما كان يتشغل بها عن همومه ويسلوها آماله الضائعة . ثم يجيء دور الشيخوخة الهادئة التي استمتع فيها بصداقة تلك الطبقة الراقية من رواد الصالات . اما الكاردينال دي رتز ، رفيق الثورة الذي اتصلت بينه وبينه ذات يوم اسباب الخصومة ، فقد رُمد الى مودته ، وكان ممن يرغبون في عشرته . وفي آذار ١٦٨٠ وافاه الأجل تائباً متديناً بين ذراعي رجل الفصاحة والدين : بوسيه (٣) .

لقد باء هذا الرجل بالفشل ، لأنه ، على جلالة قدره ، ملثوي الطبع مشئت الهوى : فالزهو والصلاف يحولان دون تحقيق مطامعه ، والأهواء العنيفة تفسد عليه خططاً ثابته ، والذكاؤ الوقادي هوش ارادته . يقول رتز : « لم يكن لا روشفو كو جديراً بتحقيق أمر ما . . . لأنه كان دائماً فريسة التردد . » ومن المؤكد انه لم يكن على وفاق تام مع رجال حزبه ، اذ كان فيما يظهر غير واثق من قضيته ، لا بل انه لم يكن يدري على التحقيق فيم هو ينحاز الى فريق دون فريق ؛ ويقول رتز : « انه لم يكن قط محازباً صالحاً . » ذلك لأنه كان ينفذ بناقب فكره الى مواطن الامور ويستجلي دقائقها وخفاياها ؛ فلم يخف عليه ما يعترض جماعته من صعاب ، كما لم يكن يخفى عليه دواعي الحق والباطل عند الفريقين المتحاربين .

فلسفته — على ان رهافة الاحساس ونفاذ التفكير إن حالايين اديبنا وبين النجاح في الحياة العملية ، فقد اصبحا دعائمي عبقريته منذ ا طرح السياسة ومغامراتها ، وانصرف الى رسم صورة للقلب الانساني بريشة المصور البارع والحكيم النافذ البصيرة (٤) . وقد حظيت حكمه عند الجمهور وتتابعت طبعاتها في حياته حتى بلغت خمساً ، تحتوي الأخيرة منها ٥٠٤ حكم (٥) . لقد شاق هذه الحكم الجمهور وأفرعته . انها آراء رجل متشائم عجم الدهر وحلب أشطره فانزاحت عن عينه الحجب وكشفت له الأسرار . وجدوا انفسهم امام مفكر صارم ينشر مخازي الانسانية ولا تأخذ رحمة بما في المجتمع من كذب ونفاق ، ولا ينعص حتى عن هذا الدهان البريء الذي تقاسم فيه لانفسنا لنظهر

(١) L.F.U. 289 - 290 ابطاء (٢) L.T. 224 - 225 (٣) (٤) الكلام بعد

الإشارة الثالثة من : L.F.U. 290 (٥) L.T. 226

امام الناس بالمظهر اللائق ولنستقر في حياتنا على حال !
 يرى لا روشفو كو أن العقل عرضة أبداً لتأثير اهواء كثيرة مختلف حيناً وتختلف
 آخر . فليس العقل هو الذي يقود خطانا ويسيطر على اعمالنا ، وليس هو بأهم شيء في تصرفاتنا .
 كلا ، ولا الإرادة هي القوة الآمرة التي لا مرد لأحكامها : « ينجي إلى المرء غالباً انه يقود
 من حيث انه يقاد : فيدنا ينزع بفكره إلى غاية ، يجذبه القلب من غير ان يشعر إلى
 أخرى . » وعلى ذلك فان العقل تحت سيطرة الاهواء تتحكم فيه كيف تشاء ، فاذا
 استطعنا ان نقاوم اهواءنا ، فذلك لأنها ضعيفة ، لا لأننا اقوياء . ثم ان معركة الاهواء
 التي تبث الحيرة والقلق في نفوسنا إلى غير ما نهاية هي معركة قوى متفاوتة ، معركة
 لا شأن فيها لارادتنا ولا لمقلتنا ، إلا أن يكون ذلك الشأن مراقبة للمعركة وتحمياً لها
 ان تتجه هذه الجهة او تلك ؛ ثم تتجلى المعركة عن انتصار الهوى الأقوى ، كما ترجح كفة
 الميزان الثقيلة وتشيل الكفة الخفيفة . لقد تكون النفس سليمة من الأدواء ، ولكنها تبقى
 عرضة لها على كل حال : « فسلامة النفس ليست بأضمن من سلامة الجسم ؛ والمرء وان
 بدا بعيداً عن الأهواء ، فما هو بأقل عرضة للتردي فيها منه للوقوع في المرض في حالة
 الصحة . » وما ابعدا عن محجة الصواب « حين تفارقنا بعض العيوب ، فيخيل إلينا اننا
 نحن الذين فارقناها (١) ! » وهنا يبدو هذا الفيلسوف الأديب على طرف نقيض من
 ديكارت وكورني اللذين يجهلان الحل الأول للعقل والإرادة ؛ ويقترب من جماعة
 الجالسنيين الذين يعتقدون بضعف الانسان وقلة حيلته ، إلا أن تتداركه نعمة من الله
 وعفو . بيد أن لا روشفو كو يختلف عنهم في انه لا يصدر مثلهم عن عقيدة دينية ، بل
 عن ملاحظة وطول تفكير (٢) .

• • •

هل يكفي تعادل الأهواء لتفسير الحيرة والارتباك في أطواء النفس ؟ فيجيبنا
 لا روشفو كو انفسير حركات النفس في ذاتها أولاً ، وفي علاقاتها مع الناس ثانياً ، إلى
 ما اودع فيها من قابلية للتكيف والتلون ، إلى ما يمكن ان ندعوه بـ « نزعة النفاق » ففضائلنا
 ليست في الأغلب إلا نقائص « منكثرة » ، واهم هذه النقائص التي تتوارى عن العيون هو
 الانانية ، حب النفس ، الأثرة : « تضعيف الفضائل في توختي الفائدة الخاصة ، كما تضعيف

(١) L.F.U. 291 (٢) L.T. 226—227

الانهار في البحار . « تدخل الميوب في تركيب الفضائل ، كما تدخل السموم في تركيب الأدوية . » هذا هو محور فلسفته ومذهبه في الاخلاق . ليس في الدنيا إلا الانانية ، الا السمي وراء المصلحة الفردية . فأجمل الاعمال ما هو إلا ظواهر براقة . ليس هناك اصدقاء اوفياء ، ولا نساء شريفات ، اعني شريفات باختيارهن ورضاهن . انما نحن لؤماء شريرون بحكم طبيعتنا التي فرضتها علينا الاقدار ، كما فرضت علينا ان نكون سعداء او تأساء . لا شك ان اعمالنا اعقد مما تصور هذه الحكم الشديدة الحبك القصيرة النفس : فالغيرة تختلط بالانانية ، ومن الخطأ ان نذكر الانانية ونضرب صفحاً عن الاولى . تشوب الفضائل في الغالب اهواء غير مشرفة بيد أننا نحيد عن جادة الصواب حين نحسب ان هذه الاهواء تلحق تلك الفضائل وتبيدها عن آخرها . ثم لا ننس هذه التلة المختارة من الناس « التي تفعل الجميل لأنه خير » واجمل ، لا لأجل صلاحها . « على ان قيمة هذه الحكم في انها تعبر بجلاء وصدق عما يتراءى لصاحبها انه الحق ، عما لمسه لا روشفوكو في نفسه وفي بعض من اتصل بهم من رجال عصره ، من امثال مازاران ورتز والأمير كوندتي (١) . ثم قيمتها في انها تصوب الانوار الى جوانب الضعف في النفس الانسانية فتبرزها للعيان . انظر الى قوله : « ان الاعتراف بالجميل عند أكثر الناس ماهو الا رغبة قوية خفية في استئزال المزيد من المنافع . » والى قوله : « ان ما ندعوه بالاريمية او الكرم ما هو في الأغلب الا التبجح بالعطاء . » أليس ذلك مع مزيد الاسف هو حال العديد الاكبر من الناس في كل زمان ؟

هذه الحكم تؤلف كتاباً من اعرق الكتب في دراسة القلب ونوازعه واهوائه . انها تهتك الستار عن نفاقنا المستر وراء الحجب الصفيقة . ومن هذه الحكم اخذ الفلاسفة النفميون والماديون في القرن الثامن عشر فلسفتهم وعليها بنوا مذهبهم في الاخلاق . أخذوا امثال قوله : « الرحمة هي في الاكثر الشهور بالامنا بالتأمل في آلام الآخرين ، انها لحيلة أريية لما عسى ان تقع فيه من شقاء . انما نعطي المعونة غيرنا لنضطره الى بذلها لنا حينما نكون في حاجة اليها . وهذه الخدمات التي نقرضها الآخرين هي في فصيح العبارة خير نصنمه مقدماً لأهشنا . » لقد أخذوا امثال قوله هذا ليتبنوا مذهبهم في النفيسة ، وهو يدعو الى مد يد المعونة الى الغير لتأمين حاجات النفس بالمقابل اذا عرضت (٢) .

(١) المصدر السابق ثم L.F.U. 291 (٢) المرجع السابق

نماذج من حكم روثفوكو

حب^١ المنفعة يتكلم انواع اللغات ويمثل مختلف الادوار، حتى دور المنز^٢ عن الغايات.

. . .

ما اسرع ما نجد العزاء عن مصائب اصدقائنا اذا هي اتاحت لنا ان نظهر عطفنا عليهم.

. . .

نفضل ان نتحدث بالشر^٣ عن انفسنا على ألا نتحدث عنها أبداً .

. . .

لو حكمنا على الحب بمقتضى اغلب نتائجه لوجدناه اشبه بالقبض منه بالصدقة (١) .

. . .

مها "جيد" ما ان يوارى اهواءنا وراء ستار من التقوى والشرف ، فانها لا بد ان تبدو من خلال ذلك الستار .

. . .

"لأننا نيتسنا اضيق^٤ ذرعاً بالنقد يوجه الى اذواقنا منها بالنقد يوجه الى افكارنا .

. . .

ما الجود في الأغلب الا مستور الطمع الذي يحقر المنافع الصغيرة ليحظى بالمنافع الكبيرة.

. . .

ان ما ندعوه صداقة ماهو إلا شركة ، إلا مراعاة متبادلة للمنافع وتعارض للخدمات؛ ماهو أخيراً إلا تجارة تتناول فيها الاناية الى شيء من الكسب .

. . .

لشد ما يؤلمنا ان يخدعنا الاعداء ويغدر بنا الاصدقاء ، ولكننا نرضى ان نخدع انفسنا ونغدر بها .

. . .

(١) ما اكتر ما ينطبق ذلك على مسرح راسين « العرب »

تضيق الفضائل في المنفعة كما تضيق الانهار في البحر .

. . .

ما كانت الفضيلة لتواظب على المسير لولم يكن حب الظهور لها رقيقاً .

. . .

ندامتنا ليست أسفاً على الاذى الذي كسبت أيدينا بقدر ما هي خشية من الاذى الذي قد يحمل بنا .

. . .

ليست صحة الروح بأمن من صحة الجسد ، ونحن ، وان كنا نبدو في نجوة من الالهواء ، فلسنا اقل "تعرّضاً لخطر التهابات فيها منا للوقوع في المرض في حالة الصحة .

. . .

يظهر لنا ان الطبيعة قد رسمت شكل الانسان منذ ولادته حدوداً للفضائل والذائل .

. . .

عقلاء الرجال هم وحدهم ذوو عيوب عظيمة .

. . .

لأمراض النفس انتكاسات كما لأمراض الجسم . وان ما يتخيل اليها انه شفاء لها في الأغلب فترة انقطاع او تبديل لنوع المرض .

. . .

ما اسهل ما نسي اخطاؤنا اذا لم يعرفها احد سوانا .

. . .

ما الاعتراف بالجميل عند اكثر الناس الا رغبة قوية مكنته في تلقي معروف اكبر .

. . .

الذي ندعوه بالجود ما هو في الأعم الأغلب إلا زهو العطاء الذي تفضله على المال .

. . .

الرغبة في اتخاذ مظهر من الخداقة تحول دون الخداقة .

. . .

حب الذات يزيد في اعيننا من فضائل اصدقائنا او ينقص ، بنسبة ما تنال من رضانا ، ونحن نحكم بكفايتهم وفضلهم حسب الطريقة التي يعيشون بها معنا .

يخيّل الينا غالباً اننا نحب الذين هم أقوى منا ، على حين ان المصلحة وحدها هي
التي تحملنا على مودتهم ؛ اننا لا نبذل في سبيلهم ائاً نريد ان تقدم لهم من خير، ولكننا
نريد ان يعود علينا منهم من غم .

. . .

حب المنفعة الذي نمزو اليه كل جرائمنا يستحق غالباً ان نتي عليه لأنه هو الدافع
لنا الى طيب الاعمال .

. . .

من بارع الفطنة ان تعرف كيف "تخفي فطنتك" .

. . .

اهل الكياسة والخذق يتظاهرون كل حياتهم بدم الدهاء ، ليستخدموه ذات يوم
في فرصة كبيرة ولجر مغنم عظيم .

. . .

أضمن طريقة للانخداع هي ان يحسب المرء نفسه اذكى من غيره .

. . .

الطبيعة تخلق الكفاية والفضل ، والحظ يتيح لها ان يظهرها .

. . .

لمعظم الناس ميزات خفية ، كما للنباتات ، تكشفها المصادفة .

. . .

ليست حكمتنا رهينة بالحظ أقل من اموالنا .

. . .

يجب ان نتدبر الحظ كما نتدبر الصحة : فنستمتع به مقبلاً ونصابره مسدراً ، ولا
نلتمس له دواء عنيفاً إلا عند مسيس الحاجة .

. . .

العقل دوماً خدعة القلب .

. . .

بقاء عواطفنا ليس في يدنا ، كبقاء حياتنا .

. . .

تلد الالهواء غالباً تقاؤها : فالبخل يلد التبذير في بعض الاحيان ، والتبذير ينتج
البخل ؛ وكثيراً ما اظهرنا جأشاً رابطاً من ضعف ، وجرأة عن خوف .

• • •

إن تقاوم اهواءنا فلائها ضعيفة في الأغلب لا لأننا اقوياء .

• • •

الغياب يضعف العواطف الحقة ويذكي العواطف الكبيرة ، كالريح تطفئ
الشموع وتضرم النيران .

• • •

ليست النفوس الكبيرة تلك التي تحبو اهواؤها وتذكو فضائلها اكثر من غيرها ،
بل التي تضع نصب اعينها مقاصد عظيمة .

• • •

كان الطبيعة التي أدقّت تركيبنا وأحكمته لتجعلنا سعداء ، قد منحتنا كذلك الكبرياء
لتجنبنا ألم التعرف الى نقائصنا .

• • •

قليل هم الذين يشعلون بقدر من الحكمة يجعلهم يفضّلون اللوم النافع على المدح الخادع .

• • •

رفض الثناء هو رغبة في نيله مرتين .

• • •

نحب دائماً الذين يحبون بنا ، غير اننا لا نحب دائماً الذين نحب نحن بهم .

• • •

الكبرياء التي تحملنا على ذم عيوب نحال اننا منزّهون عنها هي نفسها تحملنا على احتقار
المزايا الحسنة التي ليست فينا .

• • •

يبقى حسداً دائماً أكثر من سعادة الذين نحسد .

• • •

تقتصر الفلسفة في يسر على عيوب الماضي والمستقبل ؛ اما عيوب الحاضر فتقتصر
على الفلسفة .

أنا لنستحي في الغالب من أجل أعمالنا لو علم الناس الدوافع إليها .

• • •

من الناس من تبلغ بهم الخفة والتفاهة أنهم غير أهل لأن يكون لهم سيئاتٌ حقٌ ولا حسناتٌ حقٌ .

• • •

من الناس من تزينهم النقائص ، ومنهم من تشينهم الفضائل .

• • •

ما من أحدٍ يعتقد أنه في كل صفة حسنة عنده أقل حظاً ممن يكن له أوفر احترام .

• • •

هناك نوع من الاعتراف بالجميل هو بمقام الثقة في التجارة لولاها لما كانت تجارة . ونحن في الغالب لا نفي بما علينا لمكان ذلك من العدالة ، ولكن ليسهل علينا أن نجد من يُقرضنا .

• • •

ليست البلية العظمى أن نحسن إلى نا كروي الجميل ، ولكن أن ندين لرجل لثيم .

• • •

إذا نحن أصلحنا ما بيننا وبين أعدائنا فلا نأثرنا نرغب في تحسين موقفنا ، ونحمل الحرب ، ونخشى العاقبة الوخيمة .

• • •

ليست فضائلنا في الكثير الغالب إلا عيوباً متنكرة .

• • •

الذي يجعل أكثر النساء ضئيلات التأثير بالصدقة ، هو أنهن يشعرن بتفاهتها بالقياس إلى الحب .

• • •

عندما تقالي بعطف أصدقائنا علينا فذلك في الأغلب رغبة منا في اظهار ما لنا من مزايا ، أكثر من رغبتنا في الاعتراف بالجميل .

• • •

ليس ثمة إلا نوع واحد من الحب ، بيد أن هناك مئة نسخة مختلفة عنه .

الموى غالباً ما يصيّر اللبيب مجنوناً والاحق ليبياً .

. . .

من الناس من لم يكونوا قط ليحبّوا لو لم يسمعوا بمحدث الحب .

. . .

هنالك نوعان من الثبات في الحب : احدهما يأتي من اننا لا نتفك نجد في الشخص
المحبوب دواعي مستجدة للحب ، والآخر يأتي من اننا نحب ان نباهي بثباتنا .

. . .

في نعمة الصوت ولهجته من البلاغة ما يضاهي حسن استقاء الألفاظ .

. . .

لنحن في الغالب اقرب الى قلوب الناس باخطائنا منا بخير صفاتنا .

. . .

من طبع المقول المظايعة ان تفهم بقليل الكلام اشياء كثيرة ، كما ان من طبع
المقول الصغيرة ان تقول كثيراً ولا تقول شيئاً .

. . .

ليس لضميف التفكير من الفطنة ما يجعله طيباً .

. . .

لاسهل علينا ان نبدو جديرين بما لا نشغل من مناصب منا بالمنصب الذي لشغله .

. . .

مناقبتنا تكسبنا احترام المقلاء والحظ يكسبنا احترام الجمهور .

. . .

من الجرائم ماتبراً ساحته ، بل يمجّد ، لشده وكثرته واصطيخابه . من هنا كانت
السرقات العامة : دكاء وحذافة ، وكان اعتصاب البلاد عدواً بغير الحق : فتحاً .

. . .

الماجزون عن ارتكاب الجرائم الكبرى لا يسيئون الظن بغيرهم في سهولة .

. . .

من الناس من يفوق عقلهم ذوقهم ، ومنهم من يكون ذوقهم اظهر من عقلهم . ثم

يكون في الذوق ما لا يكون في العقل من تنوع وعبث (١).

• • •

الشيخ مغمون باسداء النصيح الجميل عزاء لا تقسمهم ، لأنهم فقدوا القدرة على ان يكونوا قدوة السوء .

• • •

لست تجد بين الناس من بلغ به الشقاء او السعادة الحد الذي يتوهمه .

• • •

ان كان للعي عاطفة كان اقوى اقناعاً من افصح الناس (٢) .

• • •

وبعد فلا يسعنا الا ان نكبر ما في حكم لاروشفوكو من حقائق ؛ غير انه يسرف احياناً في التشاؤم ؛ وقد اعترف هو نفسه بذلك ، فمدل من هذه الحكم ، اذ تبين الخطأ في لجوئه الى التعميم ، فجعل في الطبعة الأخيرة يلجأ الى التحفظ ؛ وآية ذلك ما نراه في مثل قوله « غالباً ما ، في الكثير الغالب . . » وخيراً فعل ، لان في انكار الفضيحة ، كما يقول احد الاساتذة ، تبسيطاً لهم الشريفة عند كثير من كرام الناس الذين يسمعون ابداً الى المثل الاعلى (٣) .



(١) الحكم السابقة من كتاب : Maximes ومن 301 - 303 Chevaillier (٢) قصة الادب ٣٢٨ (٣) 151 - 152 Des Granges

رتز RETZ

لم تنشر «مذكرات Mémoires» ، پول دي جوندني ، كاردينال رتز ، الا في مستهل القرن الثامن عشر . غير انها كتبت قبل ذلك بنحو اربعين عاماً ؛ وينتسب الكاردينال المذكور الى ذلك الجيل الذي عرفناه بالحماسة واحترام القوة ، من غير نظر الى القيم الاخلاقية ، والذي ينتهي بتسلّم لويس الرابع عشر مقاليد الحكم الفعلي : ان رتز ليدھشك بتهاونه بالفضائل ، كما يدھشك بمطامعه المريضة وصبره الطويل .

ولد عام ١٦١٣ . وكان عمه مطران باريس ؛ فأدخل الكهنوت مرغماً ، لان أسرته كانت تحرص على الاحتفاظ بهذا المنصب الكبير . ولكن رتز ما كاد يرى ان هذا السلك هو اضمن وسيلة لتحقيق هدفه ، وهو الوصول الى الوزارة ، حتى احب عمله وتعلّق به . لقد أصبح مساعداً لعمه ومرشحاً بعده لمنصبه ، من غير ميل بادى الامر ، كما ذكرنا ، وربما كان من غير عقيدة كذلك . كان عمره حين ذاك ثلاثين عاماً . انه ليستغل منصبه ليفوز بمحبة الشعب ، وانه ليستدين المال ليوزعه على الفقراء ؛ فاذا اعترضه لاثم اجاب «كان قيصر في مثل سني مديناً بستة اضعاف ما علي» ، ومن اسف ان المنصب الذي كان يتوق اليه كان في قبضة ذلك الرجل الحديدي : مازاران . لقد كانت حياة رتز كلها جهوداً ضائعة ليحل مكان مازاران .

ثم تنشب حرب «الفروند» فيرمي بنفسه فيها ويصبح ذات حين قلبها النابض وعقلها المفكر ؛ ولكنه كان دائماً يرصد الخيانة ويببئ الغدر اذا هو قبض الثمن المناسب ؛ وعرف مازاران خطره ، فتألفه الى جانبه بوعد قطعه له برفعه الى رتبة الكاردينال ، وهو يضمن ان يحول بينه وبينها . فلما خابت امانى الرجل وعرف ان صاحبه قد مكر به ، عاد يحوّل الدسائس ويضرم نار الحرب الاهلية ، فكثّر سواده وامر أمره (١) ، واستطاع ان يلحق الهزيمة بغريمه ، وان يتوج رأسه بقبعة الكاردينالية ، الشيء الذي لم يكن منه بداً لرجل الدين حينئذ الوصول الى الحكم (٢) .

(١) أمر أمره : اشتد (٢) كما فعل الكاردينالان ريشليو ومازاران



ۛ

هكذا كان رتزيير يخطط بسرعة الى المنصب الذي تشوق له وخطر من اجله .
غير ان جهود الوزير الداهية في الخفاء ، وافكسار جيوش الثورة التي كان يقودها
الأمير كوندري أحبطت آخر الأمر مساعي الكردينال وقضت على امانه العذاب . انه
ليأبى بعدما عرف لاذة الظفر ان يعترف بذلك الهزيمة ، وانه ليركب رأسه ويقصد على
ملا من الناس قصر اللوفر الشهير ، فيقبض عليه ويذهب به الى السجن . وفيما هو في
حبسه يشاء القدر ان يموت عمه ويصبح هو مطران باريس ! ثم تسنح له الفرصة فيهرب
من السجن ويواصل الكفاح ست سنين في مأمنه . وفي عام ١٦٦٢ حظي بعفو الملك ،
على ان يتخلّى عن منصبه الكبير ويقنع بالاشراف على احد الاديرة . ولم يغب عنه فوائد
هذا العرض ، وعرف ثراء ذلك الدير ، فدخل في شرط الملك ، وقبل عفوه ، ليظهر
امام الناس بمظهر الزاهد في الدنيا ، غير ذي الحفلة بالمناصب . . . يا للمثل البارع !!

عاد اذن الى باريس ليعيش فيها رافها ناعم البال . كان يخالط الاذكيا ، ويتردّد
الى صالة مدام دي لافاييت ، ويلتقي عندها ادباء فرنسا وادبياتها . كان لاروشفوكو
ومولير وبوالو يقرءون له ما تجود به قرائهم ويستطلعون رأيه فيه . ومن حين الى آخر
كان يقصد روما مندوباً عن الملك ، فيكشف لدى مفاوضاته في مجمع الكرادلة عن
شفوف ذهن وصلابة عود لم تزل منها الايام : ما من احد يستطيع ان يتلاعب بامور
الدين والكنيسة في مثل هدوته ؛ فسا بين عامي ١٦٦٧ - ١٦٧٦ لعب دوراً كبيراً
واستطاع ان ينصب ثلاثة بابوات ؛ انه لا يفكر في غير السياسة ولا يصدر عن غير
السياسة ؛ اما الدين والورع والفضيلة ، فالفاظ حسان تستر المصالح الخاصة عن اعين
البلة ؛ ترى اكان يسره ان يظهر للويس الرابع عشر اي وزير حصيف في القدرة ان
يكونه لو ساعف الزمان ؛

وعندما لحقته السن وانقطع آخر رجاء له بتحقيق ذلك المطلب البعيد استقال من
الكردينالية : عفة أعجب بها الجمهور من غير ان يعلم ما رمى اليه وراءها من حب
الظهور بالزهد واطراح الدنيا امام الناس . كانت كهولته هادئة ، موضع احترام الجميع .
وفي اثناها ألف مذكراته . وفي عام ١٦٧٩ لفظ رتزيير آخر انفاسه .
لقد كانت حياته من فاتحتها الى خاتمتها طوع ارادته ، كواحد من ابطال كورني .

• • •

يوجه رتز «مذكراته» الى احدى صديقاته ؛ ويبدو انه لم يبدؤها للنشر ، ولذلك تأخر طبعها حوالي اربعين عاماً بعد وفاته. وهي لا تتناول غير السنين الاثنتين والاربعين الاولى من حياته ؛ واهم قسم فيها ذلك الذي يروي مغامراته في حربي «الفروند» ، وهربته من السجن وحوادثه خلال السنة الاولى من الغربة . وتنقطع هذه المذكرات فجأة عام ١٦٥٥ .

ليس لرتز في مذكراته هذه دقة العالم ولا نزاهة المؤرخ . فهي على التحقيق صورة صادقة لشخصيته المراوغة المستهتر . ما من اكذوبة لا يجرؤ عليها ؛ يحرق السنين ، ويشوه الحقائق ، ويؤثر الحوادث . وهو في كل ذلك أحرص على اظهار شخصيته وذكائه وعلى اغراء القاري بتابعة قراءته ، منه على الظهور بمظهر الرجل الشريف الذي لا يحميد عن مبادئ الفضيلة ولا يهجن في ضميمه غير المصلحة العامة ؛ فتلك في نظره اوهام الضعفاء والاغبياء ؛

اما قيمة هذه المذكرات الادبية فترجع الى ما فيها من : قصص اولاً ، وصور ثانياً ، وافكار سياسية ثالثاً .

فأما القصص فيمتاز بطرافة الحوادث وحرارة العرض . واما الصور فهي عرض قوي أخذ لبعض ذوي النفوذ في عصره ، وخصوصاً لأولئك الذين تعاون معهم وخبرهم عن كتب : الأمير كورندي ، القائد تورين ، السيدة لونيغيل ، الدوق لاروشفوكو ، اخو الملك . كل قد احكم درسه وأدق صورته بفن رائع اصيل . ولكن حذار ان تركز دائماً الى اخبار رتز ، فهو كما بينا لك محدث بارع ومصور فنان ، لا شاهد عدل ولا راوية ثقة . على ان انحرافه عن الحقيقة يعود الى نقص في النزاهة لا الى قرب غور او ضعف تقدير .

واخيراً الافكار السياسية ، وهي ما تفرضه طبيعة الموضوع من جهة ، وما يأتلف مع ذوق ذلك الجيل الكورنيلي - بالنسبة لكوراني - من ميل الى المناقشة وتقليب الأمور من جهة اخرى . هذه الافكار تمتاز بمجرى الحوادث في كل حين ، لتنفذ الى جذورها وتوضحها : يرى الكاردينال ان مصدر القوضى في البلاد - ولذا ذكر انه يتكلم عما قبل عام ١٦٦٠ - هو تجاهل سلطة مجالس النواب . لقد خضد ريشليو شوكة هذه المجالس وقضى على فوائدها . ثم جاء مازاران ينهج نهجه ويتباعد في تبذيره البغيض ، فلم يكتب له النجاح ، لأنه يختلف كثيراً عن سلفه . وهنا يرسم المؤلف صورتين

رائعتين للكاردينالين الوزيرين . ومن الفصول الرائعة في الكتاب ايضاً ، ذلك الخطاب الذي وجهه الى الأمير كوندري ، يندب فيه الى صون البرلمان ، وبأسف لما يجد عنده من تردد وتلون .

واسلوب رتز في أكثر ما كتب بارح حاراً طبعي كثير الألوان ، غير انه لا يخلو أحياناً من التكاثر والغموض (١) .

نموذج من مذكراته

هرب الكاردينال دي رتز

لما ألقى القبض على الكاردينال أودع حصناً في «نالت» على نهر «الوار» . وهو يروي هنا حادث فراره الطريف :

كنت أخرج أحياناً للزهوة على جانب من الحصن يؤدي الى نهر «الوار» ؛ فلاحظت ونحن في شهر آب أن النهر لا يضرب بامواهه السور ، وأنه قد انحسر عن فسحة من الأرض بينه وبين الحصن . كما لاحظت ان هنالك بين الحديقة والرصيف الذي يربني منه الحراس عندما انتزه باباً أقامه «شالوسيه» (٢) ليمنع الجنود من دخول الحديقة وقطف أعنابها . سمعت وفاق هذه الملاحظات خطتي ، وهي : ألا اتظاهر بشيء حتى اصل الى هذا الباب ، فأجره ورائي ، فيحول بين الحراس وبينني ، وإن تعقبوني بأنظارهم من خلال شبكتي ؛ وأن أدلّس من جبل يلقي به الي طبعي والآب «روسو» ، اخو وكيلي ، فأمتطي واربعة من النبلاء افراساً يعدونها لنا عند اقدام السور ونذهب معاً . ان تحقيق هذه النية لمن الصعوبة بمكان . لم يكن في المستطاع إنفاذها الا في وضح النهار ، بين خفيرين احدهما على مسافة ثلاثين خطوة من الآخر ، وعلى مرمى غدارة قريب المدى ، وامام أحراسي الستة الذين كان في استطاعتهم ان يطلقوا علي النار من خلال قضبان الباب . كان علي النبلاء الاربعة الذين انتدبوا لمرافقتي لاعتني على الهرب ان يرموا جانب الدقة في انتظارهم اسفل السور ، فما اسهل ما كان ظهورهم يثير الشكوك . لم يكن في يدي ان أستغني عن بعضهم ، لاني اضطررت ان امر من مكان جد قريب ، وهو في

(١) استقينا مادة هذا الفصل عن «رتز» من : L. T. 234-238

(٢) مدير الحصن

المادة ممثي حراس الماريشال (١) . لو ان رغبتى لا تتعدى الخروج من هذا الحبس ، اذن لكفاني ان اتخذت الحيلة الضرورية لما بسطته بين يديك ؛ بيد انها تذهب الى ابد من ذلك ، فقد عقدت النية على ان آخذ سميتي رأساً الى باريس ، فأعلن وجودي فيها (٢) ؛ الى شواغل اخرى هي اصعب من هذه بكثير . وجب ان اشخص على جناح السرعة من «نانت» الى باريس ، اذا كنت لا اريد ان يقبض عليّ في الطريق ، حيث لا يني رجال الماريشال يلقون الرعب ؛ وجب ان اهيب الامور في باريس حيث يهمني ان يحاط اصداقائي علماً بمسيرى ، بقدر ما يهمني الا يعلم بذلك غيرهم . تلك وسائل ما ان تقصّر في احداها حتى «نخل» بسير الآلة .

• • •

تسلّلت يوم السبت في الثامن من آب ، عند الساعة الخامسة مساءً ؛ انطلق باب الحديقة ورأيت بصورة طبيعية . وضعت بين فخذي عصا وتدايت في توفيق تام من الحصن الذاهب في الفضاء اربعين قدماً . وكان قد تولّى خادم لي لا يزال في حوزتي ويدعى «فرومانتان» تولّى أمر تسليّة أحراسي ودار عليهم بالشراب . وكانوا في مرح من تلقاء انفسهم اذ أخذوا يرقبون احد الرهبان يغتسل على حافة النهر ويفوص فيه . اما الخفير الذي كان على مسافة عشرين قدماً مني ، ولكن في مكان منقطع عني ، فلم يجرؤ على اطلاق النار ، لاتي حين وجدته يتيمناً لذلك صحت به متوعداً بالشنق ان فعل ، فأمسك . وقد اعترف اثناء استنطاقه وتعذيبه ، بانه ظن لدى هذا التهديد اني كنت على اتفاق مع الماريشال في ذلك . وكان خادمان صغيران يقتسلان ، فلما رأيتي متديلاً على الجبل نبهتني في صوت عال الى اني انجو بنفسى ، ولكن لم يصنع اليهما احد ، اذ خيل الى الجميع انهما يدعوانهم الى نجدة الراهب المقتل . اما النبلاء الاربعة فوقفوا في المكان المعين اسفل الحصن ، حيث تظاهروا بالتماس الماء لتخيلهم ، كما لو انهم يريدون ان يذهبوا الى الصيد . وقبل ان يرعب احد لزولي كنت قد امتطيت فرسي ؛ واني لواصل باريس لا محالة فجر يوم الثلاثاء ، اذ أعدت لي اثنان واربعون فرساً موزعة على المحطات بين «نانت» والعاصمة ، لولا ذلك الحادث النكد الذي اعترض طريقي ، فكان في يده

(١) الماريشال دي لا مايوري ، الذي وكل اليه حراسة الكاردينال .

(٢) كان في نية الكاردينال ، وهو مطران باريس ان يحضر علانية احدى الصلوات العامة .

مصير ما بقي من حياتي :

• • •

ذلك اني ماكدت اعتلي صهوة الجواد حتى أوضعت* (١) بنا الخيل* في طريق «موف» وهي اذا لم تخشي الذائكرة ، على خمسة اميال من «نانت» ، على النهر ؛ وكان الاتفاق على ان ينتظرنا فيها السيدان «دي ريساك» و «دي سيفنيه» مع قارب لاحتياز النهر . وقال لي «لارالد» ، حامل سلاح الدوق «دي ريساك» ، وكان بمشي امامي : إنه يجب ان تركض الخيل أولاً لئلا يتفسح الوقت لحراس الماريشال فيطلقوا باب الشارع الصغير في الضاحية التي يقيمون فيها ، اذ لا معدى لنا عن المرور فيه . كان لي احد كرام الجياد في العالم ، وقد كلّف السيد دي ريساك الف ريال . على اني لم اطلق له العنان ، لاننا كنا نسير على صعيد زلّتي شديد الوعورة . ومع ذلك فقد هتف بي احد النبلاء واسمه «بواجوران» ، أن أضع الندارة في يدي ، اذ رأى حارسين للماريشال ، مع انها كانا لا يشكران فينا ، فوضعتها ؛ وحين قربتها من رأس ادناهما مني ، لاصده عن الامساك بزمام فرسي ، كانت الشمس في الاعلى قد اتمكنت على حديدتها ، فأجفل الفرس ، وكان حاداً جموحاً ، ثم وث وثبة وهبط على ارجع . ووقعت انا على كتفي الايسر الذي كاد يتحطم على طرف احد الابواب . فرفعى احد النبلاء ، ويدعى «بوشسن» ، واعادني الى مكاني من ظهر الفرس . ومع اني كنت أعاني آلاماً هائلة ، وكنت اشد شعري من حين الى آخر لادفع عني الاغماء ، فقد تابعت عدو الاميال الخمسة ، قبل ان يتمكن رئيس المدفعية الذي كان يطاردني من اللحاق بي . وجدت في المكان المعين السيد دي ريساك والشوفاليه دي سيفنيه مع القارب . وماكدت ادخله حتى اغشي علي ، فاطدوني الى الصواب بكأس من الماء نضحوا به وجهي . وبمدا اجتزنا النهر أردت ان أعتلي صهوة الجواد فأعوزتني القوة ؛ واضطر السيد دي ريساك ان يودعني كومة عظيمة من العلف ، صعبة نبيل يدعى «مونتيه» ، كان يحتوي بين فراعيه . لقد اخذ معه «جولي» (٢) ، الذي استطاع وحده ان يتبعني مع «مونتيه» ، اذ كان النبلاء الثلاثة الآخرون قد خارت قوى افراسهم ، وسار رأساً الى مدينة «بوريو» ليجتمع فيها النبلاء فيأتوا لاتقشالي من كؤمتي هذه (٣) .

(١) أسرع (٢) سكرتير الكاردينال

(٣) عربنا القطعة السابقة من كتاب : Chevaillier 312-316

القصة في القرن السابع عشر

انجبت القصة انجاءاً عاطفياً في مسهل هذا القرن ، تحت تأثير الطبقة الاجتماعية الراقية ، ونعني بها تلك الحلقات المثقفة التي كانت تجتمع في صالات بعض شہرات النساء والتي أصبحت صالة المركةزي دي رامبوييه (١) خير ممثل لها فيما بعد . هذه القصص ايمس لها قيمة فنية كبيرة ، ولذلك فقد اهتمها تاريخ الأدب او كاد . وهي جيمعاً تتخذ الحب الذي تترضه الصعاب موضوعاً لها ، والفتاة البكر ، لا المرأة المتزوجة بطة لها . والكاتب مقيد في قصصه بتقاليد الهيئة الاجتماعية الراقية وآدابها ، فليس له ان 'يسف' في قول ولا ان يخرج عن حدود الحب الشريف . اما العثرة التي تترض هناك المحبين فهي ظلم الآباء وبلادة طبعهم وجشعهم . وكثيراً ما يفضي ذلك بالنفث وفتاته الى الموت ، او الى اعتزال الدنيا في الدير ، ولما استطاع ان يقهره ويحفظها بالزواج . ومن ميزات هذه القصص ان الحوادث فيها قليلة ، فهي تفسح المجال لتحليل المواقف ؛ ولكنها لا تقتناول غير البسيط منها : ابدأ لا تغنى بالغيرة او وخز الضمير او التردد او غيره من المواقف المعقدة ؛ ولكن بهزة اللقاء وألم الفراق ووحشة البعاد . والطريقة التقليدية التي تفرض دائماً ان يكون الآباء قساة غلاظ الاكباد والمشايق اوفياء والمشيقات مدنفات ، متحد من حرية القصصي وتحول دون تنويع الموضوع وارتداد آفاق جديدة . ثم ان قلة الحوادث في الرواية تبرر العمل الروائي ، وتعمل على الملل ، اذ لا تجد لدى اولئك الكتاب الحوار الحار ولا القدرة على التحليل العميق اللذين يمكن ان ينوبا عن الحوادث ويسيرا بالعمل في جاذبية وحرارة . على انه من الانصاف ان نعترف بالجميل لهؤلاء الكتاب على انهم وجهوا الانظار الى اهمية الدراسات النفسية والمافطية في القصة ، الى انهم مهدوا السبيل امام القصصي المعروف 'درفيه' :

ولد 'د' أنوريه درفيه (٢) ، عام ١٥٦٧ في مرسيليا ؛ واشترك في شبابه في احدي الثورات الفاشلة ؛ ثم اعتزل السياسة واخذ يكتب اشعاره الدينية والاخلاقية ؛ ثم عاد

Honoré d'Urfé (٢) La marquise de Rambouillet (١)

فتقلّب على مناصب كبيرة ، وخاض بعض المارك ومات فيها عام ١٦٢٥ . اشتهر درفيه على الخصوص بقصته : « أستريه (١) » ، التي صور فيها مثل الطبقة الراقية من رواد الاتصالات وتقاليدها . وهي من الأدب الريفي ، الذي يختار الحقل والريف مسرحاً للحوادث ؛ وقد اظهر فيها الكاتب قدرة مشكورة على تصوير الطبيعة ، وعلى تحليل العواطف الانسانية . تدور حوادث هذه القصة على وصف الصعاب التي اعترضت طريق بطليها « ميلادون (٢) » وحببته « أستريه » ، اللذين آثرا حياة الريف على حياة الحضر واستخفيا في زيّ راعي وراعية « ليعيشا عيشة أهناً . » ولكنها احتفظا بأداب الطبقة الراقية وميلها الى المناقشات الفكرية والمأطفية .

وقد أتى بالوال على هذه القصة ، وأعجبه منها « انها تضم شخصيات قد احسن الكاتب تصويرها كما احسن تنويعها (٣) . »

• • •

والآن نستعرض لك الادباء الذين خلقوا « درفيه » على زعامة القصة في هذا العصر ؛ ولكن لنذكر أنهم ليسوا بالصدور المقدّمين بين ادبائه ، وأنهم لا يقرءون اليوم إلا نادراً ، وانهم على كثرتهم وضخامة آثارهم ضخامة عجيبة - على خلاف المهود عند الاتباعين - لا يعيرهم تاريخ الادب اهمية تذكر ؛ فلنكتف اذن بلمحة سريعة نستعرض فيها حياة نخبة منهم ونلّم المامة مختصرة بأهم آثارهم :

شارل سوريل : ١٥٩٧ - ١٦٧٤ : - ولد في باريس ومات فيها . شغل وظيفة « مؤرخ فرنسا » . اشتهر ما كتب : التاريخ الهزلي الموثوق لفرانسيون ؛ والراعي المجنون (٤) .

لم يرم الكاتب من سرد اخبار « فرانسيون (٥) » ، وغرائبه إلا الى ان يقود خطانا الى الاماكن المكتظة بالناس انرى اكثر ما يمكن ان نراه : عالم منوع يعج بالناس بمختلف طبقاته : من فلاحيه ، الى طلابه ، الى لصوصه ، الى نساؤه وخصوصاً منهن السافلات ، الى خدمه ، الى متحدثليه ، الى مجنّانه ، الى معتوهيه . انه خير أيّ خبير

(١) Astrée (٢) Céladon (٣) رجعتا فيما سبق الى 229—227 L.F.U.

ومادتي Urfé و Astré في L.U. و 8 La Princesse de Clèves

(٤) La vraie histoire comique de Francion و Le berger extravagant

(٥) بطل الرواية

لحفايا المدينة والريف التي لا يستلذها ، ولكنه يفضلها على عشرة تلك الطبقة التي تشكل الاناقة والظرف في صالات الوجاء . وهو لا يكتم شعور الكره للقضاة ويهتمهم بكل تقصيص ويرميهم بكل آبدية . والغرض الاخلاقي ظاهر عنده ، فما يكاد يفرغ من حكاية الا بعد ان يستخلص منها عبرة او دعوة الى مكرمة .

هذه القصة ، على ثوبها الفضاخ وبعض نواقص أخرى فيها ، لا تزال تقرأ في لذة . واقل منها إمتاعاً قصة الراعي المجنون : تأثر المؤلف في موضوعه بقصة « دون كيشوت » المؤلف الاسباني المعروف « سرفانتيس » . فاذا كان دون كيشوت قد أدمن قراءة قصص الفروسية حتى تزيئاً بزيّ الفرسان وقلد أعمالهم ؛ فإن الراعي المذكور قد أغرم بالقصص الريفية وتولاه بتلك العيشة التي يعيشها الرعاة في سبيل الحب فجعل يقلد ما يسلك في الحياة سبيلهم . ولا شك ان « سوريل » يسخر هنا بالقصص الريفية جميعاً وبقصة « أسترين » على الخصوص . والفكرة في الاساس موقفة . ولكنها لا تصلح وحدها لتتملاً فصول رواية ضخمة كهذه ؛ اذ يكفي ان يطلع القارى مرة واحدة عليها حتى يحزر خطط المؤلف في كثير من المواقف ويفقد جاذبية المفاجأة .

ماران دي جومبرفيل ١٦٠٠ — ١٦٧٤ : — احد الاعضاء الذين انتخبوا للمجمع العلمي في السنة الاولى من تأسيسه . اشتهر بقصتي : « كاريسي » (١) ، « بولكساندر » (٢) . وهو في كليها يقود قارئه الى بلاد اجنبية نائية . ففي الاولى نشهد النيل ومناظر التاميس . وفي الثانية ننتقل من جزر كناريا الى مراكش الى السينغال الى المكسيك الى الايتل ؛ وهو يعرض علينا سكان تلك البلاد وعاداتهم . وقد أولع لا فوتين بقراءة هذه الرواية ؛ ويرى النقاد ان مؤلفها هو اول من كتب ادباً يدور حول البلاد النائية

La littérature exotique

الآنسة دي سكيديري : ١٦٠٧ — ١٧٠١ : — عاشت زهاء مئة عام . قالوا انها اعجوبة عصر لويس الكبير ؛ وذلك لما لاقت رواياتها سيروس (٣) ، وكليبي (٤) من نجاح عظيم . وللمؤلفه كذلك رواية تدعى : ابراهيم (٥) . غير ان اقبال الجمهور على قراءة هذه الآثار ما عثم ان فتر ثم زال . ذلك لانه لم يحفل بها إلا لانها تقدم « صوراً » لبعض المظاء ولكنها صور غامضة شواء لا تروي غليل القارى ولا تحقق ظنه . ففي ثاني هذه الروايات

Clélie (٤) Cyrus (٣) Poléxandre (٢) Caritie (١)
Ibrahim (٥)

مثلاً قصدت المؤلفة ان تقدم لنا شخصية الادبية الشهيرة مدام دي سيفنيه في صورة البطلة : كلارانت ؛ ولكنك اذا حققت النظر في هذه الصورة لم تجد صفة واحدة تمت الى الادبية الكبيرة بصلة . كلا ! ومن عجب أن احببت الجماهير ذات يوم هذه الكتب المملئة وهتفت لها : أي الصدفة ، أهو الحظ الأعمى ، أهو حكم الدهاء ؟ ولكن بالو لم يلبث ان هتك الستر عن هذه الروايات و كشف عما فيها من مناقص وتقاهات ، ولم يلبث الرأي العام ان استجاب له وأولى اعجوبة العصر ظهره !

جوتيه دي لا كالبروناد (١) : ١٦١٤ - ١٦٦٣ : - وقصته : « كليوباترا ، وكاساندر » تتنافسان طولاً وغثاء وإملاً .

انطوان فيروتيار (٢) : - ولد في باريس ١٦١٩ من اسرة خاملة : كان عالماً بمحرمات بعيد المهمة ، درس الحقوق وبعض اللغات الأفرنجية والشرقية ؛ وتقلب في وظائف الدولة وفي عام ١٦٦٢ اصبح عضواً في المجمع العلمي ، فأكتب على تأليف معجم لغوي ، لأنه وجد زملاءه يبطئون في تأليف معجمهم . بيد أن ذلك ساء أعضاء المجمع فتأمروا عليه ورفعوا أمره الى مجلس الملك ، واتهموه بالكيد لعمل المجمع ؛ فما كان منه الا ان سخر منهم بأهاجي جميلة سببت إقصاءه عن المجمع آخر الامر ، ١٦٨٥ . ولفيروتيار الى جالب « قاموسه العام » كتب كثيرة ، أهمها « القصة البورجوازية » (٣) .

كان فيروتيار صديقاً لبوالو وراسين ولا فونتين ، ومات في باريس ١٦٨٨ : لم يكن فيروتيار أول من اكتشف القصة الواقعية Roman réaliste ، فقد رأينا « شارل سوريل » يسبقه اليها في روايته اللتين تصور احدهما المجتمع على اختلاف طبقاته ، وتسخر اخراهما من حياة الرعاة الخيالية كما تبدو في القصص الريفية . غير أن فيروتيار أرسخ قديماً واذكى طريقة من سلفه . لقد اعلن في الصفحات الاولى من « القصة البورجوازية » انه لن يمرض علينا في روايته ابطالاً ولا بطلات ؛ فليس في اشخاصه من يحمل السلاح او يتحدث نفسه بثل العروش ؛ انما هم من اولئك الناس العاديين الذين يسرون الهويتا الى اهدافهم ، والذين فيهم الفطن والبليد ، والطيب والخبيث ، والجميل والدميم . انها تعرض عليك الطبقات الوسطى ، وهي ولا شك اقرب اليك من امراء واميرات البلاد الثائية في التاريخ القديم . ان نظرة فيروتيار هذه الى القصة لشبهة

Antoine Furetière (٢) Gauthier de Costes de La Calprenède (١)

«Le roman bourgeois» (٣)

جداً بمنظرة الكتاب الروائيين في القرن الثاني ، من امثال « سودين »^(١) ، و « ديدرو »^(٢) و « بومارشيه »^(٣) ، ويظهر ذلك جلياً من قول هذا الأخير : « ما علاقي ، انا المواطن الوادع في ظل الدولة الملكية في القرن الثامن عشر ، بثورات أئمتنا ورومة ؟ اي مصلحة حقيقية يمكن ان تعرض لي في موت طاغية في « اليلوبونيز » ؟ او في التضحية بأميرة كاعب في « الأوليد » ؟ ليس في كل ذلك ما يقتضيني النظر ولا ما يصلح لان يسوق اليّ المبر . . . » كذلك كان فيروتيار من قبله كاتباً واقعياً يسرّ ان يصور اشخاصاً طبيين ، لا يتجاوزون المألوف في ردائلهم ولا في فضائلهم ؛ وعلى الجملة فقد كان اوساط الناس هم الذين يلفتون نظره ويستهوونه على الخصوص . فالسيدة « فوليشون » من اشخاصه ليست بالملك ولا بالسيطان ، غير انها نثمّة مهذار ، فاذا افرغت ما في جيبها من النسيمة عرضت على ذكر شواغلها ومشاكلها مع الاولاد والخدم : قل لي يربك يا سيدي هل لديك خادم امينة ذات جد ، فاني قد عزمت على تسريح خادمتي ؟ والتم يا سيدي الا تبرمين بهذا الغلاء المستمر ، أما إن للبيت لفتاً كبير الاشدق !

وجملة القول أن السيدة « فوليشون » هذه مثال حي من الطبيعة ، وأن فيروتيار لا يخلو من ألمية ؛ ليس هو بالكاتب العظيم ، لأن حفة ذهبه ضائعة في كومة من تراب ، ولكن له عيناً بصيرة تسجل ما تراه . وقد اخذوا عليه ضعف الحبك وقلة التساوق ، فهو اشبه بالطبيعة المرسلّة لم تصقلها يد الفن ، واخذوا عليه انه يملّ قارئه احياناً ، فهو من هذه الجهة شبيه بالحياة اليومية الرتيبة . واخذوا عليه انه حين يتجنب المغالاة التي نجدها في مسرح كورني لا يعوضنا منها بمثل ما يفعل راسين . ثم انه اغرق في تبسيط شخصياته حتى شارفت احياناً حدود التفاهة ؛ اما واقعيته فخطوة حسنة في تاريخ القصة ، ولكنها واقعية بدائية على كل حال^(٤) .

مراجع دي لا فييت^(٥)

« رسالة المرأة ان تباعد عن كل ما يجلب النظر . ، هذا ما قالته مدام لا فاييت ؛

(١) Sedaine « ٢ » Diderot « ٣ » Beaumarchais « ٤ » رجنا فيما سبق

الى 286 - 288 L.F.U. ، والى المواد التالية من L.U. ، Sorel ، Francion

Furetière, Scudéry, Gamberville, Le berger extravagant

Le roman bourgeois ثم الى 8 : La Princesse de Clèves

« ٥ » Madame de La Fayette



مقام دي لوفائيت

وقد عملت حياتها كلها بهذا الرأي السيد الذي أحفظها في القصر، وممكن لها في مودة «هنرييت دانبجولوتير»، امرأة اخي الملك، وكسبها صداقة الكاتبة المعروفة الماركيزة دي سيفنييه، وأهفى إليها قلب الدوق لا روشفوكو، صاحب «الحكم»، وهو يهدف إلى الشيخوخة^(١). ولدت في باريس ١٦٣٤، من أحد صغار النبلاء، وتزوجت ١٦٥٥ الكونت دي لا فاييت. كانت متوفزة الشعور صادقة العاطفة، من غير إعلان: فقد أحزنها وفاة صديقتها الأميرة «هنرييت دانبجولوتير»؛ والتقت لا روشفوكو فوق في قلبها، وهام هو الآخر بهذه المرأة اللطيفة التي كانت تصفحه بشرين عاماً؛ وتوثقت بينهما وبين مدام دي سيفنييه عرى صداقة دامت أربعين عاماً، ولم يظهر في سمائها من غمام. وكانت إلى ذلك واقعية، تشر أرزاقها وتعنى بولديها أشد العناية. وكانت دارها مجمع الاصدقاء، ونحس منهم السيدة دي سيفنييه ولا روشفوكو: هناك كان الاثنان يجتمعان إلى مدام دي لا فاييت التي كان ضيف صحتها يمنهما من الخروج؛ وهناك كانوا يتحدثون امتنع الاحاديث، وفيهذه «بون الحكيم»، وقد تبدي السيدتان نفورهما مما تلحجان فيها من سخرية لاذعة؛ و«يلطفون النظر جميعاً في طبائع بعضهم بعضاً، وربما تحرج الموقف أحياناً واكفهر الجو» أو خيئت الكتابة. ثم يموت لا روشفوكو فتقطع هذه الجلسات، ويغمر الهم أديبتنا إلى غير سلو؛ وقد صرحت بعدئذ «بأن كل امرئ يفقد لصفه الآخر قبل أن يفادر هذا العالم». لقد كان لا روشفوكو هو هذا النصف؛ وماتت الادبية الكبيرة عام ١٦٩٣، بعد ثلاث عشرة عاماً من وفاة الصديق العزيز؛ من غير أن تخلّف آثاراً ضخمة، لأنها لم تضع مهنة الادب نصب عينها، ولأنها كانت تستمتع بلذة الكسل. غير أنها كتبت اقوى قصة في القرن السابع عشر، وهي تروي على المقاربة سر حياتها المؤلم: الأميرة دي كليف^(٢). تجري حوادث هذه القصة في عهد الملك هنري الثاني الذي حكم فرنسا ١٥٤٧ - ١٥٥٩^(٣). فحول هذا الملك المفري بالذات بتألق نجم الامراء والاميرات من ذوي الظرف والاناقة، وفي طليعتهم الدوق دي نومور، والآنسة دي شارتر. ما كادت هذه الفتاة تخطر لأول مرة في قصر اللوفر حتى تقدم الأمير دي كليف يطلب يدها، وحتى رأت الاسرة وجه المصلحة في هذا الطلب فأسرعت في تلبية. هنا تبدأ المأساة. ان

«١» L.T. 227—228 «٢» La princesse de Clèves «٣» L.T. 228

الأمير ليأم ويشكو مرء الشكوى من انه يحب ولا يجِد من يسادله الحب . اما امرأته فتحترمه ، ولكنها تميل على غير رأي منها الى الدوق دي نومور . انها لتفضي بالسرة الى أمها ، فتنصحه ان تترك قلبها غلقاً لهذا الحب الآثم ، وان تقيم على الوفاء لزوجها . ثم تموت الام ، ويتجدد الفلق ويشتد الصراع في نفس السيدة الفاضلة التي تتأثر ابلغ التأثير حين تعلم ان عاشقها الدوق قد زهد في عرشٍ مُعرض عليه ، في سبيلها . على انها اذا لم تملك ألا تحب ، فمليها على الاقل أن تعمل بما يقضي به الواجب . فهي تريد ان تنأى عن حبيلها ، اذا انها تبينت يوماً بعد يوم مكانه من قلبها . فلما عجب زوجها من ميلها الطارىء الى العزلة التفتت اليه وجملت تبوح له بيمض سرها ، وتقول باكية انها تجد لزماً عليها لتكون جديرة به ان تنادر القصر . اكبر الزوج وفاءها واطمأن بدياً اليه ؛ ولكن نار الغيرة ما لبثت ان اشتعلت في قلبه ؛ لقد اصبح نهب الاوهام ؛ وخيل اليه ان زوجته تخونه وتستقبل عشيقها بعيداً عن الرقباء . وتولاه الألم واستبد به اليأس ، وبادرت الزوجة فتتم آخر لحظة من حياته لتكاشفه بالحقيقة ولتؤكد له برائتها مما تحوم حوله ظنونه ؛ ثم يغني الرجل اعفائه الاخيرة . اما الآن فقد اصبح امرها في يدها ، واصبحت قادرة على ان تنعم بزواج من تحب ؛ بيد أن الدوق دي نيمور هو الذي سبب موت زوجها ، فلن تزوجه . وقد شرحت له ذلك في حديث رائع ؛ ثم اعتزلت الناس في ديرٍ وما لبثت ان ماتت (١) . .

رضي جمهور القراء عن هذه القصة لقصرها قبل كل شيء : فهي دون مئتي صفحة . لقد لفظت اذواقهم القصص المطولة التي سدد اليها بالواضحة قاضية في « فن الشعر » . تلك الاوصاف الطويلة ، تلك الحداثى والفصوص والمآدب الفخمة التي يضيع فيها القارىء الى غير نهاية ، لقد انتهى عهدها . ان مدرسة ١٦٦٠ زينت للناس الطبيعة والبساطة . وانك لتبحث من غير طائل في هذه الرواية عن غرائب الاخبار او عجائب الصدف : من اختطاف او هرب او مطاردة او غرق . العفاء على معارك السلاح ترعد لهولها . الفرائص ، وعلى البطولات تودع اعجوبة وتستقبل اعجوبة ؛ في هذه القصة بطولة ، ولكنها صامته ، قريبة منا : بطولة هذه المرأة التي تزوجت رجلاً واحبت غيره ؛ ثم أفضت بسرها لزوجها في شجاعة رائعة وبرت به حياً وميتاً . هذه البطولة هي في رأي بعض النقاد

(١) 6—7 La princesse de Clèves : 228—229 L.T.

انتقال لمثل المأساة الكورنيلية (١) الى القصة . بل ان موضوع القصة نفسه لكثير الشبه بموضوع « بوليكت » احدى مآسي ابي التراجيديا الفرنسية (٢) . ثم ان دقة التحليل في هذه القصة ، وصلاية احواد اشخاصها واعتزازهم ، ومفهوم الحب الشريف الذي يستكين للفضيلة ويوسع لها ، كل اولئك مما تمودنا ان نراه عند كورني (٣) .

غير ان لهذه الشخصيات الى جانب صلابه ابطال كورني وشجاعتهم مسحة انسانية لطيفة لا عهد لنا بها في مسرح الشاعر الكبير : فاذا كان في اعمالهم بطولة في اقوالهم رقة حزينة ساحرة . ان العاطفة التي تشيع في هذا الأثر ، والبساطة وطبيعة الممثل والحسرة الاليمة المتصلة : كل اولئك يذكرنا براسين (٤) .

وجملة القول ان هذه القصة ، على ما فيها من طاقة شعورية بميدة المدى ، عريضة بالواقعية : فهي في موضوعها قطعة من حياة الكتابة ؛ وهي في مكانها وزمانها قريبة العهد بمكان القصر الملكي الذي اتصلت به مدام دي لا فاييت وزمانه ؛ وهي اخيراً بمشاعرها واحاسيسها ، وان كانت لا تتحدث عن اشخاص من اوساط الناس ، صادقة التصوير شديدة التأثير . هذا الى ان اسلوب المؤلفة في نقائه ودقته واتزانه يضارع فنا في المرض وعمقها في الغوص على حقائق النفس ، ويجعل من هذا الأثر القصير ارووع قصة في القرن العظيم .



(١) نسبة الى كورني (٢) كورني (٣) L.T. 229, La princesse de Clèves 8-9

مرام دي سيفنيه

ترك لنا القرن السابع عشر ثروة ضخمة من الرسائل الحافلة بالطرائف والاخبار ، والفنية بالشاعر والافكار ، أحكم الكتاب حيكها وجوّدوا عبارتها ، بل وصلوا بها حدود السكّال أحياناً . ولو تحرّينا أسباب رواج هذا الفن وازدهاره لوجدنا في مقدمتها :

١ — قلة الصحف في تلك الأيام ، فمن الطبيعي ان تنوب الرسائل عنها في إرواء الناس بالطرائف والاخبار .

٢ — اهتمام الولايات بحوادث العاصمة ؛ فباريس ما علمت هي قلب الحياة السياسية والفكرية ، وقصر فرساي متهوى الماديات والازياء والطرف ؛ فاليها تتوجّه الابصار والعقول .

٣ — كان الرجال والنساء ، النبلاء واوساط الناس ، ممن اخذوا بحفظ من الثقافة والحياة الاجتماعية الراقية ، يحرصون على ان يهذبوا رسائلهم حرصهم على تهذيب افكارهم حينما تضمهم الصالات ؛ لانهم على ثقة من ان مخاطبيهم لن يقرأوها وخدم ، وانها ستنتقل من يد الى اخرى .

٤ — انتظام مصلحة البريد في القرن السابع عشر بما يحفظ الرسائل ويؤمن سرعتها .

. . .

كانت رسائل المركيزة دي سيفنيه اشهر ما كتب في هذا الباب في عصرها ؛ وبقيت محافظة الى يومنا هذا على جمالها واهميتها (١) .

اسمها الاول ماري دي شانتال . ولدت في باريس ١٦٢٦ ، وفقدت ابوها وهي صغيرة . تزوجت في الثامنة عشرة من المركيز دي سيفنيه ، احد وجهاء مقاطعة «بروتانيا» ، وكان شرساً متلافاً ، ما لبث ان هلك عنها في مبارزة ، وهي في الرابعة والعشرين ، وخلف لها بنتاً في الخامسة وصبيّاً في الثالثة . فانسجبت الى «الروشي» (٢) وهي ارض في «بروتانيا» ورثتها عن زوجها . ثم ها هي ذي تمود بعد عشر سنوات الى

(١) Les Rochers (٢) Mme de Sévigné: Lettres choisies: P: 5



مرام دي سيفينه

باريس ١٦٦٣ . لقد عاهدت نفسها ان تعيش لوالديها وألا تتزوج مرة اخرى . ولكنها لم تزهّد في لذات الدنيا ، بل اقبلت عليها في روية واتزان . انظر اليها تخالط اشرف باريس وتتردد بين حين وآخر على القصر . انهم ليدعونها مثلاً لتشهد تمثيل تلميذات : «سان سير» لرواية «استير» . لقد اخذوا بيدها الى المقاعد الثانية ، خلف الدوقات . ها هوذا الماريشال ب يشرفها بالجلوس الى جانبها . ومع انها ليست من انصار راسين ، فقد اعجبتها هذه المأساة ايما اعجاب . فاذا انتهى العرض رأينا الماريشال يخطو نحو الملك ليقول له انه كان الى جانب امرأة جديرة حقاً برؤية «استير» . تقول مادام دي سيفنيه : «واقبل الملك نحوي وقال لي : انا واثق ياسيدي من انك مسرورة ، فأجبتة غير مبهوتة : مولاي ، انا مسحورة ؛ ان ما اشعر به لما يقصر دونه كلمي . فقال لي الملك : اما ان راسين لأريب . فقلت : هو من الذكاء بمكان ، بيد ان حفظ هؤلاء الفتيات من الذكاء كبير ايضاً ، فمن يدخلن في الموضوع كأنهن لا يعرفن شيئاً سواء . فقال : اما هذا فحق مستور . ثم تولت جلالته وتركتني مثار الغيرة (١) ، ثم يدخل ابنها الجيش ، وتزوج ابنتها من الكونت دي جريفيان (٢) ١٦٦٩ ، فيذهب بها الى الجنوب من فرنسا ، الى «البروفانس» . لقد كانت فراق هذه الفتاة المدللة شديد الوقع على الام ، بل كان اظهر حادث في حياتها ، واليه يرجع الفضل في اثار عاطفتها ودفعها الى الكتابة . اصبحت حياتها آلامً بعدا طويلاً يتخلله فترات لقاء قصيرة يحرج فيها شعور الوالدة : ذلك بان الفتاة كانت جافة فاترة متحفظة بقدر ما كانت الام ودوداً طليقة مستألسة . لم يكن بين الاثنتين ذلك التفاهم الذي نراه بين الام وابنتها . فكان بمادان : الاول مادي يفصل بين جسديهما ، والآخر معنوي يفصل بين روحيهما . اقرأ رسائل مدام دي سيفنيه فستدهش مما تعجدها من فيض العاطفة والحنان ، ومن نبضات الحرق والالم . أزعج الكلم عن مواضعه قليلاً بتبين اي قلب لحييف يخفق بالحب ويألم بالشكوى وراءه . على ان حنان الوالدة يأبى عليها ان تقابل المعقوق بمثله ، فهي تصانع ابنتها وتغنى بشئونها وتعدّها بالمعونة المادية والمعنوية ما وسعها الحال . وفي عام ١٦٩٦ كانت مدام دي سيفنيه تقوم بزيارة لابنتها فادركتها المنية هناك عن سبعين عاماً (١) .

صفات مدام دي سيفنيه : — تركت لنا الادبية الكبيرة مدام دي لافايت صورة طريفة عن صديقتها مدام دي سيفنيه ، تبرز فيها صفاتها المعنوية والمادية ، وتبدو لنا فيها حية مرحة تشتمل ذكاء وحركة : «الت توافة الى المجد والرفعة ، مفتونة بمباهج الحياة ومسررتها . فكانك خلقت لها وخلقت لك . وجودك يزيد السرور ، والسرور يزيد جمالك . فالمرح طبعك الأصيل ، والكتابة أعدى لك منها لأي انسان آخر . فاعلمي اذن ، ان كنت لا تعلمين ، ان ذهنك يجمل شخصك ، وان ليس على الارض من تضاهي جمالك حينما تشطين في حديث تجري فيه الأمور على أذلالها (١) . لكل ما تفوهين به من الوضاعة والانسجام ما تهلك له الوجوه حولك ؛ وانت عقل اللامع ليضعني على وجهك وعينيك من النضرة ما يهر العيون ، وان ظن ان العقل لا يؤثر الا في الآذان ، فاذا أصغوا اليك لم يلحظوا من نقص ابدأ وسلموا لك باكمل ما في العالم من جمال (٢) . »

وتمضي الايام ، وتتغير الاحوال ؛ فبينما كانت مدام دي سيفنيه ذات يوم تلهو برسائل قديمة عثرت بهذه الصورة الطريفة ، فكتبت الى ابنتها : «ان هذه الصورة تفوق الاصل ، بيد ان الذين احبوني لست عشرة سنة خلت قد يجدونها شبيهة بي . » هذه الكتابة الحديثة العهد التي جعلت مع الايام تظل صورتها المشرقة وتنفعها بمعاني التأمل تربنا كيف اخذ ذلك الشبه يزول يوماً بعد يوم . كانت في الثانية والثلاثين حين أثبتت لها هذه الصورة . وعلى انها حافظت طول حياتها على مرحها وظرفها الغريزيين ، فقد لحظ النقاد من رسائلها ان التأمل العميق اخذ يمازج شعور القبطة في نفسها (٣) .

واحببت مدام دي سيفنيه الطبيعة ، فسجلت بذلك رسائلها لحناً طريفاً في الأدب الاتباعي . بيد انها لم تنزع بذلك خباً ولا شعوراً ، كما يفعل ادباء الابتداعيين ، بل جعلت منه لذة حسية ، لذة للسمع والبصر (٤) .

وكلفت بالقراءة ، حتى تملك مشاعرها القصص فتتابع حوادثها بشوق ولهف . ان كورني ليتملها ، وان مولير ليفتها . اما راسين فلم تكن تميل اليه كل الميل ،

(١) في مجارها الطبيعية

(٢) L. F. U. 296 ' Mme de Sévigné, Lettres choisies 99

(٣) L. T. 232-233 (٤) L. F. U. 295

وربما قرأته في فتور : لعل ذلك لأنها لم تكن في اعماق نفسها من ذوات المزاج العاطفي ، بل كانت اقرب الى العقليين . وفي الحق ان رواد الصالات على العموم هم ، كما ذكرنا في بحثنا عن الحياة الاجتماعية ، أفهم للأفكار منهم لجمال الشعر (١) .

غير ان ابرز خصائصها هو الخيال ، فالذي يجعل من رسائلها شيئاً فريداً هو الخيال القادر الذي يرى الاشياء في يسر ، ثم موهبة التحدث عنها وتمثيلها من غير كلفة . ان سلطان الخيال ليبدو لنا في كثير من الرسائل ، بل انه ليبدو لنا حتى في حنانها الاموي . فقد علمت ان الأم كانت على طرف نقيض في المزاج مع ابنتها ، وان التفاهم لم يكن بينهما ؛ بيد أن للبعد اكبر تأثير ، فهو الذي يوسع المجال للخيالة ان تحيط الفتاة بهالة من الرعاية والمطرب ، وهو الذي يدفع الوالدة ان تتمثل لابنتها صورة اكمل من الحقيقة ، وان تتعشق ذلك المعبود النائي الذي لم تكن لتأنس اليه عن قرب .

وجملة القول ان المترجمة فنانة راسخة القدم . ان مشاعرها لتتجمل بتأثير الخيال وتستفيض ما قد يكون فيها من نقص . ومن هنا ينشأ ما نراه عندها من موهبة نادرة في استنباط كل ما في الفكرة المجردة من روعة وتأثير . اقرأ تلك الصفحة الرائعة التي كتبتها عن موت « لوفوا » : فستجد ان عاطفة المؤلفة ما هي بالحنان المندفق ولا بالهسرة اللاهبة ؛ انما هي ذلك الاقباض الذي نحس به حين نقبض من خلال الحقيقة الحية تلك الحقائق الخالدة التي يرعش لها الفكر وترعد لها الأوصال . ان هذه الميثة لتمثل لها الموت بمطلق بمعانيه (١) ؛

ودلفت الكاتبة الى الشيخوخة ، وأصبحت أذكر الموت وأشد فرقا منه ؛ فرف كتاب ارسلته الى ابنتها عام ١٦٧٢ : « تسأليني اذا كنت لا أزال متعلقة بالحياة . فاعترف بانني أجدها حزناً كاوية . غير اني اكثر كراهية للموت . اجدني كل تاعسة من أن علي ان اختم حياتي به ؛ فما ارتجى أكثر من ان اعود شيئاً الى الوراء . لقد وضعت في قارب الحياة من غير موافقي ؛ ويجب ان اخرج منه بغير رغبي ؛ ان هذا ليهنيني ويغمي ، وكيف الخروج ؛ اغوص في لجج هذه الافكار وأجد الموت من الرهبة بحيث أبغض الحياة لان مؤداهما اليه اكثر مما ابغضها لما يعترض طريقي فيها من اشواك (٢) . »

فلما مرضت آخر مرضها واحست بدنو الاجل ، وجدت في الدين ملاذاً وعزاء ؛

وقد شهد صهرها ساعاتها الاخيرة ، فكتب الى احد اصدقائه يقول : « لقد تمثلت الموت ، منذ الايام الاولى من مرضها ، في ثبات وتسليم عجيبين . هذه المرأة على بالغ ضعفها ورقها لكل ما أحبت ، لم تجد غير شجاعة ودين حينما ايقنت ألا محيص من التفكير في الموت (١) . »

رسائلها : — لم تكتب مدام دي سيفنيه قبل زواج ابنتها إلا قليلا . فلما تزوجت ورحلت الى ذلك البلد النائي تغير الحال . لقد أصبحت الكتابة ضرورة لازمة تدفع بها الأم عن نفسها السأم وتتقرب ما امكن من الغائبة العزيزة وتلتصق لها السلوة في غربتها ، بما تطرفها به من اخبار وافكار وهذر يمتع صبت فيه حيوتها ومرحها وأخرجته اشكالا وألوانا . هذه الرسائل هي اولاً قصة نفس ؛ تبرز فيها شخصية الكاتبة بساحتها وظرفها ، بعقلها الوزين وعاطفتها المتوقدة ، بافراحها وآلامها وتأملاتها . وهي ثانياً قصة مجتمع ، تسمع فيها أصداء الحوادث الكبيرة والصغيرة التي عرقتها فرنسا ما بين عامي ١٦٥٥ — ١٦٨٦ . ترى الكاتبة تجمع في رسالة واحدة طائفة من المواضيع حيناً : فمن نزعة خلوية ، الى طرائف الماشية ، الى حوادث القصر ، الى فكرة اوحى بها كتاب ، الى عاطفة اثارها قصة . وزاها حيناً آخر تشغل حديثها بموضوع واحد يحتل من نفسها مقاماً يصرفها عن صغيرات الامور التي كثيراً ما حرصت على ذكرها .

أعظم بهذا السيل الزاخر بالحوادث والمشاعر والملاحظات والافكار : ها هي ذي محاكمة « فوكيه (٢) » ، وزير المال الذي عرفنا ود الشعراء ورجال الفن اياه وخاصة ما بينه وبينهم ، ولكنه اثار نقمة الملك عليه بما أهدر من حقوق وبدد من اموال ؛ فالكاتبة تعرض عليك في رسائلها تباعاً دقائق المحاكمة ، فلا تقادر سؤالاً طريفاً ولا جواباً مفحماً ولا تصويراً لغتهم او رجال القانون إلا عرضته عليك . وتشب النار فتلتهم جانباً من منزل فيكون ذلك موضوع رسالة طويلة لا تكتم فيها السيدة عواطفها . ان باريس اليوم في هرج ومرج بسبب امرأة مجرمة ضربت عنقها واحرقت جزاء ما جنت يداها : اقرأ تلك الرسالة التي وصفت بها الكاتبة ذلك تعلم ما تحس به امرأة ذكية طلعة وما يوحى اليها من فكر منظر الاعدام الرهيب . وحوادث الجبهة لا تغفل عنها الكاتبة ، فمن اجتياز الحدود رسالة ، وعن مقتل القائد الباسل « تورين (٣) » ، اخرى . . . ما من عمل مجيد

الإصورتته ونوّهت به . ثم ماذا ؟ رسالة تضمّنتها نظراتها في الحياة ، او تعرض فيها تأثرها
بجمال الطبيعة « انتصار شهر مايس » « افراح الحصاد » « كآبة الاشجار » « تفتّح
البراعم البهيج .

ثم اخبار القصر : من زواج اميرة ، الى حفلة تمثيلية ، الى انتحار طام شريف...
اما حديث ابنتها ، وما تبثه اياها من حب وشوق ولوعة فهو الموضوع الذي لا تنسا :
وكيف تنسا وكل شيء يذكرها بفناتها ويمجري من عبراتها ؟ حفلات الرقص ، الحدائق
النضرة ، اثاث البيت . . . كل شيء يهيج الذكري ويحزن الفؤاد !

والجدير بالذكر ، الأمر الذي يسمو بهذه الرسائل كل السمو : أن كل حادث ،
بهيجا كان ام عابسا ، خطيرا كان ام تافها هو معرض ملاحظات دقيقة وآراء جديدة
للكاتبة ، بيد أنها لا تميل الى الاسباب ، وتحصر على ألا تسالم او تتفصح . فكم مرة
وقفت رواية ذلك الحادث . الأسيف ، موت « تورين » لتفكر في دور القدرة الإلهية
العلية وفي سامي حكمتها . ولكنها تسوق آراءها في ذكاء وذوق واقتضاب (١) .

اسلوبها : — لم تقصد مدام دي سيفنيه من رسائلها هذه الى النشر ، وبحسبك
ان تعلم انها لم تجتمع في كتاب لتذاع على الملا الا بعد ثلاثين عاماً من وفاتها (٢) . ونصرح
المركيزة الادبية انها لم تكن تتكلف القول ، بل « كانت ترسل الريشة وحبلها على غارها ،
ومع ذلك فما أقل ما نجد بين رسائلها ما ينبعث عفواً من غير تهذيب وطول تنقيب .
ذلك بانها كانت على علم من ان الناس كانوا يتبادلون فيما بينهم هذه الرسائل ، ويعتبرون عن
اعجابهم بها . فكانت تحرص ، حتى فيما تبث به الى ابنتها ، على ألا تطلق القول على
عواهنه ، وعلى ان توسع المجال لما تأنس في نفسها من مواهب : من حرارة وحلاوة طبع
وسهولة وتوقد مخيلة . ان تعبيرها ليبدو في بعض الاحيان كثير البهرج واللمعان ، فذلك
من آثار الأناقة المتكلفة التي مال سوقها الى كساد ، بعد ان راج ردحاً من الزمن عند
ادباء الصالات . على ان هذا طبيعي عند امرأة مثل مدام دي سيفنيه ، اتصلت كثيراً بطبقة
المتألقين وتوثقت بينها وبين بعضهم صداقات ؛ ولكن الذي يدعو الى العجب والاعجاب
هو ضالة هذه المواضع في كتابتها ، وأنها على العموم تنجح الى اسلوب مباشر متزن
بسيط ، او بتعبير أوجز : الى اسلوب طبيعي . كانت تكتب الى ابنتها أن « لا يتعدي أبداً

(١) استعنا في البحث عن « رسائلها » بالمصادر التالية : 7-8 Lettres choisies:

L.T. 231 (٢) L.F.U. 298, L.T. 231

عن الطبيعة يكن اسلوبك كاملاً . ، والحق ان مدام دي سيفنيه مثال رائع ضعب المثال في
السلاسة والجري مع الطبع . ترى أكان « لا برويار » يفكر فيها حينما فضل النساء في
ادب الرسائل على الرجال ؟ (١)

مختارات من الرسائل

[١] الى الكونت دي ب ، ر ،

٢٥ تشرين الثاني ١٦٥٥

كشاجر الامير « داركور » مع « لافوياد » اول امس عند « جنجان » . قال الأمير
ان الفارس دي جرامون قد ملا جيبه مالا ، وأشهد على ذلك « لافوياد » الذي قال ان ذلك
لم يكن ابداً ، وان الرجل لم يكن معه قرش واحد . « — اقول لك بلى — اقول كلا —
اسكت ، لافوياد — لست بفاعل (٢) » ، على اثر ذلك رماه الأمير رأسه بصحن ، فرماه
الآخر بسكين . بيد أنها لم يصيبا بعضها بعضاً ؛ ثم حجز الناس بينهما ، وحمـلوهما على
المعاينة . عند المساء التقيا في « اللوفر » ، وتحدثتا ، كأن شيئاً بينهما لم يكن . اذا كنت
رأيت ذات يوم ما يصنع الطلبة في عطلتهم ، فستجد بين ذلك وهذه المشاجرة شهاً قوياً (٣)

• • •

[٢] محاکمة وزير المال فوكيه

الى السيد دي بومبون

١٧ تشرين الثاني ١٦٦٤

هذا النهار ، الاثنين ١٧ تشرين الثاني ، ظهر السيد فوكيه للمرة الثانية على كرسي
الاتهام . جلس من غير كلفة ، كذلك المرأة . ابتداء القاضي بان طلب منه ان يرفع يده ،
فاجاب بانه ذكر قبلا الاسباب التي تمنعه من ان يحلف اليمين ، وانه لا حاجة للتكرار .
على اثر ذلك اخذ القاضي يلقي خطاباً مطولاً ليبين شرعية المحكمة ، وان الملك هو الذي

(١) L.T. 233—234 (٢) لاحظ شدة الحوار بين الرجلين (٣) 9 Lettres choisies

أفلامها ، وإن البرلمان قد اقرّ لجانبها . فأجاب السيد فوسيه بأن الأمور تجري غالباً بالقوة وأنهم لو فكروا لما وجدوا الحق في جانبهم : فقاطعه القاضي : « عجباً ! فأنت تدعي إذن بأن الملك ينبغي استعمال سلطته ؟ » فأجاب السيد فوسيه : « إنما تقول أنت ذلك ، لا أنا ، يا سيدي ! ليس ذلك ما أرمى إليه ، وإني لأعجب من أنك تريدني ، وأنا على هذه الحال ، أن يكون لي شأن مع الملك . غير أنك يا سيدي تعرف جيداً أن الإنسان عرضة للخطأ . فلما وقّعتم قراركم ظننتموه عدلاً ؛ وفي اليوم الثاني مزقتموه : فأنتم ترون أن الإنسان قد يغير رأيه . قال القاضي : — ولكنك تحبب المحكمة وتقدم إليها بيشاتك ، وهأتذا على كرسي الانهزام . فأجاب : — حقاً يا سيدي أنني على هذا الكرسي ، لكنني عليه بغير ارادتي ، ثم قادوني إليه ؛ هنالك سلطة لا معدى لنا من الاعتناء لها ، وإنها لحنّة ابتلاني الله بها فتلقيتها منه بالرضى . لعله كان بالإمكان أن يعفوني منها ، بعد الخدمات التي أدتها ، والمهمات التي كان لي شرف الاضطلاع بها . » ثم تابع القاضي استجوابه عن جناية ضريبة الملح (١) ، فأحسن السيد فوسيه جوابه إيماناً واحساناً . ستستمر الاسئلة ، وسأخبرك بها في امانة على الدوام . غير أنني أريد أن أتأكد من وصول رسائلي إليك .

السيدة اختك التي دخلت دير الاخوات في الضاحية وقّعت تعهداً . إنها ترى الجماعة هذه الساعة وتبدو جداً مسرورة . والسيدة والدتك يظهر انهما غير غاضبة عليها .

لا شك أنك تعلم بهزيمتنا في « جييجري » ، وبما أن الذين ادلوا بنصائحهم يريدون أن يعزوا الخطأ إلى الذين أمضوها : فهم (٢) يرغبون أن تجري الدعوى في « جداني » ليحسنوا الدفاع عن انفسهم . هنالك نفر يريدون أن يطوّحوا برأسه ، بيد أن الجمهور كله مقتنع بأن ليس في امكانه ان يفعل غير ذلك .

يتحدثون هنا كثيراً عن السيد وآلتي ، الذي حرم (٣) الموظفين الصغار حول الملك لأنهم ارادوا أن يكرهوا الاكليروس على التوقيع . هذا ما سيفسد بينه وبين ابيك كما سيوثق صلته بالاب وأثناء (٤) .

الوداع ؛ احسن بشهوة الكلام تمتلكني ، ولا أريد أن استسلم اليها : يجب أن يكون

(١) اتهم الوزير بتسليم منحة قدرها (١٢٠) ألف ليرة من هذه الضريبة .

(٢) تريد الوزير كولبير واعوانه ، وهم اعداء الوزير السجين . (٣) حرماناً دينياً ،

(٤) المعنى هنا يراد به التهم ،

اسلوب الرسائل قصيراً (١) .

. . .

[٣] الى السيد دي يومبون

اللاتين ١ كانون الاول ١٦٦٤

منذ يومين مال الناس الى الاعتقاد بان القضاء يريدون ان يطيلوا امر السيد فوكيه ؛ اما اليوم فقد تبدل الحال ، وصار الى التقبض : فهم يستمعون الاستجواب كشيء . هذا الصباح ، اخذ القاضي ورقته ، وتلا قائمة بمشترتهم رئيسية لم ينتظر عليها اجابة . فقال السيد فوكيه : « انا لا ارجب ابداً يا سيدي ان يطول امد هذه الامور ؛ غير انني اتوسل اليك ان تتيح لي فرصة للاجابة . انت تسألني ، ويبدو انك لا تريد جواباً مني . يجب ان اتكلم . هناك عدة امور يجب ان اوضحها ، ومن العدل ان اجيب على كل مايتعلق بقضيتي . » فلم يجد سيثو النية بذاً من ان يسمحوا له بالقول ؛ من المؤكد انهم كانوا لا يهتمون ان يحسن الدفاع عن نفسه . لقد احسن الاجابة كل الاحسان عن التهم العشر جميعاً . سيتابعون العمل ، وستسير الامور في سرعة ، حتى انني اعتقد ان الاستجواب لا بدء منه هذا الاسبوع .

تناولت العشاء في قصر (نيفير) ، وقد اشدبنا الحديث ، سيدة القصر وانا ، عن هذا الفصل . انا لنخشى الا يتهماً فهمنا لغيرك ، اذ ان اسرة الوزير التاسع يسودها الامل والهدوء . اشيع ان السيد نيموند (٢) كشف وهو يعاني مسكرات الموت عن أن اسوأ ما يسوءه هو انه لم ينحز الى رأي القاضيين في فسح الاتهام ؛ وقال انه لو كان في آخر المحاكمة لأصلح الخطأ ، وانه كان يرجو الله سبحانه ان يغفر له ذنبه الذي اقترفه ... يجب ان اطرفك بقصة صغيرة صحيحة مسلية . لقد اخذ الملك لمهد قريب يعرض الشعر ، فالسيدان س. د. يعلمانه ما يجب ان يفعل . منذ ايام أنشأ مقطعة صغيرة لم يستسها هو نفسه . وذات صباح قال للمارشال « جرامونت » : « سيدي المارشال ، ارجوك ان تقرأ هذه القطعة الصغيرة ، وانظر هل رأيت يوماً اردأ منها . انهم يملكون باقي لمهد قريب اميل الى الشعر ، فهم يأتوني بمختلف انواعه . » قرأها المارشال وقال للملك :

(١) 11—12 Lettres choisies (٢) احد القضاء

« مولاي ، جلالتك تحكم على الاشياء كلها حكماً مسدداً رائماً : حقاً ان هذه أغث وأسخف ابيات قرأتها في حياتي . » جعل الملك يضحك وقال : « أليس حقاً ان الذي نظمها مدح مغرور ؟ — مولاي لا سبيل الى منحه اسماً آخر . — حسن ! انا سعيد من انك حدثني باخلاص ؛ انا الذي نظمتها . — آه يا مولاي ، يا للخدعة ! لشعدها جلالتك عليّ » فقد قرأتها بنير روية . — كلا ، يا سيدي الماريشال : الشعور الاول هو الطبيعي دائماً . ، لشد ما ضحك الملك لهذه الحماقة ؛ وقد وجد الناس انفسهم امام اقصى نكتة يمكن ان توجه الى شيخ من رجال القصر . اما انا التي احب دائماً ان افكر في الامور ، فكنت اود لو ان الملك فكر كذلك ، وتبين من هناك هو بعيد عن معرفة الحقيقة (١) .

* * *

[٤] زواج دي لوزون

الى السيد دي كولانج

في باريس ، هذه الجمعة ١٥ كانون الاول ١٦٧٠

اريد ان اخبرك بأعجب الاشياء وابعثها على الدهشة وأحفلها بالفراشة والاعجاز .. اندرها وأشيعها ، أشهرها وأخفاها حتى اليوم . . . واخيراً بحادث لم تعرف القرون الماضية له غير مثل واحد ، وان لم يكن الشبه بينها كاملاً ، بشيء لا يستطيعون ان يصدقوه في باريس « فكيف يصدقونه في ليون ، شيء رفع اصوات الناس كلهم بطلب الرحمة ، شيء غمر بالفرح السيدة دي روهان والسيدة دوتريف ؛ بشيء اخيراً سيكون يوم الاحد ، حيث يعتقد الذين سيشهدونه أن ستعشى ابصارهم . . . لا يستطيع ان احمل نفسي على ذكره ؛ لحزره . أتراك غير راغب في الحزر ؟ حسن ! يجب اذن ان اقوله لك : ان السيد دي لوزون سيتزوج يوم الأحد في اللوفر ، لحزر من ؟ . . . ستقول السيدة دي كولانج : هذا امر يصعب حزره ؛ لعلها السيدة لافاليار ؟ — كلا ، يا سيدتي — فلعلها الأنسة دي رتز ؟ — ابدأ ، انت خرقاء . — ستقولين . نحن حقاً بهائم ، فلعلها الأنسة كولبير ؟ — اقل منها . — فهي بالتأ كبد الأنسة كريكي . — لم تعرفي . يجب

Lettres choisies 16—18 (١)

ان اذكرها اخيراً لك : سيتزوج يوم الاحد ، في الافر ، وبأذن من الملك ، الآنسة . . .
الآنسة دي . . . احزري الاسم : سيتزوج الآنسة . . . الآنسة الكبيرة ، الآنسة حفيده
هنري الرابع ، وابنة عم الملك ، الآنسة التي خُلقَت للعرش . . . هذا موضوع حديث جيد .
اذا صحت ، اذا خرجت عن طورك ، اذا قلت : انت تكذبن ، ان هذا غير صحيح .
انت تسخرين منا ، هذه اضحكة جميلة ، ان تصور هذا من الثناة بمكان ؛ اذا قذفتنا
اخيراً بسببة : فسنبجد الحق في جانبك ؛ فقد فعلنا قبل مثلما فعلت .
الوداع . الرسائل التي يحملها هذا البريد ستريك اذا كنا نقول الحقيقة أم لا (١) .

. . .

[٥] الى السيرة دي هيريمان

في باريس ، هذا الاحد ٢٦ نيسان ١٦٧١
(في اليوم الثالث والعشرين من نيسان ١٦٧١ استقبل الأمير كوندري الملك في
قصر شاتيللي .)
. . . وصل الملك مساء الخميس ؛ الصيد ، المصايح ، ضوء القمر ، الزهرة ،
الاكلات الخفيفة على بساط المشب ، كل اولئك كان على ما يرام .
تناولوا الشاء . كان الشواء ينقص بمض الموائد ، اد زاد عدد الضيفان على غير
انتظار . فحز ذلك في نفس د فاتيل (٢) ، وجعل يردد د قدت شرقي ، هذا عار لن
اقوى على احتماله . وقال للوكيل د جورفيل : د ان رأسي يدور . مضى اثنا عشر
يوماً علي وانا رهين الارق . أعنتي على اعطاء الاوامر . فكان د جورفيل ، يهون عليه
الأمر بما يستطيع . بيد أن هذا الشواء الذي لم تخل منه مائدة الملك وخلت منه المائدتان
الخامستان والمشرون لم يكن يفارق خياله . اما الأمير فقد دخل غرفة طاهيه
وقال له : د اي فاتيل ، كل شيء يسير جيداً ، لا شيء يضارع ذلك الاتقان في عشاء
الملك . فاجاب الرجل : د ان كرم طبعك يا مولاي ليس جبر علي . أعلم ان الشواء
صغرت منه مائدتان . فقال الأمير : د لا شيء من ذلك ، لا تحزن ابداً . كل شيء
على ما يرام .

(١) 26 - 25 بتعرف (٢) رئيس الطهارة

جاء الليل . أخفقت النيران الاصطناعية ، وأحاط بها سحاب ، مع انها كانت
سنة عشر ألفاً من الفرنكات . وفي الساعة الرابعة صباحاً طاف فاتييل جميع الامكنة فوجد
القوم مستسلمين الى الرقاد ؛ ثم صادف مؤناً صغيراً ليس معه غير حملتي سمك . فسأله :
هذا كله ؟ اجاب : نعم سيدي . لم يكن الغلام على علم بان فاتييل ارسل يطلب مثل ذلك
من جميع المواني . انتظر كبير الطهارة بعض الوقت ، غير ان باقي المموتين لم يأتوا . ان
راسه ليحمي ، اذ خيل اليه ان ان يأتي سمك ابدأ . فلما وجد « جورفيل » قال له : لن
اعيش يا سيدي قط بعد هذه الفضيحة . شر في وسمعتي معرّضاً للضياح .
جعل جورفيل يسخر منه . ان فاتييل ايصعد الى غرفته ويضع خنجره تلقاء الباب ،
م يمر به ناحية القلب ؛ بيد أنه لم يلفظ انفاسه الا عند الضربة الثالثة . وذلك انه صوب
الى نفسه قبلها ضربتين لم تكونا قاضيتين . ومع ذلك فقد جيء بالسمك من كل صوب ؛
وبحث القوم عن فاتييل ليوزّعه ، واقبلوا على غرفته وضربوا الباب وكسروه ، فوجدوا
الرجل مضرباً بدمائه (١) .

• • •

[٦] الى السيرة دي جبرياله

في « الروشي » ١٣ تشرين الثاني ١٦٧٥

اما انك لتعجبين من اني اقتنيت كلباً صغيراً ؛ فاليك تفصيل هذا الحادث : كنت
لا أفتأ انادي كلبه صيد لسيدة تسكن في طرف البستان . فقالت مدام دي تارانت :
واعجباً ! فأنت تعلمين كيف تستدعي الكلاب ؟ اريد ان ابث اليك باجمل كلب في
العالم . شكرتها ، وأعلمتها على ما كانت عزيزتي قد صحّت عليه من تجنب امثال هذه
الروابط . ثم يمرّ ذلك من غير ان يفكر احد فيه . . . بعد يومين رأيت خادماً يدخل
حاملاً بيتاً صغيراً تزينه الشرائط الملونة . ثم خرج من هذا البيت الجميل كليب معطر ذو
جمال فريد . له اذنان حريرتان وثقفس لطيف كلاك الأثير وشقرة كشقرة الانسان .
ابدأ لم أدهش كما دهشت حينئذ . كنت اريد ان اردّه ، فأبوا ان يحملوه ؛ فعنيت به
خادم عندي ، اذ خيل اليها انها لا بدّ مشرفة على الموت ألماً عليه . ماري هي التي أحبته

اذن ، فنام في دارها ، في غرفة بوليو . انه لا يأكل غير الخبز . لم اشأ ان أتملق به ، بيد أنه بدأ يحبني ، فانا اخشى ان أغلب أخيراً على أمري . تلك هي الحكاية ، وارجوك الا تخبري بها كلتي « مارييز » في باريس ، لأنني اخاف اللوم : واخيراً ، هناك خاصة غريبة في هذا الكلب : انه يدعى وفاء (١) .

. . .

[٧] الربيع في (الروشييه)

الى السيرة دي جبرنيان

من « الروشييه » يوم الاربعاء ١٩ نيسان ١٦٩٠

أعود اليك مرة اخرى يا عزيزتي لا بين لك وجوب الاعتماد عليّ اذا كنت حريصة على ان تعلمي بالتفصيل ماهو الربيع . انا نفسي لم اكن اعرف منه غير الظاهر ، بيد أنني هذه السنة سموت في التحري عنه الى بداياته الصغيرة الاولى . ماذا عساك تفكرين ان يكون لون الاشجار منذ ثمانية ايام ؟ أجبي . ستقولين : « أخضر . » كلا ابدًا ، بل أحمر . انها براعم صغيرة على وشك ان تفتح ، بلون احمر قان ؛ ثم تنمو وريقات خضراء ؛ واذ كان ذلك متفاوت الزمان ، نشأ عنه خليط فاتن الجمال من أخضر واحمر . ألقينا على ذلك نظرات ملؤها العطف ، وتراهننا على مبالغ ضخمة ، ولكن من غير ان نفكر في الدفع ؛ ففريق منا زعم ان طرف هذا الممشى سيكون أخضر في ساعتين ، وفريق اعترض ، فكان الرهان . الحق ان لاشجار « الشارم » طبيعة تختلف عن طبيعة الزان . وجملة القول اني اعرف الآن عن هذا كل ما يمكن ان يُعرف (٢) .

. . .

[٨] الى السيرة دي جبرنيان

من باريس ، الاربعاء ١٣ كانون الثاني ١٦٧٢

لك الله ، يا عزيزتي ، ماذا تقولين ؟ اي مزاح تظهرين حينما تتحدثين بالسوء عن

نفسك وعن ذكائك ، ولضعفين من سلوكك ، وتجددني جد كريمة اتفكيري فيك ؟ لقد أمضيت هذا وآذاني ، وان كنت موقنة انك لا تمنين ما تقولين . ومع انه قد لا يجب علي ان ارد على اشيء لم تقوليها الا هازلة ، فاتي لا استطيع ان امتنع عن زجرك قبل ان اطلعك على مألدي من انباء . انت ظريفة كذلك عندما تذكرين خوفك من الادكيا . وا اسفاه ! لو عرفت يا عزيزتي انهم صغار من قرب ، وانهم جسد مضطربين حائرين احياناً ، اذن لوضعهم في الحال في مكانهم المناسب . أتذكرين كم كنت احياناً تبرمين بهم ؟ حذار ان يجسم البعد لك الاشياء : هذا امر معتاد .

تتناول عشاءنا كل ليلة مع السيدة سكارون (١) . ان لها لذكاء بارعاً مستقيماً : وانها للذة كبيرة ان يصغي اليها الانسان وهي تبدي رأيها في الاضطرابات الهائلة التي تجري في مكان ما (٢) وهي على معرفة وثيقة به . . .

لكن اصغي الى سماحة المليك ، والى لذة القيام في خدمة سيد محبوب مثله . لقد وجه في طلب الماريشال د دي بيلفون (٣) ، الى ديوانه وقال له : « سيدي الماريشال ، اريد ان اعلم السبب الذي يدعوك لتركه . أهو الزهد في الدنيا والرغبة في العزلة ؟ أي الديون نقل كاهلك ؟ ان كانت الاخيرة فانا اريد ان اصدر امراً وان اندخل في تفصيل امورك . » تأثر الماريشال كثيراً بهذا الطيب وقال : مولاي ، انها ديوني ؛ انا مشرف على الخراب ؛ لا استطيع ان ارى بعض الاصدقاء الذين مدوا الي يد المونة يتألمون وانا عاجز عن ارضائهم . فقال الملك : « حسن ! يجب ان تؤكد لهم اننا سنرد اليهم ديونهم . أمتحك مئة الف فرنك عن دارك في فرساي . . . و . . . » والحق ان من قساوة القلب ألا يطيع المرء سيدها يعني يشئون احدا عوانه بمثل هذه الارحمة : لذلك لم يقاوم الماريشال ؛ وها هو ذا قد عاد الى مكانه مغموراً بانعام المليك . هذه الدقائق كلها موثوقة . . .

الف راسين تمثيلية اسمها « بيازيد » وحق فيها كل التوفيق . حقاً انها لا تقل عن الاخريات . يقول السيد د دي تالار (٤) ، انها تفوق تمثيلات كوري

(١) هي ارملة الشاعر سكارون ، وقد تزوجها لويس الرابع عشر بعدئذ سرّاً (٢) تريد قصر

فرساي (٣) De Bellefonds (٤) M. de Tallard : ماريشال فرنسا

واحد وزراها

بنسبة ما يتفوق كورني على د بويته (١) ، : هذا ما ندعوه بمحسن الثناء . . .
 لقد كنت في د ليفري (٢) ، . كم فكرت يا عزيزتي فيك تفكير الحنان !
 وا اسفاه ! كان الوقت رائعا على شدة ما كان الطقس بارداً ؛ بيد ان الشمس
 كانت لتاعة ؛ وكانت الاشجار جميعها مزدانة بانلالى وقطع البللور : هذا الاختلاف
 لا يخلو من مسرة . لقد خرجت في نزاهات كثيرة (٣) .



(١) Boyer وهو احد كتاب المآسي الذين سخر منهم « بوالو »
 (٢) Livry (٣) 51—52 Lettres choisies

بوسويه

ولد «جاك بينين بوسويه» (١)، في مدينة «ديجون» (٢) عام ١٦٢٧ من أسرة عرفت بمجدها وتقواها ، وكان بعض افرادها يتولون القضاء . وبعد دراسة محكمة في ديجون ثم في باريس ، ذهب الى (متز) ليشغل منصباً دينياً وليبدأ سلسلة مواعظه . فلما بلغ الثانية والثلاثين استدعي الى باريس ١٦٥٩ ، حيث تابع الارشاد عشر سنين ، كان خلالها يزور القصر ليلقي مواعظه او ليؤبئن بعض افراد الاسرة المالكة . وفي عام ١٦٧٠ عين مطراناً ، ولكن لويس الرابع عشر ما لبث ان اختاره مربيًا لوليّ عهده . وعرف الرجل خطر المهمة فنذر نفسه لها واكب في جدّ عجيب على تهذيب هذا الطفل الذي سيثول اليه الحكم ذات يوم وعلى تثقيفه ؛ والتف من اجله كتباً كثيرة منها : مقالة في معرفة الله والذات ، خطاب في التاريخ العام ، السياسة على نهج الكتاب المقدس . ومن اسف ان كسل التلميذ وضعف ملكاته أحبطا هذا الجهد العظيم ؛ ولكن بوسويه كان قد وثق في هذه المدة الطويلة علمه ووسّع آفاقه . وفي عام ١٦٨١ فرغ من عمله التربوي فعين مطراناً لبلدة (مو) (٣) . في آخر هذا العام شهدت فرنسا مؤتمراً عقده رجال الدين ، وكان بوسويه ، بما اوتي من بلاغة وسعة معرفة هو الرئيس الحقيقي لهذا المؤتمر . لقد اصبح الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية شاغله الاول منذ ذلك الحين (٤) .

ان عمل بوسويه لمن الالهية والفخامة بمكان: فنه جانب جدليّ نافع فيه عن الكاثوليكية امام البروتستانية والفرق الأخرى الذين خيل اليه انهم يفسرون العقائد على غير وجهها الصحيح . واهم ما الف في هذا الموضوع : « تاريخ الاختلافات في الكنائس البروتستانية » (٥) ، وفيه يؤكد ان الكاثوليكية وحدها هي التي تملك الحقيقة ، لأنها وحدها هي التي علمت الناس عقيدة ثابتة على مرّ الزمان . لقد كشف

(١) Jacques-Bénigne Bossuet (٢) Dijon (٣) Meaux

(٤) L. T.: 305

(٥) Histoire des variations des Eglises protestantes



بوسویہ

بوسويه في كتابه هذا عن علم واسع وذهن ناقد اصيل . ومنه جانب آخر قاوم فيه سلطة البابا ودعا الى المحافظة على حرية الكنيسة الفرنسية . كانت المعركة حامية وانتهت بظفر البابا . على ان اشد المارك القلبية هي التي خاضها بوسويه ضد « فينيلون » (١) ، مطران كامبريه (٢) ، الذي كان يدعو الى « الاستسلام » (٣) ، هذا المبدأ هو نوع من الصوفية التي تدعي ان في الامكان الارتقاء بالنفس الى درجة من الكمال تتحد فيها مع الله سبحانه وتعالى عما يدعون ، وتتخطى عن كل عمل سوى الايمان والمحبة ، فتتكرر العقائد المحددة ، وتهمل العبادات المتبعة ، وترمي جانباً بتلك الرغبة الخائفة للجوج في الفوز بالنجاة الابدية ، وتسلم امورها طائفة مختارة الى الارادة الرحمانية ، والى كل ما توحى به هذه الارادة او يخيل اليها انها توحى به . ان مبدأ التسليم والاستسلام ليؤدّي في الدين الى اهمال العقيدة الماثورة الواضحة ، وفي الاخلاق الى فوضى الاسترسال مع الفرائز والاوهام . واكبر الدعاة الى هذا المبدأ هو القس الاسباني «مولينوس» (٤) ، الذي عاش في القرن السابع عشر ، فاقنتت بفكرته امرأة فرنسية سالحة هي السيدة «جيون» (٥) ، ونقلتها الى المطران الاديب فينيلون فتنبأها وجعل يدافع عنها . اما بوسويه ، فقد ردّ الفكرة واعتبرها بدعة ضارة . واستحجر الجدل بين الادبيين العظمين وشرعي الشر وانتهت المعركة بعد خمس سنوات بانتصار بوسويه وانحذال خصمه (٦) .

هذا العقل المحافظ نفسه يبدو لنا في مؤلفات بوسويه الفلسفية والسياسية : (الخطاب في التاريخ العام) يبين ان ارادة الله تظهر من خلال الحوادث الانسانية الكثيرة لتمهيد السبيل لولادة المسيحية وانتشارها . هذه الارادة السامية نفسها قد استغلقت الملوك على الارض ووكلت اليهم شئون الناس . فلك فرنسا هو حقاً بمثل الله في بلاده ، ويجب ان يكون مطلق اليد يفعل ما يشاء ! وليس عليه ان يقدم حساباً على ما صنع الى احد غير الله ، وهو يأمره ان يعمل لصالح شعبه ، لا لتحقيق منامه الخاصة وإمضاء شهواته (٧) .

Molinos (٤) Quiétisme (٣) Cambrai (٢) Fénelon (١)

Mme Guyon (٥)

Bossuet: مادة Larousse du 20ème siècle * L. T. 306-307 (٦)

(٧) المصدر الاخير

هل ان عظمة بوسويه وخلوده يرجعان قبل كل شيء الى ذلك العدد الضخم من الخطب البليغة والمواعظ الشائقة التي أثرت عنه . غير انه لم يكن اشهر خطباء عصره ، بل كان يقدمه في ذلك ثلاثة آخرون ، هم : بوردالو ، وفليشييه ، وماسييون (١) ؛ مع انه يبرعهم (٢) عند التحقيق جميعاً في سمة الافق وجولان الفكر وسمو الماطفة واقتدار الخيال . وقد لحظ النقاد شيئاً من الكلفة والصنعة البيانية في خطبه الاولى ؛ كما لحظوا تدرج الواعظ الكبير يوماً فيوماً نحو البساطة والعزوف عن التأنق والتزيق ؛ حتى اذا بلغوا المرحلة الاخيرة من حياته ١٦٨١ - ١٧٠٤ وجدوا انفسهم امام محدث بارع ، يستحوذ الاعجاب ويملك القلوب ببساطته وصدق نبوته واتزانه . في هذه الخطب نرى شخصية واعظ ديني يدعو الى صراط الفضيلة المسيحية ويضع النصوص الدينية اساساً للاخلاق القويمة . واشهر هذه المواعظ التي تتجاوز المئين عدداً : خطاب الصوم الكبير ، القاء بين يدي لويس الرابع عشر ١٦٦٢ ، وخطاب في العناية الالهية ، وآخر في الطمع ، وآخر في الموت . ومن الجدير بالذكر تلك الشجاعة التي كان يتحلى بها الكاهن الاديب في خطبه ، فهو يباثي فكرته الى نهايتها امام الملك الشاب الذي لم يكن حينئذ يبرضي غير الاجال والاذعان ، وهو يكرر على مسامع آلام الشعب وبؤسه ، ويشجب من غير خوف ما لا يباثي الفضائل في سلوك الماهل القرني . في ذلك العهد الذي خفت فيه صوت البلاغة السياسية كان منبر الوعظ وحده هو المكان الذي يتهيأ لمن يقف عليه ان يقول كلمة الحق في صراحة وقوة . بيد ان عدداً قليلاً جداً من الوعاظ تجرءوا على استعمال حقهم هذا ، كما فعل بوسويه (٣) .

اما بوسويه في تأبينه فوجد سامي الانفاس حقاً ، وهو يملأ فيها ويعلو حتى يرمح بجناحيه فحول ادباء فرنسا ويستوي مع الصدور المقدمين من رجال الفكر في التاريخ . ان انقطاع الحياة من انسان كنا نراه لوقت قريب يروح ويقعدو ويحج ويلهو لمن الرهبة بمكان ، ولا سيما اولئك الاعزاء الذين تربطنا بهم شتى الروابط ونفقد بموتهم جانباً من شخصيتنا . لا واعظ كالوت يفتح عيون التافلين ويحملهم على التفكير العميق في الانسان ومصيره ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانه قتنا عذاب النار ! والعجيب حقاً ان بوسويه هو اول من فكر باتخاذ قضية الموت محوراً لتأبينه ، اما الذين تقدموه

(١) Massillon ، Fléchier ، Bourdaloue (٢) يتفق عليهم

(٣) المصدران السابقان

فلم يگوروا يعنون بغير حياة الفقيد. ان بوسويه د ليفتخ امامنا قبرا ، لنقف امامه خاشعين . كل منا سيصبح ذات يوم د ذلك السكائن المجهول الذي ليس له اسم في لغة من اللغات (١) ، غير ان العقيدة الدينية كلها هي تفسير لفكرة الموت ، والسلوك الديني كله هو لإعداد لساعة الموت . فالدين هو الميزان الصحيح الذي تقدر به افراحنا وآلامنا ورغباتنا وأعمالنا قدرها الحق . ان التفكير في الموت جدير ان يقنعنا بتفاهة الحياة التي جعلت اللهو واللعب امنيتها ، وبمظلمة الحياة التي تقدم لانفسنا فيها خيرا ونجعلها طريقا الى الخلود . ف وفاة انسان ما : هي عند بوسويه حجة بتدريج بها ليكشف لنا ضالة اقدارنا وليبين لنا ما يجب ان نصنع لنستعد لاستقبال يومنا الأخير . والثناء على فقيد هو فرصة عنده لتعليم الاحياء (٢) .

على ان لهذا النوع من الخطابة قواعده : يجب عرض الاعمال ، وتصوير الاشخاص وهنا يعرض لنا سؤال : هل كان بوسويه صادقا فيما يقول ؟ هل كان يحسن جمع الاخبار وتحقيقها ؟ من المؤكد انه كان يبذل كل ما يملك من جهد ليصل الى الحقيقة : فكان يسأل ، ويقرأ الرسائل والمدونات ، ويطلب الى الثقات من اقرباء الميت وأصدقائه ان يعدوه بالمعلومات والذكريات . زد على ذلك انه هو نفسه كان على اتصال وثيق ببعض الافراد الذين أشاد بذكورهم امواتا ، وخصوصا د السيدة (٣) ، والأمير كوندي . فادا قلت ان صدق المؤرخ وصراحته قد لا تكونان في محلها المناسب امام اسرة حزينة حول نعش عزيز ، أجبنا ان بوسويه لم يكن ليخفي شيئا ، ولكنه يقوله في لباقة وذوق (٤) . انتهى بوسويه اثني عشر خطابا تأبينيا ، ضاع منها اثنان وطبع الباقي في حياته بأمر الملك . كل خطاب يبدأ بآية من الكتاب المقدس يأخذ المؤلف بتفسيرها والتماس الشواهد عليها من حياة الفقيد . وعلى ذلك ، فليس تمجيد المرثي الا امرا ثانويا بالاضافة الى موضوع الآية : مثال ذلك : تأبينه للملكة انجلترا ١٦٦٩ ، فهو في الواقع خطاب في العناية الالهية ، وتأبينه د للسيدة ، ١٦٧٠ خطاب في الموت ، وتأبينه للملكة فرنسا ١٦٨٣ خطاب في التقوى ، وتأبينه للاميرة د أنثا دي كليف ، ١٦٨٥ خطاب في ضرورة الاعتقاد ، وتأبينه للأمير كوندي ١٦٨٧ خطاب في العبادة والورع (٥) .

(١) او كما يقول شيكسبير على لسان حمار القبور في هملت : ذلك المخلوق الذي كان يوما ما امرأة او رجلا (٢) L.T. 310, 311 (٣) امرأة اخي الملك ، واسمها : هنريت د انجلوتير (٤) L.T. 311—312

على ان خطابه في تأيين « السيدة » ، هنريت دالمجلوتير ، امرأة اخي الملك ، وتأيين
الامير كوندي فوقان خطبه الأخرى في دقة المنهج وحرارة التعبير . ان بوسويه ليتكلم
هنا من اعماق قلبه . ان حميتا الذكريات لتملكه وتشير بلابله . فهو فضلا عن اتصاله الوثيق
بالفقيدين ، كان يشعر بقرابة واشجة بين روحه وروحها . كان ظرف السيدة وروحها
يهيجان شعور الحنان عنده ؛ وكانت ايجاد الأمير وعبقريته الحربية توقظ مافي نفسه من
حزم وعمق تفكير (١) .

• • •

اظهر مافي طباع بوسويه التفاني في سبيل الواجب من غير وهن . كانت آثاره
الخطابية والكتابية بنت الحاجة ووحى الساعة ، من غير رغبة في مجدا ادبي او عرض
دنيوي . انه مثال فذ للرجل الذي يعيش من اجل مثله الأعلى . وكان بوسويه شجاع
القلب ، معتدل الخطوة ، هادئا بسيطا ، صريحا من غير قساوة ولا محاباة ؛ وكان يكره
الرواغ والكيد والكذب . نفس رقيقة الحاشية وشعور مرفه متوقظ ، ولكنها لا يظهر ان
الا في اعتدال . اما الخرافات والالوهام فكان دماغه المحكم اليقظان بأبائها . في كل اعماله
كان يكشف عن محاركة سليمة وارادة حازمة وذهن عملي وقاد (٢) .
وتوفي بوسويه ١٧٠٤ في ساحة جهاده السلمي « وسلاحه بيده » كما يقول
سان سيمون (٣) .

رسالة الى لويس الرابع عشر

يجدر بالقارئ ان يلاحظ القرن والاسلوب
الحكيم اللذين يعرض فيها بوسويه للملك اخطاه ويفتح
عينيه على الحقائق الأليمة ويرشده الى الطريق
القوم ، من غير ان يشعره بوخز النقد ويشير
حفيظته :

لا يخفى عليّ يا مولاي كم يشق عليك ان تواسي شعبك وانت تخوض حرباً عوانا

(١) L.T. 311 - 312 (٢) L.T. 310 (٣) L.T. 307

تشكبد في سبيلها نفقات باهظة جداً وترمي من ورائها الى دفع الاعسداء والمحافظة على الحلفاء . بيد أن الحرب التي مضطرت جلالتهكم الى بذل اموال عظيمة تضطرها في الوقت نفسه ألا تثقل كاهل الشعب الذي به وحده تستطيع المضي في هذه الحروب . وعلى هذا فتخفيف ويلات الأمة ضروري لتقوم بمخدمتهم ولتستمتع هي بالراحة معاً . جلالتهكم لانهج ذلك . وعلى هذا فانا إن احدهما بما اعتقد أنه من واجبه الصريح المحتوم أذكر أن عليها قبل كل شيء ان تتجهد في تعرف آلام الولايات بعمق ، وخصوصاً في تبين ما سبق ان عانوه من غير ان تستفيد جلالتهكم شيئاً ، وذلك من تلك الفوضى بين رجال الحرب (١) ، ومن ثقل الضرائب الى حد لا يصدق . ان جلالتهكم وان كانت محيطة ولاشك بما يقتصر من مظالم وما يسلب من حقوق ، فان الذي يثبت الرعية على الثقة بكم يا مولاي : هو أنها لا تستطيع ان تعتقد بان جلالتهكم عارفة بكل هذا ساكنة عنه (٢) ؛ وانها التأمل أن يضطركم ما ابدىتموه من حرص على آخرتكم (٣) الى التعمق في قضية جد ضرورية أيضاً .

لا يمكن ان تظل آلام عظيمة قادرة على ان تطوح بالملكة مهمة بغير علاج . وإلا فسينضب الممين فلا يرفد بعد ذلك أحدا . على ان هذا العلاج لا يتوصل اليه الا ببناء ثقافة وصبر طويل : ذلك بانه من الصعب علي انا ان اتصور طرائق عملية للاصلاح وليس من شأنى ان اتحدث في ذلك . غير ان الذي اعرفه وأنا كد منه هو ان جلالتهكم اذا بدت رغبتهما في الأمر باصرار ، واذا تخطت ما قد يعترض التفاصيل من عثرات فاستمرت بزم على رغبتهما الى اولي الامر بالتحري ، واذا أشعرتهم ، وهي بذلك جد خبيثة ، بانها تأبى ان تتخذ بوجه من الوجوه في هذا الشأن ، وانها اخيراً لا تكفي بنير الاشياء الوطيدة الفعالة ، اذا كان كل ذلك فان الذين تمهدون اليهم بتنفيذ الاوامر سينحون امام هذه المشيئة ، وسيغيثون تفكيرهم كله لارضائكم في اعدل ما يمكن ان تظهروا من ميول .

وجملة القول أن جلالتهكم يا مولاي يجب ان تقتنع بان الذين يخدمونها بها حرصوا على مواساة الشعب فانهم لن يبلغوا في ذلك شأوها . الملوك الصالحون هم آباء الشعب الحقيقيون؛

(١) لم يكن للجنود حين ذاك تكتات ، فكانوا يبيتون عند السكان وبحريون ويفسدون ما شاءوا

(٢) الكلمتان الاخيرتان : ساكنة عنه ، غير موجودتين في النص ؛ وإنما اضيفناهما للتوضيح

(٣) كان لويس الرابع عشر قد وعد بوسويه باقصاء خليلته السيدة دي مونتسبان عن القصر ، لان وجودها فيه يناهى الدين .

يحبونه بطبيعة الحال ؛ اجمادهم ومصالحهم الجوهرية في المحافظة عليه والاحسان اليه ؛ اما الآخرون فانهم لن يبلغوا في ذلك مبلغهم قط .

فجالاتكم هي التي يجب ان تتوخى بعزم اكيد هذه المواساة ، وان تولد مثل هذا الشعور لدى الذين تستعملهم على رعاياها . فان هي لم تفش مهمتها في البحث والاستطلاع رأت النفع حقيقة ماثلة . ان ما لها من صائب الحكم ووثيق المعرفة بامور الدولة يسر ان لها ان تتميز ما هو حقيقي وطيد الاركان بما هو عرضي واهن البنيان . هكذا ستسير آلام الامة في طريق الشفاء ؛ والاعداء الذين لا يقدون آلامهم إلا على ما يجره عجز الامة من فوضى سيرون انفسهم قد منوا بخيبة الآمال . واذا تحقق هذا فهل يكون ثمة أمير اسعد وعاهل اجد منكم يا مولاي (١) ؟

عن تأييده للمميرة (هانرييت دالنجلوتير)

دوقة اورليان ١٦٧٠

هي ابنة شارل الاول ملك إنجلترا وملكتها هانرييت دي فرانس ، ابنة هنري الرابع الفرنسي . ولدت ١٦٤٤ أيام الثورة الشعبية التي كان يقودها « كرومويل » في إنجلترا والتي أطاحت رأس ايها ؛ فلجأت بها امها الى فرنسا وهي في الثانية من عمرها . ولما بلغت السادسة عشرة ظهرت في القصر الملكي ، فكانت قبلة الانتظار بمجالها وظرفها ودكاها . لم يكن لويس الرابع عشر غافلاً عن محاسنها ، غير انه لأمر ما تزوج من غيرها ؛ ورضيت هي ان تزوج اخاه دوق اورليان ، وكان هذا في مشتبته الاهواء فاسقاً عريداً فأعلمها وأطرحها للمداهنين والمجبيين . غير ان هنرييت هذه احتفظت بحسن سمعتها ؛ وكانت توافقة للآداب ،

(١) Chevaillier 339 - 340

فألصقت الى رجال الفن والادب لشجعهم وتقربهم ،
وفي مقدمتهم مولير وراسين .
وفي ١٦٧٠ عهد اليها لويس الرابع عشر ان
تفاوض اخاها شارل الثاني الذي تسلم عرش إنجلترا
١٦٦٠ ، وان تعقد معه معاهدة تحالف ؛ فتكلت
جهودها بالنجاح ، وعادت الى سانت كلود (١)
تستجم ؛ وهناك فاجأها الموت المبكر ، على اثر
تناولها كأساً من ماء الهندباء المجمد احدث في امعائها
آلاماً غريبة شديدة . وقد شهد بوسويه ساعاتها
الأخيرة وأعجب بشجاعتها وصبرها ، وتأثر لصباها
الذواوي ، كما عبر عن ذلك في خطابه العظيم الذي
تقطع منها بعض الصفحات (٢) :

(وهم وغرور ، وكل شيء مناع الغرور)

سيدي (٣)

"قد رلي اذن كذلك ان اقوم بهذا الواجب الكارب نحو السيدة الرفيعة المقام
العظيمة الشأن ، الأميرة هنريت آن" دأنجلوتير ، دوقة اورليان . لقد كُتِب على تلك التي
كانت تعيرني كل سمها أثناء قيامي بالواجب نفسه نحو امها الملكة ، ان تكون عاجلاً موضوع
خطاب مشابه ؛ وكتب لصوتي التاعس ان يؤدّي هذه المهمة الحزينة . يا للعبث ! يا للعدم !
ايها القانون الجاهلون مصائرهم ؛ أكانت تظن ذلك قبل عشرة أشهر ؟ واثم يا سادتي
أكنتم تفكرون حينما كانت تذرف الدمع الغزير في هذا المكان أنها ستجمعكم فيه عما
قليل لتبكوها ؟ ايها الأميرة ، ايها المرأة الجديرة باعجاب مملكتين عظيمتين ، ألا
يكفي إنجلترا ان تبكي لفرقتك فتضطر الى البكاء لموتك ؟ وفرنسا التي تهلت لرؤيتك
تمودين في حالة وضاعة جديدة ألم يكن لديها غير هذا الضرب من الحفاوة والتعجيد تبديها

Oraisons funèbres et sermons 1, P. 55-56 (٢) Saint-Cloud (١)

Chevallier 334 (٣) مخاطب الأمير كونيدي ، ممثل الأسرة المالكة

لك لدن عودتك من هذه الرحلة الشهيرة التي عدت منها بالمجد العظيم وبالأمال الحسان ؟ .
 « وهم وغرور ؟ وكل شيء متاع الغرور . » تلك هي الكلمة الوحيدة التي بقيت لي ؛
 تلك هي الفكرة الوحيدة التي يسمح لي بها ، في حادث غريب جداً كهذا ، ألم ألي
 حق . . . أما إمتي لأربد ان ارثي في هذا المصاب وحده لحال الانسانية جميعاً ، وان
 أرى في هذه الوفاة وحدها موت الاجداد الانسانية كلها وعدمها . هذا النص الذي
 يطابق احوالنا وحوادث حياتنا جميعاً يصبح بسبب خاص قوي المناسبة لموضوعي الباكي ؛
 اذ أن عبث الحياة الدنيا وغرورها ابدأ لم يتوضّحاً للعيان ثم يلقى بهافي يمّ النسيان على هذا
 النحو . كلا ، بعد ذلك الذي رأته العين ، ما العافية إلا اسم ، ما الحياة الا حلم ،
 ما المجد الا ظاهر ، ما المباهج واللذات الا أهوة مخوفة ؛ كل شيء عبث فينا ما خلا
 الاعتراف البريء الذي نقدّمه عن عبثنا وأوهامنا بين يدي الله العليّ القدير ، والحكم
 النضيج الذي يهيب بنا ان نحقّر انفسنا .

ولكن أفضي بالحقيقة ؟ أليس الإنسان الذي خلقه الله على صورته غير ظل
 زائل ؟ . . . الا فلنعترف بخطئنا . لا شك ان مشهد الانسانية العابثة الزائلة يخذعنا ؛
 وذبول الأمل بموت هذه الأميرة الفاجيء يذهب بنا جد بيميد . لا ينبغي ان نسمح
 للانسان ان يحقّر نفسه اطلاقاً ، لأن ذلك مدّرجة له الى ان يسير من غير هدى وفق
 رغباته العمياء ، معتقداً مع الكفرة ان حياته ما هي الا ألموبة تسودها الصدفة وكسرها .
 من اجل ذلك اراد الحكميم أخيراً ، بعد ما بدأ كتابه الآلهي بالكلمات التي تلوتها ، وبعد ما
 ملأ صفحاته كلها باحتقار الاشياء البشرية ، ان يبين للانسان شيئاً اوثسق واكوى ،
 فانهى خطابه بقوله له : إخش الله ، واحفظ حدوده فهناك الرجل كله ؛ واعلم بان
 المولى سينظر في حكمه الى كل ما فعل من خير أو شر . ، وعلى هذا فكل شيء عبث
 في الانسان اذا نظرنا الى ما يهبسه للعالم ، ولكن ، على العكس ، كل شيء فيه
 ذو اهمية اذا اخذنا بعين الاعتبار ما يدين به الله ؛ كل شيء في الانسان باطل اذا نظرنا
 الى مجرى حياته الفانية ؛ ولكن كل شيء ثمين ، ذو اهمية اذا تأملنا الغاية التي بصير
 اليها والحساب الذي عليه ان يؤديه . لتتفكر اذن هذا اليوم ، لدى مشهد هذا المذبح
 وهذا القبر في كلامي الحكميم . الاول والآخر ، فأحدهما يبين انعدام الانسان ، والآخر يبين
 عظمتة . ليقمنّا هذا القبر بفنائنا ، على ان يعلمنا في الوقت نفسه هذا المذبح الذي تقدم
 فيه كل يوم أضحية ثمينة جلال اقدارنا . ستكون الاميرة التي نبكي شاهداً اميناً على

هذا او ذاك . لئلا ما سلها الموت الفاجئ ، واثرا ما منحها موت التقي والصالح .
هكذا تعلم ان زدرى ما تركته من غير جهد ، لنقص احترامنا على الذي توصلت اليه
بكثير من الحماسة ، بعد إذ تطهرت روحها من مشاعر الارض وامتلات بحب السماء التي
كانت تقرب منها ، وعندما رأت الضياء وهاجاً سنياً . تلك هي الحقائق التي علي ان
افاجها ، والتي رأيت انها جديرة ان تعرض على امير عظيم وعلى ارقى مجتمع
في العالم .

كانت تلك المرأة التي أتت الكتاب المقدس على حكتها في كتاب الملوك الثاني تقول:
« سنموت جميعاً ، وسنذهب الى القبر بلا انقطاع ، كالنساء التي تضع فلا تعود . »
حقاً اننا جميعاً نشبه المياه الجارية . فيها يفاخر الناس بامتيازهم فان لهم جميعاً اصلاً
واحداً ، وان هذا الاصل لوضيع . امواهم توالى وتذافع كما الموج ؛ انهم يمضون
على الدوام ويمضون ، حتى اذا أثاروا شيئاً من الضوضاء ، وطافوا بعض الامصار ،
وزاد بعضهم في ذلك قليلاً على بعض ، تردوا على بكثرة أبيهم في هوة لا يمتاز فيها امرء
ولا ملوك ولا ذوو الالقاب السنية الاخرى التي تميز الناس ؛ كمثل هذه الانهار الشيرة
التي تغيب في المحيط من غير اسم ومن غير مجد ، الى جانب نهيرات المجهولة سواء بسواء .
والحقيقة ايها السادة ، اذا كان شيء ان يسمو بالناس فوق ضعفهم الطبيعي ، اذا احتمل
الأصل الذي نحن فيه مساوية بمضى الامتياز القوي الدائم بين اولئك الذين جبلهم
الباري من تربة واحدة ، فمن ذا الذي يكون في العالم اكثر امتيازاً من الأميرة التي اكلم
عنها ؟ كل ما يستطيع ان يفعله الحسب والنسب ، ومناقب الذكاء المظيمة ، في سبيل
رفعة أميرة ما ، يجتمع ثم يبيد في أميرتنا . أنتى تبعت آثار أصلها المريق لا اكتشف
غير ملوك . . . ويمشو بصري لسنى أجل التيجان . . . على ان لهذه الأميرة المولودة على
العرش عقلاً وقلباً اسماً من اصلها . فالحن التي نزلت بأسرتها لم تستطع ان تتشودها (١)
في صباها الأول ؛ وقد رأينا عندها عظمة لا تدين للحظ بشيء . كنا نقول في اغتباط:
لقد انزعجت السماء بما يشبه المعجزة من أيدي اعداء الملك ايها لتهها لفرنسا : منحة
ثمينة ، هبة لا تقدر ، لو أن امتلاكها فقط يدوم . . . فاذا كان مقامها يسمو بها
فان هناك ما يسوغ لي القول انها ارفع مقاماً بكفائتها . أستطيع أن ألفتكم الى انها كانت من

(١) آده الحبل : أقتله

المعرفة بمجال الآداب العقلية بحيث كان يمثل الى الذي يجوز أعجابها انه توصل الى الكمال . واستطيع ان أضيف كذلك ان اعظم الحكماء والمجربين كانوا يعجبون بهذا الذكاء النافذ الوقاد الذي كان يحيط بدون جهد بأعظم الأمور وينفذ في يسر كبير الى أدق المصالح . ولكن ما بالي أفيض في حديث أستطيع ان أجترى* منه بكلمة ؟ فالملك ، وحكمه قاعدة لا تتخلف ابداً ، عرف فضل هذه الأميرة ، ووضعها باصكباره فوق اساديينا كلها (١) .

مع ذلك ، لا هذا الأكابر ، ولا كل هذه المزايا الجليلة ، استطاعت ان تنال شيئاً من تواضعها . فعلى سعة فطنتها ، أبداً لم تستطع بمعارفها ، وأبداً لم تغتر باستنارتها . الا فاشهدوا على ما اقول ، اتم الذين شرفهم هذه الأميرة الكبيرة بشقتها . أي ذكاء وجدتهوا اسمي ، بل اي ذكاء وجدتموه أودع ؟ كثيرون يحبثون ان يتورطوا في الرخاوة فيتورحلوا بالقساوة والتمتع على العقل ؛ اما السيدة فكانت تبتعد عن الزهو بعدها عن الخنوع ، وكانت موضع الحرمة لما انها تستطيع ان تسدي النصائح الحكيمة وان تقبلها ، على حد سواء . ان من يجد في ما يرضي هذه الأميرة من دراسة لقادر ان يميز غث النصائح من ثمينها . نوع جديد من الدراسة يكاد يكون مجهولاً عند الاشخاص في سنها ومنزلتها ، ولنصف اذا اردتم ، عند بنات جنسها : كانت تدرس عيوبها ؛ وكانت تحب ان تمحض النصيح فيها ؛ دليل اكيدها على قوة روح لم تطف الخطايا عليها ، ولم تنيب ان تلقاها وجاها ، ثقة خفية بما لديها من قوى تستطيع بها التغلب عليها . انها رغبة التقدم في دراسة الحكمة هذه هي التي كانت تقربها بقراءة التاريخ الذي يدعونه بحق مستشار الأمراء الحكيم . هنالك (٢) ليس لاعظم الملوك منزلة إلا بفضائلهم ، واذ تخلفهم يد الموت الى الأبد من مناصبهم يأتون ، بغير بلاط ولا حاشية ، ليتقبلوا حكم الشعوب والاجيال قاطبة . هنالك انما تقطن الى ان بهرج الملوك سطحي ، وان الاصباغ الكاذبة لن تدوم معها وضعت بمهارة . هنالك كانت اميرتنا العجيبة تدرس واجبات اولئك الذين تؤلف حياتهم التاريخ : لقد صرفها ذلك ، بصورة لاشعورية ، عن تذوق الروايات (٣) وابطالها السافيين ؛ وكانت ،

(١) اشارة الى الثقة التي وضعا فيها لويس الرابع عشر والمهمة التي كلفها بها . (٢) في التاريخ (٣) كان ادب الرواية ضيقاً في القرن السابع عشر ، والخطيب يرض هنا بأورفيه ، ولا كلبروناد ، وكومبريل ، وبالنسة سكيديري ، وهم يومئذ اشهر كتاب الرواية .

لحربها على تكوين نفسها على الحقيقة ، تنكر هذه الاوهام المباشرة الخطرة ، هكذا كانت تخفي تحت وجه ضحوك ، تحت ملامح الصبا التي كان يحيل لناظرها انها لا تبشر بغير اللهو واللعب ، فهما رشيداً وزيناً ادهش اولئك الذين كانوا يعاملونها .

من اجل ذلك أمكن اثباتها من غير خوف على اعظم الاسرار . فما كان بعدها عن لثائك الملاحظات وعن خلطة النفوس الضيفة التي لا ذمة لها ولا عهد ، والسقي لا تعرف ان تمسك لسانها بالبشوح (١) ؛ يقول الحكيم (٢) : « انها تشبه مدينة لا أسوار لها ، مفتوحة من كل الأطراف ، فهي نهب لأوّل قادم . الا ما كانت ارفع السيدة عن هذا الضعف ؛ لا المفاجأة ، ولا المصلحة ، ولا جاذب الملئق الناعم او الحديث الرقيق ، التي طالما فتحت مغاليق القلوب وأطلقت اسرارها ، بقادرة على دفنها الى افشاء سرها ؛ وكانت الطمأنينة التي يجدونها لدى هذه الاميرة العاقلة الجديرة بنظائهم الأمور تحملهم على ان يستودعوها اخطر الاسرار .

لا تحسبن اني اريد ان اتهور فأخوض في اسرار الدولة وأتحدث عن رحلة المجتراء... كلا ، فلن أتحدث عن هذه الرحلة المجيدة إلا لأقول ان السيدة كانت فيها مثار الإعجاب أكثر من اى وقت آخر . لم يكونوا يتحدثون الا متحمسين عن طيب هذه الأميرة التي ما لبثت ان استهوت جميع العقول ، على عمق الشقة بين البلاطين وبمدها . كانوا عاجزين عن اطراء مهارتها الفاتكة في معالجة ادق الأمور ، في مداواة تلك الشكوك الخفية التي كانت تتركهم حائرين مترددين ، في إنهاء كل المنازعات بحيث توفق بين أكثر المصالح تضارباً . ولكن من ذا يستطيع ان يفكر ، من غير ان يسكب اللع ، في مظاهر الاحترام والمطف التي خبأها بها اخوها الملك ؟ هذا الملك العظيم الذي كان أكثر تأثراً بالفضل والكفاية منه بالدم والقرابة كان لا يفي إعجاباً بما للسيدة من بارع الصفات . يا للجرح العمياء (٣) ؛ ان ما كان في هذه الرحلة مبعث إعجاب حق سار فلذا الامير سبب آلام لا تحمد . ايها الأميرة ، ليتها الرابطة الجديرة بأعظم ملكتين في العالم ، بلاذاً سلباك بهذه السرعة ؛ هذان الملكان العظيمان يمرقان انفسهما ؛ فلذاك أثر ما بذلت السيدة من جهود وعلى ذلك فان دوافعها النبيلة ستوفق بين غفليها ؛ وستكون الفضيلة مصلحاً دائماً بينها . ولكن اجتباع كلمتها وان لم يضع من قوته ،

(١) الذي يوح بالاسرار ؛ (٢) سليمان الحكيم (٣) الضال ، الذي لا دواء له .

فَسَبَّحِي إِلَى الْآبِدِ . إِنَّهُ اضَاعَ اعْذَبَ مَا لَهُ مِنْ مَلَاةٍ ، وَأَنْ أَمِيرَةَ أُمِيرَةٍ فِي قُلُوبِ الْعَالَمِ .
أَجْمَعُ تَرَدَّدَتْ فِي لَحْدِهَا عَلَى حَيْنٍ تَرْفَعُهَا ثِقَةُ مُلْكَيْنِ عَظِيمَيْنِ إِلَى ذُرْوَةِ الْعِظَمَةِ وَالْمَجْدِ .

العظمة والمجد ! ألا نزال قادرين على سماع هذين الاسمين والموت في نصره وزهوه ؟ كلا يا سادتي ، لا يستطيع ان يتحمل هذه الكلمات الكبيرة التي يجهد الغرور الانساني ان يشغل بها نفسه ليتلثى عن النظر الى فنائه . لقد آن لي ان أري ان كل ما يناله الدم ، مها نصف الى ظاهره ليبدو عظيماً ، هو في جوهره عاجز عن السم . هلا أضفيت بهذه المناسبة ، لا الى استدلال فيلسوف يبحث في مدرسته ، او رجل دين يتأمل في صومعته ، فانا اريد ان أخزي الناس بأقوال اولئك الذين يكرمهم الناس ويجلونهم ، بأقوال اولئك الذين خبروا الناس وعرفوهم ، فلا اعرض لاقناعهم إلا استدلال اهل الخبرة من ذوي العروش . يقول الملك النبي^(١) : « الهي ، لقد جعلت ايامي تجري وفق حساب ، وايس كيانني بشيء امامك . » والأمر كذلك ايها المسيحيون : فكل ما يقاس ينتهي ؟ وكل ما ولد لينتهي لا يخرج تماماً من الدم الذي سيفوس فيه عما قليل . واذا كان وجودنا ليس بشيء وكان قوامنا المادة الزائلة ، فماذا عسى ان يكون كل ما نبنيه عليها ؟ ما البناء بأقوى من الأساس ، ولا العرش المتصل بالكانن بأصح وجوداً من الكائن نفسه . ماذا عسى ان يصنع الحظ في سبيل رفعتنا حين تحطتنا الطبيعة الى اسفل درك ؟ تحرروا ، تخيلوا الفروق الأجلب للنظر بين الرجال فانكم لن تجدوا فرقاً . اظهر واغوى من ذاك الذي رفع الغالب فوق المغلوب الذي يراه جانياً على قدميه . ومع ذلك فان هذا المنتصر ، على اختياله بالقابه ، سيقع هو نفسه بدوره بين يدي الموت . عندئذ سينادي هؤلاء المغلوبون التمساء غلبهم ليكونوا في مصيبتهم ، وسيخرج صوت من أعماق قبورهم فيذكركم اجماعاً جميعاً : « هاتم اولاء جرحى مثلنا ؟ لقد اصبحتم مثلنا ، »

ولكن أنكون المواهب العقلية ، والأهداف العظيمة ، والأفكار الحية قادرة على ان تنوب عن الحظ فترفعنا على سائر الناس ؟ ألا فلتحذروا من هذا الظن . « لان كل افكارنا التي لا نريد بها وجه الله هي ملك للموت . » « ليموت » يقول الملك النبي ، « وفي هذا النهار ستموت افكارهم جميعاً : يعني افكار الغزاة ، افكار

(١) النبي داود عليه السلام

الساسة ، الذين تدور في خيالهم ، وهم في غرفاتهم ، خطط لشمل العالم اجمع . ستشد ازرحهم من كل النواحي الحيطه البالغة والنظر الى عواقب الامور جميعاً ما خلا الموت الذي سيذهب في لحظة واحدة بجميع افكارهم . من اجل ذلك نرى الحكيم الملك سليمان ابن الملك داود (لانه يسرني كثيراً ان ابسط امامكم نتائج النظرية نفسها في عرش واحد) اقول من اجل ذلك نرى الحكيم سليمان اذ يحصي الاوهام التي تمخزن صبيان الرجال يدخل فيها الحكمة نفسها . انه يقول «لقد وضعت الحكمة نصب عيني ، ثم وجدت انها عبث وغرور كذلك ، وذلك لان هناك حكمة زائفة تقتصر على الاشياء الزائلة فتفوز معها في العدم . وعلى هذا فاتي لم اصنع شيئاً من اجل السيدة (١) عندما عرضت لكم كثيراً من الصفات الجميلة التي كانت تثير اعجاب الناس وتؤهلها لاسمى المقاصد التي تستطيع اميرة ان تسمو اليها . فالى ان ابدأ فأحدنكم بما كان يصل هذه الاميرة العظيمة بالله ، فانها لن تبدو في هذا الخطاب الا كاعظم مثال واقدر مثال على اقناع ذوي الاطلاع بانهم لا يملكون من وسيلة الامتياز ، وأنه لن تقني عنهم انسابهم ولا ايجادهم ولا عقولهم ؛ لان الموت الذي يسوي بين الجميع يتسلط عليهم من كل ناحية بقوة وبأس ، ويطيح اكثر الروس حرمة بيد سريعة قاهرة .

الطيفوا النظر ايها السادة الى تلك القوى التي تطالمننا من عل . ف عندما ترتعد فرائصنا بين ايديهم يبطش الله بهم تذكرة لنا وعظة . لعلهم أصيبوا ؛ انه لا يبقى على شيء منهم ، ليجعلهم عبرة لباقي الناس . ايها المسيحيون ، لا تهامسوا من ان السيدة قد اختيرت لتعليمنا مثل هذا الدرس . لا شيء قاسياً ههنا عليها ، لان الله ، كما سترون أنقذها بنفس الضربة التي كانت لنا درساً . علينا ان نكون مقتنعين بفنائنا : على انه اذا اقتضى الامر مفاجآت لقلوبنا المفتونه بحب الدنيا ، فان هذه المفاجأة لمن العظم وال هول بكان . ياتلك الليلة النكداء ؛ ياتلك الليلة الليلاء ؛ حيث دووي بغتة كقصص الرعد هذا الخبر الرابع : السيدة تموت ؛ ماتت السيدة (٢) ؛ من منا لم يصعق لهول

(١) كلمة السيد كانت تطلق على اخي الملك من غير ذكر اسمه ، وكلمة السيدة كانت تطلق على زوجة اخي الملك وهي هنا «هنري داتنجلوتير» التي يؤنبها الخطيب .

(٢) كان هذا الصوت الفاجع لا يزال يدوي في أذني بوسويه الذي دعي ليلة النزاع على جناح السرعة الى قصر سانت كلود ليكون الى جانب الاميرة المحتفزة . عندما وصل بوسويه الى قوله : ماتت السيدة توقف برهة امام تأثر المستمعين العميق .

هذه الصدمة ، كما لو ان حادثاً كارياً قد نزل بأسرته ؟ بادر الناس اول ما سمعوا هذا النعي القريب الى قصر سانت كلود من كل حدب وصوب ؛ فوجدوا الجميع مذاعسين حيارى ، ما خلا فؤاد هذه الأميرة . كيفما تلتفت لتسمع عويلاً وترّ الألم والقنوط وخيال الموت . الملك ، الملكة ، السيد (١) ، رجال البلاط ، الشعب بأسره ، الكل كان شارد اللب ، الكل كان فاقد الرجاء ؛ فكأنني ارى مصداق قول النبي : « سيبيكي المليك ، سيحزن الأمير ، ستتكس رموس الشعب المأوذولاً » .

بيد أن حسرات الأمراء والشعب كانت بغير جدوى ؛ عبثاً كان «السيد» والملك نفسه يماقنان السيدة اشدّ المناق . هنالك يستطيع كل منها ان يقول مع سالت امبروازه : « كنت اضبط الذراعين ، غير أنني كنت أضعت الذي في يدي » ، فالأميرة كانت تفلت منهما وهما يماقنهما احى عناق ، وكان الموت القادر المتسلط يسلبنا ايها من بين تلك الايدي الملكية . كيف اذن ! اتهلك بهذه السرعة ؟ عند اكثر الناس يحدث التغير شيئاً فشيئاً ، وبهيتهم الموت بصورة طبيعية لضربه الأخيرة . اما السيدة فانها مع ذلك قد ذوت من الغدوة (٢) الى المساء ، كما تذوي خضرة الحقول . كانت في الغداة تنور وتزدهر ؛ ما كان اروع صباحها وأنضره ! انتم بذلك عالمون : تم رأيناها في المساء ذابلة (٣) . ان تلك المبارات القوية التي اكث فيها الكتاب المقدس زوال الاشياء الدنيوية هي بالنسبة الى الأميرة ادق وأكثر حربية . وأسفاه ! كان في الامكان ان تسطر تاريخها من كل ما نستطيع تصوّره من عظيم ومجيد . كان الماضي والحاضر يكفئان لنا المستقبل ، وكنا نأمل الكثير من بارع صفاتها . أوشكت ان تربط بنفسها بمملكتين قويتين بمستحب الطرق : فما كانت حظوتها لتثقل ، وهي الوديدة دوماً ، والكريمة المحسنة الرزان (٤) . ابدأ لم نرها تطلب المجد في قلق وتهافت ، بل كانت تنظره في صبر ، كأنها واثقة من امتلاكه . هذه المثابرة التي كانت تظهر عظيم وفائها للملك حتى المائة كانت تضع في يدها اسباب هذا المجد . ولحق انه مما يهيج ايماننا ان في امكان الاحترام ان يقترن فيها بالواجب ، وان في المستطاع ان ترتبط بما في الأمير من فضل وان نحترم ما له من قوة وجلالة . ولم تكن ميول «السيدة» لتلفنها اقل من ذلك

(١) اخو الملك ، وزوج المتوفاة . (٢) الغداة او النداء : الصباح

(٣) قضى عليها الألم في عشر ساعات . (٤) مؤث : رزين

الى واجباتها الاخرى كلها : ان شغفها بمجد «السيدة» (١) لم يكن له من حدود . فلما كان هذا الأمير الكبير يقفو آثار اخيه الذي لا يطلب ويمضد في بسالة ونجاح مقاصده العظيمة الملائم بالبطولة في حرب الفلاندر ، كان سرور هذه الأميرة لا يصدق... ذلك هو التاريخ الاثير الذي كنا لسطرته للسيدة ؛ ولاستكمال هذه المقاصد النبيلة لم تكن في حاجة الا الى استمرار حياتها التي لم تكن نحسب انها في خطر . اذ من كان يستطيع ان يفكر فقط ان السنين قد تموز صبا في هذا النشاط ؛ لقد اضطررنا ان نمدل عن قصة هذه الحياة الرائعة الى قصة تلك الميتة الباهرة ، على ما فيها من حزن . الحق ايها السادة انه ما من شيء ابدأ ساوى ثبات نفسها ولا تلك الشجاعة الهادئة التي كانت بطبيعتها ، وبدون جهد للارتضاع ، فوق الاجداث المخوفة : اجل ، كانت السيدة أناة وادعة امام الموت ، كما كانت مع الناس اجمعين . فلم يغضب الموت قلبها الكبير ولم يضق به ذرعاً . كلا ولم تحتقره في إختيال ، بل اكتفت بمقابلته من دون اضطراب . يا للعزاء الحزين ، اذ فقدناها ، على الرغم مما اظهرت من عظيم الشجاعة ؛ ذلك هو عبث الاشياء الانسانية الاكبر . فبعد ان نتغلب على الموت ، ان وقتي هذا التمييز ، بما نبذل من جهد فائق ، يعود فيطغى فينا هذه الشجاعة التي كان يبدو اننا تقنحمة بها . ها هي ذي الاميرة العظيمة الحبيبة ، برغم قلبها الكبير ، ها هي ذي ، كما صيرها الموت ؛ وستزول كذلك هذه البقية ، هذا الظلال من المجد سوف يتلاشى ، وستراها مجرودة حتى من هذه الزينة الكثيرة . ستزول الى هذه الحال المظلمة ، الى ما تحت الثرى من مساكن ، لتنام فيها بين الفبار مع عطاء الارض ، مع هؤلاء المساكين والاحرام البائدين الذين نكاد لا نجد لها بينهم موضعاً ، لفرط تزامم الضفوف ، فما اسرع ما يملأ الموت هذه الاماكن ؛ ولكن الخيال يخدعنا هنا كذلك . فالموت لا يترك لنا من الجسم ما يشغل مكاناً ما ، فما إن نجد هناك الا الاجداث (٢) بادية للعيان . ان تلبث لحومنا ان تفسر طبيعتها ، وجسمنا يأخذ اسماً آخر ؛ حتى اسم الجثمان لا يبقى له طويلاً ، لانه ، كما يقول توريليان ، 'يظهر لنا شكلاً انسانياً : انه ليصبح شيئاً لا اعرف ما هو وليس له في لغة من اللغات اسم ؛ فمن الحق اليقين ان كل شيء فيه يموت ، حتى هذه الالفاظ الحزينة التي ندعوها بقايا النعاسة ؛

(١) زوجها ، وهو اخو الملك . (٢) جمع جدت : وهو القبر

هكذا نحمد القدرة الالهية الساخطة بحق على كبرياتنا تدفع بها الى العلم ؛ وهي
تسوي بيننا جميعاً فلا تجعل منا غير رماذ واحد . في المستطاع ان نبني على هذه
الاتقاض ؛ في المستطاع ان تؤسس مطلباً عظيماً على هذا الحطام الذي لا بد ان تتول اليه
الاشياء الانسانية ؛ ولكن ماذا ايها السادة ، أكل امل فينا الى خيبة لذن ؟ أيسحق الله
أبحادنا جميعاً حتى نصير غباراً ولا يترك لنا من رجاء ؟ هو الذي لا يخفى عليه شيء
والذي يجمع اجزاء جسمنا الصغيرة مما يقذف بها الفساد والصدفة في مكانا سحيق ، أقرأه
ياذن ان يبيد من دون عون ذاك الذي جعله جديراً بغيرته وجهه ؟ ههنا يمرض لي نوع
جديد من الاشياء : ان ظلمات الموت لتتبدد ، و د تتفتح السبل الى الحياة الحقيقية (١) ،
ليست السيدة ابدأ في القبر ؛ لقد وطئت الموت كل شيء ، من حيث خيل الينا انه قوس
كل شيء ؛ هذا هو سر قول الحكيم الذي أشرت به اليكم منذ بداية هذا الخطاب والذي
عليكم الآن ان تكتشفوا لبابه .

علينا اذن ايها المسيحيون ان نعتقد ان لنا ، الى جانب العلاقة التي تربط جسمنا
بالطبيعة المثيرة الغائبة ، علاقة وثيقة وقرى خفية من الله ، لانه تعالى هو الذي اودعنا
قوة نستطيع ان نعرف بحقيقة وجوده وان ندعن لسامي قدرته وان نستسلم لخفي حكمته
وان نركن الى رحمته ونجئى عدالته ونعقد الرجاء بأزليته . من هذه الجهة ، اذا اعتقد
المرد ياسادتي ان فيه عناصر السمواته لا يضل . لانه اذا كان محبوساً ان يلتحق كل
شيء بمصدره ، فيعود الجسم لهذا السبب ، كما يقول الحكيم ، الى الارض التي خرج منها ،
فن الجسم ، لهذا السبب نفسه ، ان يثوب الى الله ما كان فينا يحمل الطابع الالهي ، ما كان
فينا جديراً بالاتصال بالله ؛ ولكن ايتكون الذي يجب ان يعود الى الله ، مصدر الجلال
الأسنى ، إلا عظيماً وسنياً ؟ من اجل ذلك ، عندما قلت لكم ان المعلمة والمجد بيننا ليست إلا
اسماء فخيمة لا مادة لها . ولا معنى ، فانا انما كنت انظر الى اسمائنا التي
ولكن ان اردنا الحقيقة بكل اتساعها فليس الضلال ولا الزهو بالذين ابتدأنا هذين الاحمين
الراقيين . لا بل انما ما كنا لنجدها ابدأ لو لم يكن لها اساس في قوسنا ؛ إذ أتى لنا ان
نأخذ من العلم هذه الافكار النبيلة ؛ فالخطأ الذي كنا نتورط فيه لم يكن في استعمالنا
هذه الأسماء ، ولكن في اسنادها الى اشياء حقيرة . لقد فهمت كبريت وستون هذه

الحقيقة جيداً عندما قال : « المجد والثراء والنبالة والسلطان لن تكون لبناء هذا العالم غير أسماء ، أمّا لنا ، اذا كنا نجده في طاعة الله ، فانها اشياء . وعلى النقيض من ذلك الفقر والمار والموت ، فانها اشياء راهنة محققة من أجلهم ؛ أما لأجلنا فهي محض أسماء . ، لأن الذي يرتبط بالله لا يفقد مالاً ولا شرفاً ولا حياة . لا تعجبين اذا ردد الحكيم غالباً أن « كل شيء عبث . ، فقد اضاف مفسراً أن « كل شيء عبث تحت الشمس » يعني كل ما تحده السنون ، كل ما تذهب به سرعة الزمان . أخرجوا من الزمان ومن التبديل ، إرموا بإبصاركم الى الأبدية لا تمتد اليكم يد العبث والفناء ابداً . لا تعجبين اذا كان هذا الحكيم نفسه يحتقر كل شيء فينا ، حتى الحكمة ، ولا يجد خيراً من تذوق ثمرات العمل الصالح في هدوء . الحكمة التي يتحدث عنها ههنا هي الحكمة الرعناء الحاذقة في تعذيب نفسها ، الماهرة في خدعة هذه النفس ، التي توردها مورد الهلاك في الحاضر ، وتضل معها في الآتي ؛ الحكمة التي تطيل التفكير وتجتهد في التدبير ثم لا تفعل شيئاً غير ان تضي نفسها عبثاً برؤك من الاشياء التي تعصف بها الريح . « هيه ! » يهتف هذا الملك الحكيم « أهنالك شيء باطل كهذا ؟ ، أليس محققاً في تفضيل حياة معتزلة يتذوق المرء فيها على هيئته بقلب سليم هذا الخير القليل الذي تحبوه الطبيعة به ، على هموم الطامعين وغموهم ، على احلام الشرهين الملاق ؟ ثم يضيف : « بيد أن هذا نفسه ، هذا الهدوء ، هذه الحياة الرخيئة ، هي كذلك باطل ، لأن الموت يعكس كل شيء ولا يبقى على شيء . لنسده اذا يستخف احوال هذه الحياة جميعها ، لاننا أخيراً ، مهما التفتنا رأينا الموت وجهاً على الدوام يمشى بدياجيره ايماننا الجميلة جميعاً . لنسده يعدل المجنون بالحكيم ؛ بل إني لا اخشى أن أنادي بجهر القول على هذا المنبر : أن دعوه بليس (١) الانسان بالبهيمة . وهذا هو الواقع ؛ فالى ان نجد الحكمة الصحيحة ، وما دمنا ننظر الى الانسان بعيني جسمنا ، ولا نستبين بعقلنا ما فيه من مبدأ خفي لكل أعماله ، ما فيه من قوة تستطيع ان تتصل بالله ويجب لذلك ان تعود اليه ، فما عسانا ان نرى في حياتنا غير الهموم الخلق ؟ وما عسى ان نرى في موتنا غير انقاس تخمد . . . غير آلة تحتل وتفكك ثم تصبح حطاماً ؛ فاذا أعيبتنا هذه البطيالات فلنتحرر ما فينا من عناصر العظمة والقوة . لقد أوضحنا لنسا الحكيم في الكلمات الاخيرة من سيفره ؛ وقد أرتنا « السيدة » ذلك في اعمال حياتها الأخيرة :

(١) يخلط

« إخش الله واحفظ حدوده ، فهناك الرجل كله ، ؛ فكأنه كان يقول : ليس الانسان هو الذي أحقر ، بل الضلالات التي يوحل فيها ويحب على نفسه المهانة والعار من أجلها (١) . أتريدون ان تعرفوا بموجز القول ما هو الانسان ؟ كل واجبه ، كل هدفه ، كل وجوده في خشية الله ؛ وما خلا ذلك باطل ؛ أصرح بذلك ؛ ولكن ما خلا ذلك ليس من الانسان في شيء . هذا هو الشيء الحقيقي الوطيد الأركان الذي لا يستطيع الموت ان ينزعه « لأن الله » يضيف الحكيم « سينظر في حُكمه الى كل ما فعلناه من خير وشر . » انه لمن السهل علينا الآن ان نوفق بين الامور جميعاً . يقول صاحب المزامير « سيذهب الموت بكل افكارنا » ؛ نعم ، تلك التي تستأثر بها الحياة الدنيا ستصير الى زوال . اذ على الرغم من ان لذهنتنا طبيعة باقية ، فانه سيترك للموت كل ما يسخره للاشياء الفانية ؛ بحيث ان افكارنا التي لا تمتد اليها يد الفساد من جهة الأصل والمبدأ تصبح فانية من حيث الهدف . أتريدون ان تتقنوا شيئاً من هذا الدمار الشامل المحقق ؟ اذن فأخلصوا الحب لله ، فما من قوة تستطيع ان تسلبكم ما تودعونه يديه الآلهيتين ، ولسوف يكون فيمكنكم ان تستهينوا بالموت في شجاعة ، على مثال فقيدتنا الباسلة (٢) . . .



(١) اختصرنا هنا ، من قوله : فكأنه ، الى قوله : أجلها . (٢) أعجلنا الطبع عن استيفاء هذا الخطاب النفيس ، فلأسف .

الدور الثالث

دور الانتقال

١٦٩٠ - ١٧١٥

نحن الآن في العقد الأخير من القرن السابع عشر ، ولم نزل نتوقّل بك في هذا الجبل الباذخ حتى بلغنا ذروته . وراءنا عهد ذهبي شهدت فيه فرنسا مجداً عسكرياً وأدبياً يذكرنا باروع المصور وأخلاقها ، يذكرنا بمصور بركليس واغسطوس والرشيد والمأمون . وامامنا نطل على بقية من هذا العهد تمتد حتى تبلغ خمساً وعشرين عاماً ؛ اذ لا ينبغي ان يذهب عنك اننا جاريين علماء الأدب فنسأنا (١) من أجل هذا القرن وجعلنا ختامه وفاة لويس الكبير عام ١٧١٥ . هذه الفترة الباقية من القرن العظيم هي في عرف العلماء : دور الانتقال من افكار هذا القرن ومثله الى افكار القرن الثامن عشر ومثله . في هذا الفصل سنحدثك عن الحياة السياسية كذلك وعن انعكاساتها في الادب ؛ غير اننا سنقف بك قليلاً لنجوس خلال المجتمع الفرنسي ، فنحدثك بطبقات الشعب الذي درسنا ادبه ومازلنا نستشرف منه الى مزيد ، ولترقب عن كثب سير الحياة العامة فيه :

بقي المجتمع الفرنسي في هذا العصر كما كان في العصور الوسطى مبنيّاً على نظام الطبقات : رجال الدين ، والاشراف ، وسواد الشعب ، او العامة . غير ان نظام الطبقات كان على جانب من التعقيد . فلم يكن افراد كل طبقة سواءً ؛ وكثيراً ما لعب افراد من العامة ادواراً كبيرة لم يتح لرجال الطبقتين الاخرين ان يلعبوها (٢) .

فاما رجال الدين فقد حدثناك في فصل سابق عن بسطة نفوذهم وسعة ثرائهم ؛ ومع ذلك فقد كان نصيب الحكومة من اموالهم ضئيلاً جداً : كانوا في الواقع صنفين ، الاول هو الذي تهكم به موليير في طرطوف ، وهم من الاغنياء وذوي الوجاهة ، ومنهم يكون

(١) أخرنا (٢) 259 - 261 Les temps modernes



لويس الرابع عشر

المطارنة والاساقفة ورؤساء الاديرة ، الذين كانوا يختارون في الاغلب من طبقة النبلاء فيعيشون في فرساي ، كما يعيش النبلاء ؛ في بذخ وعبث ، ما خلا فقراً قليلاً منهم أوفوا عهد الدين وكانوا كهنة صالحين ، كبوسوبه وفينيلون . والثاني من الفقراء البائسين الذين قلما نالوا حظاً من العلم او الجاه : اولئك هم الخوارنة ومن يليهم في مناصب الكهنوت . كان بين الفريقين هوة سحيقة ، فمن اولئك الكهنة والاحتقار ، ومن هؤلاء ، وهم الكثرة الفائرة ، البغضاء والنفار (١) .

واما الاشراف فهم اصحاب الاراضي الذين يتمتعون بحقوق الاقطاعيين ، فيحملون شارات الشرف ويقدمون في الكنائس ويمفقون من الضرائب ، وتقصد لهم الأولوية ، ويختار منهم كبار الموظفين . افراد هذه الطبقة متفاوتون كذلك : فقد جعل الملوك يختارون منها فريقاً يشقون به ويسترسلون اليه فترك اراضيهم واقام في فرساي لاهياً رافهاً في خدمة الملوك . هؤلاء هم « اشراف القصر » الذين كانوا قدوة الفرنسيين والاجانب بما يتخذون من ازياء وما ينهجون من عادات . اكثرهم من المثقفين المعنيين بالآداب والفنون والمخاطبين على تقاليد الارستقراطية المترفة وما أثر عنها من دماء المعشر وحلاوة الحديث . عن هذه الطبقة حدثنا « رسائل مدام دي سيفنيه » وستحدثنا « مذكرات مسان سيمون » ، (٢) وفريق آخر لزموا اراضيهم ، وهم « اشراف الولايات » الذين كانوا احتملة السلاح ووقود المعارك . لقد ساءت الحال بهم كثيراً ، ولا سيما زمن لويس الرابع عشر ، فنيكتهم الحرب ولزمتهم الديون ، فاضطروا الى بيع جانب من ارضهم ليوقثوا ما عليهم . سجد ما كانوا يبتنون أن ينظموا بعض أبنائهم في وظائف الدولة او الكهنوت (٣) !

طبقتا رجال الدين والاشراف لم تتجاوزا في القرن السابع عشر خمسمائة الف نسمة من تسعة عشر مليوناً هم جملة الشعب . يليها في النظام الاجتماعي : طبقة العوام ؛ وهم كذلك فيما بينهم درجات ، أعلاها حظاً : البورجوازية ، وفيها اغنياء التجار والصناع ورجال المال وارباب المهن الحرة من اطباء ومحامين ، وموظفو الحكومة وفي مقدمتهم رئيس البرلمان . لقد أعفيت البورجوازية من بعض الضرائب ، واقتصرت عليها وحدها مجالس البلدية ؛ وكان بعض افرادها يتحولون الى اشراف ، كما تقضي بذلك بعض المناصب الخطيرة التي يشغلونها ، وبخاصة مناصب البرلمان . والحق ان الدور الذي لعبته البورجوازية

Tapié 56, 154 (٢) Les temps modernes 259—261 (١)
Les temps modernes : 261



مدرام دي ماشونون

من انظر بمكان : فكان في يدهم الادارة والقضاء ، ثم آل اليهم الحكم في عهد
لويس الكبير ، لانه كان يختار وزراءه واكثر اعوانه منهم . اما رجال المال فقد كانت
حاجة الدولة اليهم تزداد كلما رفق الدولة عجز وخيم الفقر على البلاد . وكان الملك يتوجه
اليهم في المواقف الحرجة ويدخل في شروطهم . فاجنوا من ذلك ارباحا طائلة ، سلكوا
اليها في الغالب طرقاً دنيئة ، اثاروا بها بغض الشعب واحتقاره : هؤلاء هم المرابون الذين
هنأ بهم مولير في رواية البخيل . وقد استطاعت البورجوازية ، بما تكسب لديها من
ثراء ، ان تستنزل الاشراف عن بعض اراضيهم ، واصبحت مع رجال الكهنوت اكبر
اصحاب الارض . وجماع القول : لم تكن الشقة بين الاشراف والبورجوازية من البمد
كما يخيّل الي كثيرين ، هم من شريف تدلّني به الفقر الى بورجوازي صغير ، وكم من
بورجوازي اغتني واتسع فارتفع من غمار الناس حتى صاهر الاشراف . الا تذكر ملهاة
« البورجوازي النبيل » لمولير ، وكيف كان الاصهار الى الاشراف يداعب مخيلته ؟ خذ
مثالاً من الوزير « كولبير » ، فقد رفعه منصبه من تاجر عادي الى شريف سري ، ثم
زوج بناته الثلاث الى نقر من كرام النبلاء .

واخيراً طبقة المال والفلاحين ، وهم سواد الامة والمنتجون فيها . كانوا يعيشون
في شغل وفاق ، ولاسيما الفلاحين ، فقد كانوا يرزحون تحت اعباء الضرائب الفادحة ؛
وكان استبداد الاقطاعيين والجنود يزيد حالهم سوءاً ؛ ولعلك لم تنس قصة : « الموت
والخطاب » للافونتين ، فهي تصور لنا جانباً من شقاوتهم ؛ وكثيراً ما فادحهم الخطب حتى أعبا
على ولاية الامور ضبطهم ، فظهروا نشوزهم على الطاعة ، وثاروا وهم معازيل من كل
سلاح ، فقمعهم اولو الامر وانحنوا فيهم . وعلى هذا فلم يكن جلال « العصر العظيم »
ورواؤه الا ظاهراً يكن وراءه آلام واحزان (١) . ارايت كيف يكون وراء كل بذخ
وتبذير حق مضيق ؟ يقول الاستاذ ماليه : « كان القرن السابع عشر المجيد ، عصر
ريشيليو ومارازان ولويس الكبير ، قرناً كالحا شتياً (٢) على طبقة الفلاحين ، وهم كثرة
الشعب الغالبة (٣) . »

لستنا ندفع تلك الرغبة الصادقة التي ابداهها لويس الرابع عشر ووزراؤه ، وعلى
راسهم كولبير ، في تخفيف ويلات الشعب واصلاح مرافق الدولة وتشجيع العلماء والادباء

(١) المصدر السابق 261-264 (٢) كره الوجه (٣) Malet 112



الأُرباب في القرن السابع عشر
فارسي وسيدة من عليّة القوم بمخسبان القهوة

ورجال الفن ؟ بيد أن المؤرخين قد أخذوا عليه أموراً خطيرة اذا وضعت في كفة سياسته كادت تعدل حسناته او تزيد عليها : أخذوا عليه طموحه العسكري ورغبته في توسيع حدود فرنسا وإيقاع الرهبة في قلوب جاراتها ؛ تلك هي في الحقيقة خطة ريشلييه ومازاران من قبله ؛ غير ان الوزيرين الكبيرين استطاعا بداهتها ان يكسبا الى جانبها الاسم الاوروبي ، لانها لم يفخرا بقوتها وكانا يحتجان دائماً بسميها الى حفظ التوازن الدولي وقرار السلام . اما لويس فقد نهج منذ البداية سياسة المجد والغبلة ، فأقلق بذلك الاحلاف فأقبلوا عليه ورموه عن قوس واحدة وكالبوه من كل جانب (١) . ان اوضح مثالين على زهو هذا الماهل وحرصه على بسط نفوذه من غير نظر الى عواقب الأمور هما حادث السفيرين في لندن ، ثم خلافه مع البابا . فقد نمي الى لويس الرابع عشر ان سفير اسبانيا تقدم سفيره في احتفال جرى في لندن ، فغضب اشد الغضب ، وهدد بالحرب ملك اسبانيا ، وهو ابوزوجته ، اذا لم يبادر لتقديم الترضية ، ففعل . وفي الوقت نفسه كان الحرس البابوي قد اساء الى السفارة الفرنسية في روما ، لما كان من لويس الرابع عشر الا ان احتل أفينيون ، ودينيسان ، وهدد بنزول ايطاليا ، ما لم يعتذر اليه سفير من البابا على ملاء من الناس ، وما لم تبادر قداسته لتخليد هذا الاعتذار على نصب تقيمه في روما وتتخذ لحفظه الخطة الكاملة ، ففعلت (٢) :

هكذا وقعت الحرب بين لويس الرابع عشر ومن حوله من الدول . واثن استطاع ان يقهر اعداءه ويكفل بالظفر جيوشه قبل ١٦٨٨ بما وفق اليه بادي الامر من وزراء اختيار مثل كولبير ووزير الحرب « لوفوا » ومن قادة حزمته مثل (كوندې) و (تورين) ، ومن ساسة اكفاء مثل (هوجز دي ليون) ، فان استمرار الحرب وكثرة العدو وفقدان هؤلاء الرجال العظام ، كل اوائك قد اثقل كاهل الفرنسيين بعد ذلك التاريخ ؛ حتى اذا كانت حرب التنازع على العرش الاسباني ، وهي من أذكر حروب لويس وأضرها ، جريد الفرنسيين الحصار وناء بهم الحمل وطمع في تهضم جانبهم من لم يكن يقوم لهم ، واصبحوا يريدون ان يضموا الحرب ويخلدوا الى السلم فلا يستطيعون (٣) : ثم أخذوا عليه تعصبه الديني : ذلك بان استبداد هذا الماهل لم يقتصر على السياسة

(١) Tapié 199, Les temps modernes 305

(٢) Les temps modernes 309—311 (٣) المصدر السابق 323 301 ، ثم

Tapié 179—199



الزُّبَاءُ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ
نرى وفرات الشعر المستعار على الزُّبُوس

بل تمدها الى امور الدين ؛ لم يكن صدره ليتسع لغير سلطته ان يكون لها صوت مسموع في بلاده ؛ ومن هنا نشأت تلك الخصومة بينه وبين البابا ، وقام بوسويته على رأس الاكليروس الفرنسي يعلن استقلال الكنيسة الفرنسية ، ذلك الاستقلال الذي لم يطل ان امسى ، نظراً لتألب الاعداء وحاجة الملك الى معونة البابا . وكان لويس الرابع عشر يفسر كل اختلاف معه في المذهب بأنه خروج عن الطاعة ؛ وقد جعل شعوره بالعداء نحو فريقى الجالسنين والبروتستانت يزداد في الشطر الثاني من حكمه ؛ وما زال يوقع بالفريقين اذى وتنكيلا حتى هدم دير الجالسنين وجذّ دابرهم واحرق كتاب « الريفيات » الذي نافح فيه باسكال عنهم . اما البروتستانت فقد كان ظلمه لهم اقوى ، مع انهم كانوا رعية صالحة لم تدّخر وسعاً في خدمة الوطن والوفاء لصاحب التساج . واخيراً بلغ من ظلمه ان ألغى عسكرة « تانت » التي تحفظ لهم حقوقهم ، وامر بهجيرهم ، فخصرت البلاد بذهابهم حوالي خمسمائة الف رجل من خيرة تجارها وصناعها ، خمسمائة الف رجل هم ثلة مختارة في الجِد والخلق ، فليس قليلاً ان يهجر القوم ديارهم ويذهبوا في ممتلكاتهم حفاظاً على عقائدهم ؛ وهذا لو رحت تبحث في اسباب هذا الاجماع الذي اظهرته الدول البروتستانية المجاورة على مناصبة الفرنسيين العداء لوجدت في طليعتها تقمّتهم على سياسة الملك الدينية . وكثيراً ما كان ثوار البروتستانت ، وهم قوم حمّس مغامرون ، يقتنمون القصر ، فيخرجون من معتصمهم في الكهوف ويمتنع الجبال ، فيأخذون الجيش من ورائه ويخذلون عنه الانصار (١) ؛

وبما اخذوا عليه اسرافه في بناء القصور ، فبنى فرساي ومارلي والتريانون (٢) ... وانفاقه من دون حساب على النبلاء والحاشية في الاعياد والحفلات ، مما لم تشر معه جهود كولبير العظيمة في اصلاح احوال البلاد الاقتصادية ودعم خزينه الدولة (٣) . كان يريد ان يضمن هيبة فرنسا في قلوب اعدائها ، وكان يرى ان انجح وسيلة لذلك هي الظهور امام السفراء والاجانب في أبهة وفخامة ؛

وكان الطليعة ارادت ان تصبّ كذلك ويلاتها ، فاذا أشتية زمهرير تسوالى ، افدحها شتاء ١٩٠٩ ، فيست الزروع وذاق الشعب مرّ الشدائد ؛ وازدادت حاجة الدولة الى جباية الضرائب ، حتي كانوا كما يقول سان سيمون يبحثون عن المال في عظام الرعية ، وقدّر (فوبان) عدد الشحاذين بمليونين ، وغزا البؤس قصر فرساي نفسه ،

(١) Les temps modernes 237-241 ، P: 2 Le siècle de Louis XIV

(٢) لويس الرابع عشر ٩١-٩٢ (٣) Les temps modernes 253

وتكثف (١) قوامه وخدمته ؛ ونقص عدد السكان من تسعة عشر مليوناً الى سبعة عشر ؛ ولم يكن لويس الرابع عشر بنجوة من هذا الشقاء ، فلقد كتب عليه ان يفقد ابنه وبعض احفاده واعزائه ؛ وكأنه أخذ يشعر بأنه يحمل كبر هذه النوائب بما النش من حروب وبدد من اموال ؛ وإنه لفي غمرات الموت اذ دعا بحفيده وأنشأ يقول له : «اي بني ، عما قليل تصبح ملكاً عظيماً ، فلا ينبغي لك ان تقتدي بي فتميل الى بناء القصور وخوض الحروب . اجهد ان تخفف آلام الشعب ، فقد آلمني واشقائي اني لم افعل ذلك . » ثم التفت الى حاشيته وم وقوف حوله ، فاعتذر اليهم من القدوة السيئة التي كانها لهم . ، لقد تحمل الآلام ، وعان الموت يدافع منه ، في شجاعته اثار اعجاب الجميع ؛ ثم لفظ انفاسه الاخيرة ١٧١٥ عن سبع وسبعين عاماً ، بعد ان وجهه بنفسه ، من غير ضعف ولا انقطاع ، شئون المملكة جميعها اربما وخسين عاماً (٢) يقول سان سيمون : «لما نفي لويس الرابع عشر الى الناس اخذتهم هزة الفرح وتفاءلوا بانكشاف هذه الغمرة وحمدوا الله على خلاص كالت تهفوا اليه افئدتهم (٣)» .

اما الادب فلم يكن في معزل عن هذا كله ؛ فلما استشرى الخطب واسع الخرق اخذ الادباء يتناولون بالبحث اسباب هذه المآسي وطرق علاجها . كان فينيون يرى ان استبداد الملك هو السبب الاول ؛ وكان ينصح ان يعتمد الملك على مجالس نيابية حرة . اما «فويان» فقد كان يرى موضع الضعف في نظام الضرائب الذي يعمي بعضاً ويُثقل آخرين ، وكان ينصح باقامة نظام يعادل بين الجميع (٤) .

اضطلاع الشعب عن طريق نوابه بمسئوليات الحكم ، والعدالة في توزيع الضرائب : هما حلما الادباء في الدور الثالث من القرن العظيم ، ولسوف تجعلها الثورة الفرنسية بعد خمسة وسبعين عاماً حقائق راهنة (٥) .

المركة بين القدماء والمحدثين

يتألف المثل الاعلى للادب الاتباعي من عنصرين مختلفين : الميل الى تحكيم

(١) تكثف : مد يده يسأل الناس

(٢) Malet 291—292 ، مادة : Louis XIV في Larousse du xxème siècle

(٣) 'Tapié 200—206' Les temps modernes 318—319

العقل ، وحب الجمال . فاما العقل فكان يصرف انظار الادباء عن القدامى ويثبهم الى
الا يستشيدوا سواء . واما حب الجمال فكان يلفت الانظار الى الاقدمين ويدعو الى تقهم
آثارهم الخالدة ؛ كما انه كان يحد من سلطان العقل على الأدب ويوسع المجال للفن ان
يبسط نفوذه عليه ، حتى لتجد روائع المنظوم والمثثور في القرن السابع عشر كلها تقريباً
من اشاج مدرسة المعجبين بالقدماء (١) .

بيد ان نمو مذهب العقلين اعلى صوتهم آخر الأمر ومكثهم في نهاية هذا القرن من
تحطيم المثل الاعلى للاتباعيين ، في معركة عنيفة طويلة ، هي المعركة بين انصار الادب القديم
وانصار الادب الحديث (١) .

• • •

لهذه المعركة اصول بعيدة ، نجد بعضها في تلك الحركة النقدية التي دارت حول
رواية « السيد » ما بين عامي ١٦٣٥ - ١٦٣٦ . ثم اخذ الأديب « ديماري دي سان
سورلان (٢) » يدافع في مقدمات تأليفه عن الملاحم المصرية التي تستمد غذاءها من التقاليد
الوطنية والعقلية المسيحية ؛ فنهّد له بوال في منظومته « فن الشعر » وأسقط مذهبه هذا
واشعاره ١٦٧٤ . وفي الوقت نفسه جعل قوم يوازنون بين اللغتين : اللاتينية والفرنسية
ليفضوا هذه على تلك . وقد اعترضهم عام ١٦٧٥ هذه المشكلة : ارادوا ان يكتبوا على
احد اقواس النصر شيئاً ، فجلوا يابساً لول : بأي لغة نتحدث عن نصر الملك ، بالفرنسية
ام باللاتينية ، وجرّم ذلك الى تعميم المشكلة والفوس الى جذورها : أيها ارقى ، الآداب
الحديثة ام القديمة ؟ وفي ذلك الحين اُثف « شارپانتيه » كتابه : « امتياز اللغة
الفرنسية (٣) » .

على ان الخصومة لم تتجاوز بعض المناوشات الا عندما وقف الاديب « شارل
پيرو (٤) » ، مؤلف : « قصص الجن » (٥) ، يعلن على رؤوس الاشهاد في الجمع العلمي
تفوق الشعراء الحديثين على شعراء اليونان والرومان :

ان الآداب القديمة لجديرة دائماً بالاحترام .
بيد أنني لم اعتقد انها تستحق العبادة يوماً من الايام .

(١) L.T. 322 Desmarets de Saint-Sorlin (٢)

(٣) L'Excellence de la langue française Charles Perrault (٤)

(٥) Contes des fées



قاعة البُلور في قصر فرساي

انا انظر الى الاقدمين من غير ان أحني ركبتي:
فهم في الحق عظام ، بيد انهم رجال مثلنا .
لستطيع ان تقابل ، من غير ان تشورت في ظلم ،
عصر لويس الكبير بمصر او غسطلوس الجميل .

ثم اتبع ذلك بكتابه : « الموازنة بين القدامى والمحدثين » ، وفيه يعرض التدليل
الثاني : ان قانون العقل الانساني هو التطور : في العلوم نحن اعلى كعباً من الأقدمين ،
فيجب ان نتفوق عليهم في الآداب ايضاً . كان الاقدمون اطفالاً في كل شيء ، اما المحدثون
فهم يمثلون الفكر الانساني في طريقه الى النضوج . مصداق ذلك الآثار الادبية نفسها
من قديمة وحديثة : فبسكال اعظم من افلاطون ، وبوالويرج هوراس ، وفي رواية
« كورنيس » من الابتداع اضعاف ما في الألياذة . . .

هناك اسباب كثيرة تفسر تفوق المحدثين : تأخرهم في الزمان ، طول باعهم في
دراسة النفس ، اسلوبهم الأكمل في التفكير ، الطباعة ، المسيحية (١) . . .
وانحاز الى يريو وأديب آخر هو « فونتونيل » في كتابه « إلماح الى القديما
والمحدثين » (٢) ، وهو يرى ان الطبيعة هي في كل زمان ، لا ينضب معينها ولا تتغير
حقيقتها ؛ ففي عصرنا من العقول النيرة مثل ما كان في اي عصر مضى . هذا الى ان كل
جيل يرث معارف الاجيال قبله ، فتحن نملك علوم الماضي وتجاربه ، بالإضافة الى علومنا
وتجاربنا . لقد جثم المحدثون على اكتاف القدامى فرأوا أبعد مما رأى هؤلاء ، ووضعوا
المكبرات على عيونهم فرأوا اوضح مما رأى السلف (١) .

وظاهر أن انصار الحديث هم من العقليين ، تلاميذ ديكارت ، الذين كانوا يؤمنون
بتدرج الآداب نحو السكال ، اسوة بالمعارف الانسانية الاخرى . على ان تاريخ الآداب
يشهد بان العصور الادبية ليست سواء كما يزعم فونتونيل ، وبأن تطور الآداب لا يلزم
الصعود دائماً ، بل انه كثيراً ما يسير في انحدار وانحدار ؛ فلئن كان العصر السابع عشر
يوازي عصر أوغسطلوس او يقدمه (٣) ، فإن القرون العشر التي تقدمته لا تساوي مجتمعة
احد هذين العصرين ولا تقاربه .

وظاهر كذلك ان هؤلاء العقليين ما فضلوا ادباء القرن العظيم على ادباء اليونان

(١) L.F.U. 39—40 ثم L.T. 323—324

(٢) Digression sur les anciens et les modernes (٣) بغوته

والرومان إلا ليؤيدوا رأيهم في اضطراد رقي الآداب ، وليحطموا بمدنهم مثل الاتباعين مع المثل القديمة ، وليرفعوا أنفسهم على كل من تقدمهم . ولقد فازوا آخر الأمر بما أمثلوا ، فحرروا الادب من احتذاء القدامى وصرفوا الناس عن احترامهم ؛ ولكنهم في الوقت نفسه كانوا السبب في تدهور الآداب الفرنسية كما يشهد بذلك جهاذة النقد الى هذا اليوم .

رجعت كفة انصار الحديث اذاً وما كان لها إلا أن ترجح ، اذا انها لم تكن تدعو إلا لتقديم خصوصاً انصار الآداب اليونانية والرومانية على الاقدمين ؛ واعترف انصار القديم بأنهم لم يقصروا في حق الادب ولم يخلوا مصر الذي عاشوا فيه ، وما لهم ألا يعترفوا وفيهم بسكال وكورني وبوالولافوتين وبوسويه وفينييلون ورأسين ولاروشفوكو ولا برويار . . . وغني عن البيان ان نصر دعة المذهب الحديث هو في الحقيقة نصر لخصوصهم وهم تلامذة الآداب القديمة واساطين البيان في هذا العصر الذهبي كما قدّمنا ؛ وغني عن البيان كذلك ان انتصار هؤلاء للقدامى هو نوع من الاعتراف بالجميل والتواضع للنيل الذين ألهموها كما ألهموا عبقرياتهم وزادتها المعرفة تمكيناً في صدورهم ؛ اما انصار الحديث فانهم لم يعترفوا للقديما بالجميل لأنهم في الواقع لم يقرؤهم ولم ييسروا بهم الى آثار خالدة ؛ كلا ، ولم يتواضعوا لانهم لم يرتفعوا كثيراً فيشعروا بفضل التواضع !



فينييلون

١٦٥١ - ١٧١٥

نحن الآن في الدور الأخير من القرن العظيم ؛ بيد أن هذا القرن لا يزال غنياً بفحول الادباء . ولو شئنا ان نوردك مناهل ادبهم جميعاً لتشعب بنا القول واتسع . فلنكتف اذاً بثلاثة منهم ، هم أنبهم وأبعدهم أثراً .

. . .



فینیاون

ولد فينيلون في السادس من شهر اب «اغسطس» عام ١٦٥١ ، في مقاطعة «ريمبور»^(١) ، من ابوين نبيلين ولكنها فقيران . وقد أعدّاه لخدمة الكنيسة التي كان يحيل اليها بما جبل عليه من ورع وحرارة ايمان . كان يحلم ان ينضم الى احدى الارساليات ، فحال ضعف بنيته دون ذلك ، واكتفى بإدارة بعض المنظمات الدينية بمحذق واخلاص كسبائه صداقة «بوسويه» الذي كان يكبره بأربعة وعشرين عاماً، والذي مهد له دخول القصر مريباً لولي العهد ١٦٨٩ ؛ وكان فينيلون إذ ذاك يرقى درجات الشهرة بتأليفه ، ولاسيما كتابه في «تثقيف البنات»^(٢) ، وكان ولي العهد هذا طفلاً شاكساً^(٣) عصياً ، فاستطاع فينيلون بما أوتي من كياسة وحلم عظيمين ان يثقل من طباعه ويجعله طوع ارادته ، حتى انه كان يأمل ان يلعب ذات يوم دور ريشيليو او مازاران ، حين يتاح لولي العهد أن يملك . لقد فتحت له استاذيته لولي العهد ابواب المجد . فهو الآن رئيس فريق من اتقياء القصر تحوطه السيدة دي مانتونون ، زوجة الملك غير المتوجة ، ورتاه . ولقد استقبله المجمع العلمي بين اعضائه، ووجهت اليه مطرانية «كامبري» ١٦٩٥ . وانه في حظوته لقوي مكين ، وان آمالاً رحبية ليدنو قطافها منه ، اذ بهذه الخطوة تضع ، واذ بتلك الآمال تنهار في بضعة أشهر :

ذلك انه كان قد تعرف بالمتصوفة الشهيرة : مدام جيون^(٤) فصادت دعوتها من قلبه المتعبّد الحالم قبولاً حسناً ، وجرّد قلعه للدفاع عنها في كتاب دعاه : «تأويل حكم القديسين»^(٥) ، فتهنّد له «بوسويه» ، كما سلف عليك في ترجمته ، وكان عقلياً يكره البدع في الدين والجري فيه على سنن الحالمين ؛ وشريت الخصومة بين الاديدين الصديقين وامتدت زهاء خمس سنين ؛ وعلم الملك بدعوة فينيلون هذه وهاله ان تكون السيدة جيون معلّمة في مدرسة «سان سير» التي تديرها زوجة الملك ، تبشر فيها علانية بمذهبها الجديد، وأن يعتنق فينيلون هذا المذهب وينشئ «ولي العهد عليه» ، فأقال المربي وفرض عليه ان يلزم اسقفيته ، وظاهره اليابا عليه ، ففضى بطلان مذهبه . ثم كان ان الف قصته العظيمة «تيلياك» ، يمرض فيها من طرف خفي بحكم لويس الرابع عشر ، ويرسم لولي العهد خطة أمثل في الحكم ، ووقع المؤلف في يد احد الناشرين فطمعه على غير علم فينيلون ؛ فانقطع بذلك آخر امل في عودة الصفاء بين الملك والمربي . بيد أن نشاط الرجل لم يفتّر أبداً .

(١) Périgord (٢) L'Education des Filles (٣) صمب الخلق
(٤) Mme Guyon (٥) Explication des maximes des saints

يقول سان سيمون : « ان اعمال البر وموالاة الزيارات التي كان يشرف فيها بنفسه اجزاء اسقيته كلها ، والحكمة واللفظ في ادارته ، ومواعظه الكثيرة في المدينة والقرى ، وسهولة طبعه ، وحده على الصغار وادبه مع الآخرين ، وظرفه الطبيعي الذي كان يعلي من شأن ما يقول او يفعل ، كل أولئك حبيبه الى رعيته وأحله عندها على مقام . » كذلك كان نشاطه في الاكاديمية ، وأهم ما قدم اليها رسالة عن شواغل الجمع العلمي الفرنسي (١) ١٧١٤ ؛ اما صلتة بتلميذه الدوق دي بوجون فقد تجددت واستمرت تأثيرة عليه ؛ وكان فينيون يعشي النفس بأن عهد الملك الشيخ قد شارف نهايته ، وان تسلم الدوق عرش المملكة اصبح وشيكاً ، واذا بالمنية تماجل ولي العهد ، فتقضي بذلك على آخر امل له . ومات فينيون بعد ذلك بثلاثة اعوام ، ومات لويس الرابع عشر بعد بضعة اشهر (٢) ١٧١٥ .

• • •

المتحدثون عن فينيون هم بين محب غالي في محبته ومبغض مسرف في ضغينته . كيف الحيات تلقاء هذه النفس البعيدة الفور ، المقعدة ، الشديدة القموض ؟ فارح القامة الى بحافة ، وارد الشعر (٣) ، شاحب الوجه أنافي (٤) ، بعينين تومضان ناراً وتندفقان ذكاءً ، لا يكاد يراه الناظر حتى تنطبع صورته في تخيلته لتميزها ووضوح قسماها . اما شخصيته فملتقى الاضداد حقاً ، تتلاقى فيها لتصلح وتأنف : وقار في ظرف ، وجد في دعابة ؛ روح العالم الى روح الكاهن الى روح السيد الماجد ؛ كل ذلك في ذكاء لمناح وجاذبية أسرة وحشمة ونباله ؛ وكل ذلك الى بلاغة عفوية سمحة مزهرة ، وادب جم واتزان . . . ابغض الاشياء اليه أن يبدو لمحدثه أكثر منه ذكاءً ، واحبها اليه ان يدنو من متناول كل انسان من غير ان يشعره بتواضعه (٥) . على ان وراء هذا التواضع قدرة على الاغراء لا تقهر ، تسيطر على الناس وتربطهم الي عجلتها ، وطموحاً شريفاً الى عظام الامور ومعالها ، يمدّها خيال نافذ لا يعنى بمنطق الحوادث وامكانياتها . يقول لويس الرابع عشر : « إن فينيون اذكى اذكيا مملكتي ،

Lettre à M. Dacier sur les occupations de l'Académie française (١)

(٢) رجعتا فيما تقدم عن هذا الاديب الى L.T. 330-332 والى L.F.U. 47-48

(٣) الشعر الوارد : الطويل المسترسل (٤) الانافي : الكبير الاثقل

Mémoires de Saint-Simon : 63 (٥)

غير انه أجراهم مع الاوهام . ، وعلى الجملة فهو رجل سلطنة ، روحاني ، فنان معاً ،
او بتعبير اوضح : انه اديب شخصي* ، لا يصدر عن غير طبيعته وميله ، انه اديب*
حديث (١) .

. . .

ادبه : — ترك فينيون آثاراً كثيرة أهمها : « تنقيف البنات » و « تيلماك » و
« رسالة في شواغل الجمع العلمي » و « القصص الخرافية » .

« تنقيف البنات » : — ألف هذه الرسالة تلبية لرغبة صديقيه دوق ودوقة دي
بوفيليه اللذين كان لهما ثنائي بنات ؛ غير انه لم يفكر فيما سيكتب لها من رواج كبير حين
وافق على طبعا (١٦٨٧) . كان هذا اول أثر له ، ومع ذلك فأتت تربيته فيه براعة فائقة
في دراسة نفسية الطفل وفها عميقاً لمهمة المربي ، اكتسبها من طول ممارسة التعليم في
المنظمات الدينية ثم في القصر الملكي :

لم يكن الآباء والمربون يعنون بثقافة الفتاة في القرن السابع عشر الا قليلا . و اذا
نحنا وضعنا جانباً طائفة المتأثقات من لساء الصالات وعدداً ضئيلاً من ذوات الثقافة الصحيحة
من امثال السيدتين دي سيفنيه ودي لا فايت والسيدة دي مانتونون ، زوجة الملك ، فان
المرأة كانت على وجه العموم تعمه في ظلام الجهل (٢) . ولعلك تذكر الآن « ارنولف » ،
الذي جعله مولير نموذجاً لكثرة الرجال في عصره ممن لا يرون للمرأة حق التعلم ويحرسون
على بقائها جاهلة ليتصرفوا بها كيفما شاءوا . ففينيولون يبين لنا دور المرأة الخطير في المجتمع
ويؤكد ضرورة العناية بتعليمها اولاً ، وتوجيه هذا التعليم ثانياً الى ما يتفق مع طبيعتها
ومهمتها في الحياة . لقد سخر قبله مولير بالآباء الذين يريدون ان يتركوا فتياتهم في ظلمات
الجهالة ؛ ولكنه لم يفهم من سخريته اولئك المتأثقات السخيفات اللائي لم يشعرن بواقعهن
ورحن يجارين الرجال في علومهم ، فاذا علمن حذقة بغيضة واذا ظرفن بلبه وسماجة ؛
كلا ، يقول فينيولون : « فللنساء بيت يتولين ادارته ، وزوج عليهن اسعاده ، وابناء عليهن
تربيتهم على خير وجه (٣) ؛ فينبغي لهن ان يتزودن من المعرفة بما يعين على النهوض بهذه
الواجب ، ليكون العلم لهن زينة ، لا ليكون به متحذقات خرافات . فهو يتلاقى مع
مولير في ضرورة اعتدال المرأة في تعلمها ، وفي وجوب تزويدها للحياة العملية التي خلقت

P : 13 (٣) L'Education des filles : 8 (٢) L.T. 332 (١)

لها : عليها ان تتعلم القراءة والكتابة والحساب وان تشدو شيئاً من علم الحقوق لتستطيع ان تضبط نفقة بنتها وان تحسن التصرف باملاكها ، وعليها ان ترقى ذوقها بالرسم اذا استطاعت . ومن الغريب حقاً انه يحظر على المرأة ان تشمل لفات حية ، وهو في الوقت نفسه يندبها الى تعلم اللاتينية ؛ وهذا ولا ريب راجع الى تعلق الرجل بهذه اللغة كأكثر رجال عصره . ولا ينسى فينيون ، وهو احد كبار رجال الدين ، ان يطلب للمرأة علماً آخر لم يفكر به مولير من قبله ، فيوجب عليها ان تتفقه في الدين ؛ اما الموسيقى ، فهي كالشعر ، يخشى ان تحرك الفرائز الخبيثة ؛ فهو ينصح بالاقبال منها ما امكن (١) .

وليس هذا حفظ المرأة كله من الكتاب ؛ فالمؤلف يعقد كذلك فصلين ممتعين يصف فيها المرأة وصفاً لاذعاً دقيقاً ، وينعى عليها فيها بعض تقائصها ، ولا سيما حرصها الشديد على عرض مغائتها ، وانها كها في إحكام زينتها ، ورغبتها في اثبات ذكائها ، والنسيان مع الماططة ، ومخاوفها الصغيرة التي لا اساس لها ، ودموعها الرخيصة لأقل حادث يعرض لها (٢) . . .

غير ان اروع ما في الرسالة تلك الدعوة الى العناية بضحة الاطفال عامة ، ذكوراً كانوا ام اناثاً ، والى الرفق البالغ في تربيتهم ؛ انه عدو القهر والشدة والتضييق ، وصديق الحلم والوداعة والتشجيع . يدعو الى اقناع الولد والى اثارة الدوافع الشريفة في نفسه . يرى من واجب المربي ان يموّد الولد ، كما تقول الآلة آ . بيريه ، على ان يقرن فكرة اللذة بفكرة العمل ، فيبدو له الخير جيلاً والدين جذاباً ؛ وتقطع الصلة بين الدراسة والخوف والملل (٣) . من واجبه ان يحب الجد الى طفله ، فلا يكرهه على عمل ، ولا يوالي عليه العقوبة ، ولا يشعره الرهبة ؛ بل يدفعه الى العمل بأثارة نخوته وحبه للاستطلاع ورغبته في التفوق وحرصه على المكافأة ؛ فيصل باللين والمحاسنة الى ما يعجز عن الوصول اليه بالبطش والمخاشنة . ان فينيون ليصدر في كل ذلك عن مبدأ عام الا وهو : الجري مع طبيعة الولد وتمهيد الطريق امامها لتنمو وتقوم ما عسى ان يكون فيها من اعوجاج اولاً ، ثم الملازمة بين رغبة الطفل واتجاهه واهدافه وبين ما يجب ان يلتقن من علوم . الطفل في بداية امره خيالي واكثر ما يناسبه حكايات الجن وخرافات الحيوان ؛ فاذا تقدم

(١) الفصول : الاول والثاني والحادي عشر والثاني عشر من الكتاب السابق (٢) الفصلين التاسع والعاشر . (٣) المصدر السابق ، المقدمة ص : 6

به السن شيئاً مالم الى التاريخ واحب ان يترجم سير الابطال وان يشبه بمشاهير الرجال . ثم هو ينفر من المجرّدات ويألس بالمحسوسات ، فدروس الاشياء هي اقرب الدروس الى عقليته واجلبها نفماً له . وكذلك المحاورات فهي توقظ نفسه وتنقلها من عالم الخيالي الى عالم الواقع ، وهي أجدى عليه من السرود الطويلة المملة . ان هذا الكاهن الاديّب ليؤمن بسلامة الفطرة وطيبها ويحبذ المودة الى الطبيعة . انه كما يقول احد النقاد يحمل في نفسه بذور المستقبل ، ويعتد الطريق لجان جاك روسو من بعده (١) . اما مستقبل الطفل فقد رأيت كيف يعيره فينيون الاهمية البالغة حين حدثناك عن رأيه في ثقافة البنات وحرصه على ان تمنى فيهم المعلومات الضرورية لادارة المنزل واسعاد الزوج وتربية البنين ، وعلى ان يجتنب الفنون المثيرة والمعارف النظرية التي لا تمت الى مستقبلهم بصلة . كذلك كان همه في تربية ولي العهد ، فقد كان يقصد دائماً الى الملامة بين الجهد المبذول والهدف المنشود . ومن اجل ذلك كان يرى ان امم ما يجب ان يحيط به ولي العهد هو التاريخ والسياسة وفنون الحرب ومبادئ الأخلاق (٢) .

لملك تسأل الآن : هل وفق فينيون في اداء مهمته التربوية في القصر كما وفق في آرائه ؟ فنجيب بالإيجاب ، وبأن الاجماع منقاد على ان هذا التوفيق تجاوز المأمول . فقد استطاع الكاتب المربي بنظرائه الحصيفة وصبره المعجب ان يخلق من هذا التلميذ الناصر الصعب المراس أميراً مثقفاً مستقيماً النهج متمسكاً بأهداب الواجب ، بل سيداً وديعاً حقيقياً . ولو قدر لهذا السيد ألا يموت في سنه المبكرة ، وان يرقى ذات يوم عرش بلاده ، اذن لمرت فرنسا في عهد من الامن والرفاهية ولتجنبت ويلات حكم بفيض ، هو حكم الملك لويس الخامس عشر (٣) .

• • •

تيلياك (٤) : — ظهر في نيسان (ابريل) ١٦٩٩ الجزء الاول من قصة مجهولة المؤلف ، بعنوان : «تابع» للكتاب الرابع من الأوديسة ، او : محاطرات تيلياك بن ايليس ، فما لبثت الناس ان عرفوا انها من تأليف فينيون ، مطران كبري ، ومؤدب ولي العهد . كانت خصومته مع بوسويه قد اثارت عليه لاول مرة سخط الملك ؛ ثم كان ان أبطّل البابا كتابه «حكم القديسين» ١٦٩٩ ؛ فلما ظهرت تيلياك ، هذه القصة التي تصدي لنقد

L.F.U. 50, Des Granges 168 (٣) L.F.U. 50 (٢) L.T. 338 (١)
• Télémaque (٤)

الوضع السياسي حين ذاك ، فقد فيليون آخر امل له في الخطوة ثانية في البلاط . وقد نحا المؤلف باللائمة على الناشر الذي اختلس النسخة وأذاعها ؛ بيد أنه لم يستطع احد ان يمنع بيعها في الخفاء . ثم ظهرت الاجزاء الأخرى غير حاملة اسم المؤلف ولا اسم الناشر ؛ وتتابعت الطبعات بعدئذ خارج فرنسا ، واستقبلت بحماسة بالغة ، ولا سيما في إنجلترا وهولندا (١) .

كانت تيلياك نقطة البداية ضد حكومة لويس الرابع عشر الذي أبغضه فينيون حقاً : أبغضه منه الرجل المؤمن الذي يكره الحروب لارضاء شهوة السيطرة والتوسع ، وأبغضه منه الرجل النبيل لما انه حط من مكانة النبلاء وقدم عليهم وزراء من الدهماء ، وأبغضه منه الفيلسوف الذي ساءه فقر الشعب وشقاؤه في عهده . لقد حاول فينيون ان يتبرأ من كل ميل الى النقد (٢) : « ألقت هذا الكتاب في وقت كان فيه المليك يغمري بدلائل طيبه وحسن ثقته ؛ فان انا قصدت الى تقديم صور هجائية وقاح فلا كون اجدد الناس للعجيب وابعدم عن الصواب (٣) » ، غير ان هناك دلائل قاطعة ، برغم هذا الانكار ، على ان الرجل كان يكره سياسة الملك ويوحى الى تلميذه ألا يسير على غرار جده ؛ وما من ملك او امير غمز المؤلف جانبه في قصته هذه الا وفيه مشابهة من لويس الكبير ، وخصوصاً الملك « ايدوميني » ، فهو على دكائه اقرب ما يكون الى الملك الشمس (٤) في شغفه بالحروب وميله الى الاثمة والدة (٥) .

ان اهمية هذه القصة السياسية واتجاهها الانتقادي ليتوضحان اذا قرئت بمؤلفات فينيون الاصلاحية الأخرى من امثال : « الرسالة الى لويس الرابع عشر ، او : الرسالة السرية ، ١٦٩٤ » ، وفيها يبين لزوج الملك السيدة دي مانتونون وصديقها السيد بوفيليار ما يمكن ان يراجما فيه الملك ؛ ثم « المقالة عن الحكومة المدنية » ، والتحري عن وجدان ملك ، و « رسالة آب ١٧١٠ الى السيدين شيفروز وبوفيليار » ، تلك الرسالة العنيفة التي كان يود فينيون نفسه لو طوي خبرها عن ولي العهد ؛ واخيراً ما يدعونه « بلوحات شولن (٦) » ، وهي مخطوط لبعض الاصلاحات التي كان يحلم بها الكاهن الاديب (٧) .

• • •

(١) 5 : Tél. L.T. 334 (٢) 100 : Tél. (٣) 50 : L.F.U. (٤) لقب لويس الرابع عشر (٥) 335 : L.T. (٦) Les Tables de Chaulnes (٧)

تيلياك هذه هي قصة تربوية رمى فيها المؤلف الى تهذيب تليذه دوق دي نورجوي
والى استعراض تاريخ اليونان الادبي معه . وايس غريباً ان يستوحى فينيلون موضوعه
هذا من الآداب القديمة ، فقد أحبا وترجم عنها الكثير .

أخذ فينيلون من النشيد الرابع من « الاوديسة » لهومير فكرة الرحلات التي قام
بها « تيلياك » للبحث عن أبيه « ايليس » . بيد ان الشاعر اليوناني يقود بطله الى بلدين
فحسب ، اما فينيلون فقد مدّ من اسباب هذه الرحلات كثيراً ، بحيث أصبحت أشبه
بملحمة نثرية تتضمن آراء سياسية وتربوية قيمة :

خرج تيلياك من وطنه « إيثاك » (١) ، باحثاً عن أبيه ، يقوده ويسدّد خطاه الآلهة
« مينرفا » المستخفية في شخصية الرجل الحكيم « مانتور » . انه لينجو بنفسه من مآزق
وممالك تهدّد حياته وتمتحن فضائله ؛ فتتكمّل شخصيته بمخالطة الناس ، ويتدرب
على حمل السلاح وقيادة الجيوش ، ويطلع على اصول مختلفة من الحكم ويقارن بينها ،
ويعرّج بتجارب عاطفية أليمة ؛ فتهدبه التجارب وتخلقه المهن خلقاً آخر ، حتى اذا عاد الى
وطنه كان ارقى الرجال واحبّ الامراء الى الرعية (٢) .

خرج الرجلان من « إيثاك » وطوّفا في الآفاق ثم هبّت عليها عاصفة الجأت سفينتها
الى جزيرة الآلهة « كاليو » التي احسنت لقاءهما وضيّفتها في احد قصورها الفخمة ،
وسألت تيلياك ان يروي لها ما زار من حواضر وما عرض له من حوادث ، فجعل يروي
لها طرائف الاخبار ، ويحدثها عن شبه جزيرة البيلوبونيز وصقليا : فاعطانا ملكها سفينة
فينيقية لنبحر فيها الى وطننا ، فاعترض طريقنا اسطول مصري فخيّل اليه انامن الفينيقيين
وهم يومئذعدو للمصريين ، فأسرونا ؛ وبذلك اتاحت لنا الفرصة لزيارة مصر ، والاطلاع
على ما فيها من خصب و ثراء وأمن بفضل اميرها الشفوق الماقل ، وقال لي مانتور :
« سعيد هو الشعب الذي يقوده ملك حكيم ! انه لينعم في مجبوحة من العيش سعيداً
محبباً لمن هو مدين له بهنائه . » واذن فأنزلنا : « كذا فلتحكّم يا تيلياك ، ولتحرص على
سعادة رعيتك اذا قدّرت لك الآلهة ان تجلس على عرش ابيك . أحبّ شعبك كما تحب
ابناءك ؛ تذوق حلاوة جهنم لك ؛ اعمل على ألايستطيعوا ابدآ ان يتذوقوا الامن والسرور
من غير ان يتذكروا ان ملكاً برّاً رحباً هو الذي تفهم بهذه الهبات الثمينة . فالملك

Télémaque مادة Laroursse du xxème siècle «١» Ithaque

. L.F.U. 50

الذين لا يفكرون الا في ارباب رعيتهم وسومها الهوان لجلها على الطاعة ما م الا قمة وشؤم على الجنس الانساني . ستخشاهم الرعية كما ارادوا ؛ بيد أنها ستبغضهم ايما بغضاء ؛ وان عليهم أن يخافوا من رعيتهم اكثر مما تخافهم (١) .
والقوا بنا في غياهب السجن اذ افترى علينا احد اعوان الملك وزعم له اننا من الاعداء ؛ فلما تبين له كذبه عزله وأغرمه مالا وسجنه وادانا منه وقال ممتدرا : « آه ! ما أشقى من يكون اعلى من بقية الناس ! انه لا يستطيع في الغالب ان يري الحقيقة بعينيه : فهو محاط بأناس يجربونها عن صاحب الأمر والنهي ؛ كل قد صرف همه الى خداعه : كل قد أخفى مطامعه وراء ظاهر من المصاحبة . يوهمون أنهم يحبون الملك وهم لا يحبون إلا الثراء الذي يمنح : إن جهم من الضالة بحيث أنهم ينافقون له ويحادونه ليحظوا باحسانه » (٢) .

ومن اسف ان هذا الملك الطيب الراشد قد هلك ، وخلفه على الملك رجل بدد المال وقارب الآثام ؛ وقد حدثت يومئذ نفسي فقلت : « ادشأت لي الآلهة يوما ان املك ، فلن انسى قط ، بعد هذه الامثلة السيئة ، ان الملك انما يكون جديرا ان يحكم وان يسعد بما لديه من قوة ، بقدر ما يصني الى العقل . وما اشقى ذلك الرجل الذي سخره القدر ليحقق للناس الامن والرخاء ، فلا يسود هذه الكثرة الكثيرة من الناس الا ليشقيها ويضنيها » (٣) .

فلما اطلق الملك سراح الرجلين ابجرا حتى استويا على شاطئ « صور » ثم ابجرا الى قبرص وكريت التي احبها شعبها وعرض التاج على تيلياك فأبى ونوجه نحو وطنه ؛ غير ان العاصفة الجأتها الى جزيرة الآلهة « كاليسوس » كما قدمنا . وهنا احبته الآلهة وعرضت عليه الزواج وضمنت له الخلود فأبى وهام حباً بوصيفة لها . على ان « مانتور » تجابه من هذه المخاطر كلها وقرأ نحو الوطن . وهنا جارت بها الريح مرة اخرى عن القصد ، فوصلا « سالانت » وهي مدينة ايطالية اتخذها « ايدوميني » عاصمة له . كانت المملكة في حرب وفوضى فهدأ مانتور الامور وخضد شوكة العدو ، ثم وضع للدولة دستورا عادلا ضمنه المؤلف مثله الاعلى في اصول الحكم ، على النحو الذي كان يحلم ان يحققه . لفرسا لو ان تلميذه جلس ذات يوم على العرش : كان يحلم بمملكة يدعمها النبلاء وتعمل

(١) Tél. 18

(٢) Des granges 168 - 170 ' L. T. 334—335 ' L. F. U. 50—51

لسماعة - شعب مجد - من التجار والزراع . ليس في هذه المملكة ابهة وتبذير ، بل ضرائب توزع بالتساوي ، ووظائف يتوصل اليها بالاخلاص والكفاية لا بالشراء ، اما المرابون فلا وجود لهم البتة . ثم ان على الدولة ان تضع قوانين صارمة تحدد فيها من البهارج الكاذبة والتأنيق الوقح المكلاف . وعليها ان تتجنب الحروب ولو ايقنت بالنصر ، لان ثقات الحروب باهظة جداً ، ولان المنتصر ايسر اسعد حظاً بكثير من المنكسر . ومع ان المؤلف يحترم الحكم الملكي ويدعو الى توطيده ، فانه يرى ان « الملك اذا أطلق يده لعمل الخير ينبغي ان يؤخذ فوق يده حالما يريد الشر » ، عليه ان ينحصر كثيره للقوانين ، وان يجعل نصب عينه الخير العام . هذا هو الدستور الذي وضعه مانتور ؛ او بالحري فينيلون « اذكى اذكاء عصر لويس الكبير وأجرام مع الاوهام » ، وهو كما نرى دستور يتضمن اشياء اصلاحية جديدة بالإضافة الى ذلك العهد ، غير انها لا تدعو الى الثورة ابدأً (١) .

ونعود الى تيلياك فنراه يخوض اثناء ذلك بعض الحروب الى جانب « ايدوميني » ، ثم ينزل الى العالم الثاني باحثاً عن ابيه ، ويدخل اللجنة ليرى الملوك المصلحين المسالمين في اجمل قصورها ، اما الملوك المحاربون ففي المحل الثاني . هنالك ينبغي احد اجداده الأعلى بان اياه لا يزال على قيد الحياة ، فيقبل راجعاً الى استاذة ، وينادر الرجلان البلاد بعد ان تمت خطوبة تيلياك على ابنة ايدوميني . وهنا يفرغ المؤلف من افكاره فيسرع بالقارئ الى نهاية القصة ، حيث يكشف مانتور عن حقيقته : انه مينرفا ، آلهة الحكمة ؛ ويعود تيلياك الى وطنه ، ويلتقي اياه ، بعد ان يصني الى آخر نصيحة من استاذة (١) :

« أصغ الي يا ابن ايليس للمرة الاخيرة . ما من حي عنيبت بتعليمه مثلك ؛ فقدتكَ من يدك خلال حوادث الفرق ، وفي مجاهل الأرض ، وخضت معك الممارك الدامية ، وكنت الى جانبك وانت تعاني كل ما يمكن ان يمرض لقلب البشر من آلام . لقد اريتكَ بتجارب حسية قاطعة المثل الصحيحة والزائفة في الحكم . لم تكن اخطاؤك اقل نقماً لك من مصائبك ؛ فمن ذا الذي يستطيع ان يدبر الامور بحكمة اذا هو لم يالم قط ولم يفد من الآلام التي تردى فيها باخطائه ؟

(١) Des granges 168—170, L.T. 334—335, L.F.U. 50—51

ملائت الثرى والبحار كأبيك بمخاطراتك الرهيبة . هيا ، فالت الآن جدير
بان تسير على آثاره . لم يبق لوصولك الى «ايناك» (١) التي يصلها هو الآن الا مسافة سهلة
يسيرة . قاتل* معه ؛ أطعمه كأدنى رعائاه ؛ أعط في ذلك الآخرين قدوة صالحة .
سيزوجك من آتروب وستكون سعيداً معها ، لانك كنت اطلب للحكمة
والفضيلة منك للجمال .

اذا اعتليت العرش ستختر* اجمادك لتجديد العصر الذهبي . استمع الى الناس جميعاً ؛
صدق نقرأ قليلاً منهم ، وحذار ان تركز الى كل ما تهجس به نفسك . حذار ان
تجذع ، ولكن لا تهيب ابدأ ان تصارح الناس بانك قد خدعت .
احب* جماهير الشعب ؛ لا تدخر وسماً لتحظى بهم . الخوف ضروري حين لا
يكون الحب ؛ على انه يجب الا* تشعرهم بالخوف الا آسفاً مغلوباً على امرك ، كما يقدم
الدواء الخطر الحاد* .

انظر من بعيد الى عواقب ما تصنع دائماً ؛ تدارك العقبي الوخيمة ، واعلم ان
الشجاعة الحق* في مواجهة الاخطار واحتقارها اذا اصبحت قدراً مقدوراً . فالرجل
الذي لا يريد ان يراها تموزه الشجاعة للنظر اليها في هدوء ؛ اما الذي يراها جميعاً
ويتجنب كل ما يمكن تجنبه منها ، ويمالج الباقي من غير اضطراب ، فهو وحده طلي
الهمة حكيم .

اخشوشن وابعد عن البهرج والسرف . اعتز* باليساطة . لتكن فضائلك واعمالك
الطيبة زينة شخصك وقصرك ؛ لتكن حرسك الذي يحف* بك ، واتعلم الناس
جميعاً مم* تكون السعادة الحق .

لا يثبن* عنك ابدأ ان الملوك انما يحكمون لخير شعوبهم لا لتوطيد اجمادهم .
ما يفعلوا من خير الا* كان له تأثير في ابد المصور ، وما يفعلوا من شر* الا انما وتكاثر
وأضر* بالناس جيلاً بعد جيل . فلوك السوء هم نقمة وبلاء على مر* المصور .

ضيق* الخلق فاحترز منه : انه عدو* تحمله معك اني ذهبت حتى يوافيك الا* جل ؛
يرافقك في المجالس ويخدعك ان انت أعمرته سمك . انه يضع عليك الفرص الغالية ؛
انه يميل بك الى امور وينفرك من غيرها ميل الاطفال ونفاهم ، بالغاً ما بلغت الخسائر ؛

انه يفصل في اعظم الامور باصغر العقول ؛ به تحبو القرائح وتكبو الشجاعة ويختل توازن المرء ويذهب ريحه ويفسد معدنه ويثقل على من حوله . الا فلتحذر هذا العدو (١) .
أشعر قلبك ، اي تيلياك ، مخافة الآلهة ؛ فخوفهم كنز القلوب الاكبر ؛ به تأتيك الحكمة والمدالة والأمن والمسرّة ، به تعرف اللذائذ الصافية والحرية الصحيحة والخير العميم والمجد الخالص من كل شؤب .

اني مفارقك يا ابن ايليس ؛ غير ان حكمتي لن تتخلّى عنك ما شعرت بانك حاجز عن كل شيء بدونها . آن لك ان تتعلم السير وحدك . انا لم ابتعد عنك في سالات فينيقيا الا لاعودك الحرمان من هذه النعمة ، كما يفصلون الطفل اذا حان قطامه عن ابن امه ليقدّموا اليه غذاء اقوى .

• • •

ما كادت الآلهة تنهي خطابها هذا حتى ارتفعت في الهواء وتنشأها سحاب من لازورد وذهب توارت في احشائه ؛ اما تيلياك فخرّ ساجداً في حسرة ودهشة وذهول ؛ انه ليرفع يديه الى السماء ؛ ثم يذهب الى رفاقه فيوقظهم ، ويسرع في الرحيل ؛ حتى اذا وصل «ايتاك» عثر على ابيه عند احد الرعاة .

• • •

فنه واسلوبه :- كتب فينيليون في رسالته الى الاكاديمية : «انا لا انشد الصعب ولا النادر ولا الغريب فيما اكتب ؛ جمال البسيط المستأنس هو الذي اتذوقه» (٢) .
هذه هي نقطة الارتكاز في فنّ الرجل واسلوبه .
ففي «تيلياك» مثلاً نرى فينيليون لا يطيل التفكير في مخطط الرواية ، وقد يتورط بسبب ذلك في الاطالة والاستطراد والايجاز الخلل .

ثم انه لا يحاول في تصويره الاغراب ، وكثيراً ما يؤدي به التساهل كذلك الى المعجز عن تمثيل الحقيقة او الى تشويهها .
واذا كان فينيليون قد استطاع ان يُبهي في هذه الرواية الاجواء القديمة ، فمن

(١) تذكر ان شقيق الخلق كان اعيب ما في تليد المؤلف اول امره . (٢) 8 Télè.

الحقن انه لم يبذل في ذلك جهداً ولم يسع سعي العالم الباحث . فهو على ما يظهر يسير إلى غايته في سهولة وعدم كلفة . وعلى الجملة فان فينيلون من احسن الامثلة على الكاتب الذي يعفي طبعه ولا يتكلف جهداً فنياً او غير فني .

وما قلناه عن فنه التأليفي نستطيع ان نقوله عن اسلوبه : قالت تشمر لدى قراءته بتلك السهولة الارستوقراطية التي لا تمجد نفسها لتعجب وتطرب ؛ انها سهولة الحديث الطلي ، متأثرة بمذهب الاتباعيين في الایجاز . في كتاباته صور شعرية حلوة ، لا بالقرينة ولا بالمتكلفة . ان انفاًس هومير لتعقب هنا بمطر الخيال وجماله . اما النعم فتوازن ابداعاً والعبارة منسجمة في استواء . هنالك جاذبية على شيء من الرخاوة تسود آثار المرابي الاديب (١) .

. . .

اما بعد ، ففينيلون وجه بانح التعقيد . ان صلته الوثيقة بالماضي والمستقبل معاً . يربطه بالقرن السابع عشر سببان : الايمان ، والاعجاب باليونان والرومان . وفيما عدا ذلك فهو قريب من رجال القرن الثامن عشر ومن جان جاك روسو على الخصوص . وذلك بطرافة فكره ، وباستقلال نظراته وعفويته ، واخيراً بكل ما فيه من غرائز ودوافع . انه فيلسوف يحبه للسلام وبدعوته الى الادارة الحسنة ، وبجريه وراء المعرفة . وان فيه ميلاً الى التفكير السياسي قلما عرفه ادباء مصر المظـمـيم . وهو مرهف الشعور ؛ يفتح حب الانسانية من قرارة نفسه ، ويدفعه الشعور الاجتماعي الى العطف واسداء الجليل : هذا ما اقامت الدليل عليه اعماله في «كامبري» في أمر سني الحرب . انه ليطمح الى تحقيق الامن والرفاهية للشعب والى اعفائه من كل عبء ثقيل . والجديد عنده حقاً انه يؤمن بسلامة الفطرة كما ذكرنا ويدعو الى العودة الى الطبيعة ، على نحو ما فعل روسو من بعده .

غمازج اخرى من سُر فينيلون

الجامعة اللجوج

يامتان كانتا تعيشان معاً في محضنة على أتم ما يكون السلام . كانتا تشقان الهواء

(١) Des granges 171, L.T. 337, Tél. 8—9

باجنحتها التي كانت تبدو اسرعتها جامدة، انها لتسرعان وتمرحان، فنفر احداهما من الأخرى ثم تعود فتشتد في أثرها . فاذا فرغت من لهما نشطتا لجمع الحب من بيادر المزارع او البراري المجاورة ؛ ثم لا تلبثان ان تسرفا على ماء ساقية تدير لترويا ظمأهما به وهو يجري وسط المروج المزهرة ؛ ومن ثم كانتا تعودان ادراجهما لتريا عشيهما في المحضنة البيضاء الكثيرة الثقوب ، فتمضيان الوقت في عشرة حلوة مع رفيقاتهما الوفيات . كان قلبها رقيقين ، وكان ريش رقبتيهما ذا الوان شتى كالوان قوس السحاب . وكنت تسمع صوت هاتين اليا ميتين السعديتين حلواً خفيفاً . ألا ما كان انها حياتهما !

يبدأ أن احدها بدأت تحمل لذات عيشهما الهادي ، واستنواها طمع أهوج ، فاستسلمت لخطط المغامرة . ها هي ذي قد هجرت صديقتها القديمة ، رحلت ، اتجهت نحو الشرق . مرت فوق البحر الابيض المتوسط ، وضربت بجناحها اطباق الهواء ، كسفينة ذات اشعة تخرج عباب البحر . وصلت الاسكندرون ؛ ومنها تابعت طريقها وطوت الارض الى «حلب» . فلما وصلتها بعثت بتجيتها الى حماة تلك المدينة ، وكن عاملات بريد رسميات ، وغبطتهن على سعادتهن . فذاع بينهن في الحال خبر مؤده ان غريبة جاءت تقطع البلاد البعيدة . فسلكنها بين البريدات ؛ وجعلت تحمل كل اسبوع رسائل احد الباشاوات ، مربوطة الى رجلها ؛ كانت تقطع ثمانية وعشرين فرسخاً في اقل من نهار . انها لتزهد بما تحمل من اسرار الدولة ، وانما لتري لحال رفيقتها التي تحيا بغير مجد في اوكر محضتها .

على انها كانت تحمل ذات يوم رسائل الباشا ، وكانت شكوك سيده السلطان بدأت تحوم حوله ؛ فاراد القوم ان يزيحوا النقاب برسائل هذا الباشا عما اذا كان حقاً بينه وبين موظفي ملك الفرس مفاوضات في الخفاء ، فأنفذوا سهماً الى جسم اليا مة المسكينة ، قما سكت بادي الأمر قليلاً بجناح مهبض ، بينما كان دمها يجري . واخيراً سقطت ، وجعلت ظلمات الموت تغشى عينيها ؛ وكانوا عند ذلك يزعمون منها الرسائل ليقرءوها . ثم لفظت آخر انفاسها تحت وطأة الألم ، لاعة طمعا الذي لا تقع فيه ، آسفة على تلك الراحة الرغيدة التي كانت تنعم بها في محضتها ، حيث كان في وسعها ان تعيش مع صديقتها في أمان .

« من الحكايات الخرافية لقينيلون »

الأرنب النظار بالسجاعة

كان أرنب يستحي من جبنه ، فهو ينتهز الفرص ليمود نفسه الشجاعة . فاحياناً كان ينفذ من ثغرة سياج ، بين الملفوف في بستان احد الفلاحين ، ليألف ضوضاء القربة . ويا طالما مرّ بجانب بعض الكلاب فتقتصر على النباح وراءه .

فاذا قفل من غزواته خيّل اليه انه أهيب من «آسيد»^(١) على جليل اعماله . ويقال كذلك انه لم يكن يعود الى مأواه الا حاملاً اوراق الفار ، مكرماً نفسه ، مُشيّداً بمناقبه . كان يتمدّج بتفوّقه على لدائه من الارانب المجاورة ، ويمثّل المخاطر التي خاضها والمخاوف التي بهّمها في نفوس العدى ، والخذائع الحربية التي قام بها ، كضابط مجرّب ، وبمخاصة جراته العظيمة في ميادين القتال . وكأف في كل صباح يحمّد آلهي الوغى : مارس وبيلتون^(٢) على ما متجاء من مواهب وشجاعة يتغلب بها على الاسم ذوات الأذان الطويلة .

قال له الأرنب «جان» ذات يوم وهو يحاوره : «لوددت ان اراك يا صديقي ، اذت وخيلاءك ، وسط سرب من كلاب الصيد . اذن لهرب «هر كول» نفسه على اسوأ حال .» فاجاب فارسنا الشجاع : «انا ! ما كنت لارجع القهقري ولو تألسب علي» كل ما نسلت امة الكلاب .»

ما كاد يفرغ من مقاله حتى سمع «كليتب» مزارع مجاور ينبج في الادغال البعيدة ؛ فارتعدت فرائضه لساعته وركبته الحمى . اما عيناه فكانتا في اضطراب عيني «باريس» عندما ابصر «مينيلاس» يشتد نحوه . لقد تهافت على صخرة منحدره في واد سحيق ، حيث تراءى له انه غارق في ساقية . واذراه الأرنب جان واثباً صاح من جحره : ها هوذا صاعقة الحرب ! ها هوذا هر كول الذي يجب ان يطهر الارض بما فيها من اوغاد ؛ « من الحكايات الخرافية »

واهبات السادة نحو خدمهم

حاولوا ان تنالوا محبة اتباعكم من غير اطراح حشمة : فلا تنبسطوا معهم في حديث ،

(١) بطل اليونان (٢) Bellone , Mars : الاول آله الحرب عند اليونان والآخر عند الرومان .

ولكن لا تخشوا ان تحدثوهم غالباً عن شئونهم في مودة ومن غير تمالي . ليشقوا بانهم لا بد واجدون عندكم النصيح والحدب . لا تؤاخذوهم بشدة ابدأ بما اخطئوا ؛ ولا تدهشوا لذلك ولا تضق صدوركم ما دمت ترجون لهم صلاحاً . أسمعهم صوت العقل في رفق ؛ وتحملوهم لتكونوا في حالة تمكنكم من اقناعهم بهدوء بانكم تخاطبونهم ، من غير أسف ولا نقاد صبر ، طلباً لفائدتهم اكثر مما تخاطبونهم ليقوموا بخدمتكم . ان يكون سهلاً تعويد الاشراف من الشباب هذا الخلق الطيب الوطني ، لان فراغ الصبر وحميلاً الشباب وما لقنوا من فكرة خاطئة عن كرم محنتهم ، كل اولئك يحملهم على النظر الى خدمهم بما يقارب نظرهم الى الخيل : يظنون انهم من غير طينة الخدم ؛ فهو لا لم يخلقوا الا لرفاهية الاسياد . اجهدوا ان تبينوا لهم منافاه هذه المبادئ للاحتشام والمطع على ابناء جلدتهم . اضمحهم ان الناس لم يخلقوا لخدموا ؛ وأن من الضلال ان يمتدوا ان هنالك رجالاً ولدوا ليعينوا الآخرين في كبرياتهم وخمولهم ؛ وأن الخدمة قد مُرعت على ما فيها من مناقضة لمبدأ التساوي ، فيجب ان يخففوا ما استطاعوا من حدتها ؛ وان الاسياد قد اصابوا من حسن التهذيب ما لم يتيسر لخواصهم ، وهم مع ذلك يزخرون بالاطفاء ، فينبغي لهم الا ينظروا العصمة منهم ، وهم الذين فاتهم التعليم ولم تيسر لهم القدوة الصالحة .

« الفصل الثاني عشر من كتاب : تثقيف البنات »

رسالة الى الدوق دي بورجونى

ذكرنا ما كان عليه الدوق دي بورجونى من طيش وزق ، وما آل اليه على يد المرابي العظيم من وداعة وتعقل .

وجه فينيون هذه الرسالة الى تلميذه لئلا جواب وقع تفوه به نحوه ، فكان لها وقع كبير في نفسه ، ولم يلبث ان عاد الى استاذة معتذراً :

لا اعرف يا سيدي ما اذا كنت تذكر ما قلت لي بالأمس : من انك تعرف ما انت وما انا . فمن واجبي ان أعلمك بانك تجهل الأمرين معاً . واذن فأنت تحسب انك اعظم مني ؛ لقد يحدثك بذلك بعض الخدم ولا شك . اما انا فلا أجهل ان اقول لك ، ما دمت تضطرتني الى ذلك ، لاقني اعظم منك . انت تفهم بما فيه الكفاية اني لا أعني هنا الحسب والنسب . لعلك ان تستحق ذلك المفاخر بالطر يخضب أرضه ويتخطى أرض

جاره . الا فلتعلم انك لن تكون اعقل منه إن اردت ان تزهو بمولدك الذي لا يضيف شيئاً الى مناقبك .

لن تستطيع الشك في اني اعظم منك بالعقل والمعرفة . انت لا تعلم الا ما علمتكم ، وما علمتكم لا شيء في جانب ما بقي علي ان اعلمك اياه . اما السلطة فلا تملك منها علي شيئاً ، على حين ان سلطتي عليك عامة كاملة . لقد حدثك بذلك الملك وابوك (١) مرات . ربما خيل اليك اني اعد نفسي جدي سعيد بما آل الي من امر تربيتك . تخل عن هذا الهم كذلك يا سيدي ، فانا لم انهض بهذه المهمة الا استجابة لامر الملك والتمسا لسرور ابيك ، لا لتلك الخطوة الشاقة بان اكون مهذبك . ولتلا محاسنك الشك في ذلك فسأقودك الي جلالتك ، لأتمس منها ان تسمي لك مهذباً آخر ، واني لاتعني له ان تصادف جهوده توفيقاً اكبر من جهودي (٢) .

نصيحة من ماثور الى تيلياك

تذكر ، اي تيلياك ، ان هناك في حكم الشعوب شيئين مضرين لا دواء لهما : سلطة عنيفة ظلم في الملوك ؛ واسراف في المأكل والملبس والمظاهر الفخمة يفسد العادات . اذا أليف الملوك ان يتسكروا للقوانين ويفرضوا مشيئتهم ، وأبو ان يكبحوا اهواءهم فانهم سيقدرون على كل شيء ؛ بيد أنهم بذلك سينقضون دعائم سلطانهم . ذلك بانهم لا يحكمون وفق قاعدة او مبدأ ؛ كل يسابق الى تملقهم ؛ فقدوا شعوبهم ، فلم يبق في حوزتهم إلا عبيدان يتضاءل عددهم كل يوم .

من الذي يصارحهم بالحقيقة ؟ من ذا الذي يضع لهذا السيل حدوداً ؟ الجميع يذعنون ؛ العقلاء يهربون ، يتوارون ، يتحسرون . الثورة الفاجئة الماصفة وحدها هي التي تعيد هذه القوة الى مجراها الطبيعي وتزمرها جانب الاعتدال ؛ وباطالما لم تكفكف من غربتها (٣) فحسب ، بل قوّضت دعائمها وتركها من غير ظهير كذلك . لا شيء يهدد بوقعة ناحسة نكداء مثل الافراط في سوء استغلال السلطة . انها أشبه بقوس بالفت في شدته ، فهو عرضة للانقطاع ان لم يُربخ آخر الامر ؛ ولكن من الذي سيجرؤ على إرخائه ؟

(١) كتبت الرسالة قبل وفاة أبي الدوق ، اي قبل ان يصبح الدوق ، وهو حفيد لويس الرابع

عشر ، ولياً للمهد . (٢) من كتاب 344 - Chevaillier

(٣) لم تكفكف من غربتها : لم تخفف من شدتها

اما الآفة الثانية التي يوشك ألا يكون لها دواء فهي السرف . اذا نجسوا زوت السلطة حدودها كانت على الملوك وبالا ، واذا طغى السرف على امة عاد عليها شرماً ونكالا . يزعم قوم ان السرف حقيق ان ينفذ الفقراء على حساب الاغنياء ، كأن الفقراء ليسوا أهلاً لأن يربحوا معاشهم بطريقة اجدى نفعاً ، فيضاعفون ثمر الأرض ، من دون ان يمدوا الاغنياء في الاسترسال الى الشهوات . لقد درجت الأمة جماء على اعتبار الكاليات ضرورات لا بد منها : انهم في كل يوم يتدعون ضرورات جديدة ، وهم يعجزون عن الاستغناء عن الاشياء التي لم يكن لأحد بها علم قبل ثلاثين عاماً ؛ هذا الاسراف يدعى تارة ذوقاً ، واخرى فناً ، وثالثة آداب الامة . هذه المفسدة التي تجر وراءها مفاسد كثيرة اصبحت كالفضيلة موضع الثناء ؛ وانها لتنتشر عدواها بين الناس من الملوك الى احقر الرعايا .

« تيليماك : الكتاب الثاني عشر »

• • •

بعد ان رحبت الآلهة « كالبسو » بتيليماك واستاذته وأصغت في شوق الى مغامراتها ، وأت دلائل التعب بادية عليها ، وقد اخذ الكرى بمقاد اجفانها ، فجملت تقول :
آن لك ، ايها العزيز تيليماك ، ان تشدوق حلاوة النوم بعد متاعبك الجمّة . لا تخف ان يالك هنا مكروه : فكل شيء على ما يرام . استسلم اذن للانفراح ؛ تمتع بالأمن وبما سيفمرك به الآلهة من هبات . غداً ، عندما يفتح الفجر باصابعه الوردية ابواب المشرق المذهبة ، وتبرز خيل الشمس من « مر » الامواج انتفتح لهيب النهار تطرد به نجوم السماء ، سنمود الى قصة آلامك . ابدأ لم يبلغ ابوك ما بلغت من حكمة وشجاعة : فلا آشيل الظافر بهكتور ، ولا تيزيه المائد من العالم الثاني ، كلا ولا السيد الذي طهر الارض من كل وحش مسيخ ، بكفاء لك في القوة والفضيلة . اتنى ان يجعل النوم العميق ليلتك هذه قصيرة . ولكن واسفاه ؛ ما اكثر ما مستطول ليلتي ؛ ما اشد ما يبطل بي نومك عن رؤيتك ، عن تكليفك ان تعيد لي ما انا به عارفة وان تقص علي ما لا ازال أجهله ؛ هلم يا عزيزي تيليماك صحبة الحكيم ماثور الذي وهبه لك الآلهة ، هلم إلي ذلك الكهف النائي حيث أعد كل شيء لراحتك . ولاني لأسأل

«مورفيه» (١) ان تنزرا اعذب سحرها على اجفانك التي أثقلتها النعاس ، وان تسيل بخاراً أليفاً في جوارحك التعبية ، وان تبعث اليك برؤى خفاف تحوم حولك وتداعب حواسك بضاحك الصور وتدفع عنك كل ما عساه ان يعجل في ايقاظك .

« تيلهاك : الكتاب الرابع »

الحكيم مانور بين لتيلهاك حدود اللذة الصعبة

ما من احد قط يتمنى لك اكثر مني ان تستمتع بالذات ، على ألا تملك عليك قلبك ولا تلين من عزيمتك . انت في حاجة الى لذات تروّح عنك العناء ، وتذوقها وانت تملك نفسك ، لا لذات تملك قيادك وتجرك وراءها جراً . اريد لك لذات هادئة معتدلة لا تذهب بعقلك وتتركك كالبهيمة النافر... استمتع بمباهج الحياة ؛ فما كان للحكمة ان تقسو ولا ان تموت الحقائق ؛ هي التي تمنح اللذات الصحيحة ؛ هي وحدها التي تهذبها وتجعلها لتردها صافية دائمة ؛ انها تعرف كيف تمزج المرح واللعب بالمشاغل الجدية الخطرة ؛ تهيب السرور بالعمل ، وتروّح من العمل بالسرور . وما كان للحكمة ان تستحي من ان تأخذ نصيبها من المسرة اذا وجبت .

« تيلهاك : الكتاب السابع »

رسالة الى لويس الرابع عشر

في الفترة الاخيرة من حكم لويس الرابع عشر توالى اخطاؤه وعم البؤس طبقات الشعب ؛ فبعث فينيون بهذه الرسالة الى السيدة دي مانتونون والدوق دي بوفيليه على الارجسح ، ليتحدثا الى الملك عن آلام الشعب ويمحضناه النصيح في ضرورة الاصلاح . ويشك الباحثون ان تكون الرسالة وجهت مباشرة الى الملك ، على ما فيها من صراحة جارحة :

ان رعيتك التي يجب ان تحبها كأبنائك ، والتي كانت الى اليوم مشغوفة بك ، تموت جوعاً . فحراة الارض تكاد تهمل ، والمدن والارياف يجلو عنها السكان ؛

(١) آلهة الاعلام

والصناعات كلها يفتقر نشاطها وتقصّر عن تغذية المال . كل تجارة الى اضمحلال . فالت
بالتالي قد هدمت نصف القوى الحقيقية في دولتك لشكر وتقر في فتوحات لا طائل
وراءها . كان عليك الاتبتز اموال هذا الشعب الفقير ، بل ان تصدق عليه وتلتص
له الغذاء . اصبحت فرنسا بكاملها مستشفى كبيراً ينقصه الغذاء والدواء وتخيّم عليه
الاحزان . الحكام ذكّوا وتعدت قوام . والنبلاء اصبحت اموالهم كلها مهددة فلا
تؤمن حياتهم الا باوامر الدولة التي تدفع عنهم كيد الدائنين . اذا ضقت ذرعاً بمجموع
الشعب تطالب وتشكو ، فالت الذي جررت على نفسك يا سيدي هذه المتاعب ؛ لان
المملكة كلها قد تخرّبت ، وفي يدك مقاليد الامور جميعاً ، وما من احد يستطيع ان
يعيش الا من هباتك . تلك هي المملكة العامرة تحت مليكها الذي يصفونه لنا على الدوام
بانه نعمة وبركة على الشعب ! الحق انه كذلك لو لم ترزعه نصائح المناقنين .

بل ان الشعب الذي كان يوليك اخلص الحب ويضع فيك كل الثقة بدأ يفقد محبته
وثقته واحترامه كذلك . انتصاراتك وفتوحاتك لا تسره ابدًا ؛ انه ناظم فائض ، الفتنة
تذرّ قرنها في كل مكان . انهم (١) يمتقدون بانك لا تشعر بالامهم ابدًا وبانك لا تحب
غير سلطانك ومجده . يقولون اذا كان الملك على شعبه قلب اب فاما باله لا يرى المجد في
منحه الغذاء والراحة بعد ما عاني من آلام ، وما باله لا يصرف النظر عن رعاية الجبهات
التي تسبب الحرب ؟ اي جواب على هذا يا مولاي ؟ اصبحت الثورات يأخذ بعضها
برقاب بعض ، وكانت محاولة الى عهد بعيد . حتى باريس ، وهي منك جد قريب ،
ليست بمزلة عن هذه الثورات . لقد اضطر الحاكم ان يسامحوا العاصين على وقاحتهم ،
وان يجبروا عليهم بعض المال لتهديتهم : وهكذا فهم يكافئون من يستحق الجزاء !
انت الآن مضطر الى ركوب احد الشرين : ان تذر الفتنة بلا عقاب فتتميتها ، او ان
تذبح بلا رحمة شعباً دفعته الى اليأس بما انتزعت منه ضرائبك في سبيل هذه الحرب
خبره الذي بذل لكسبه عرق جبينه .

على انه عندما يعوزك الخبز ، يعوزك انت المال ، ثم لا تريد ان ترى النهاية السيئة
التي وصلت اليها . لقد حالفك التوفيق على الدوام ، فالت لا تستطيع ان تتصور ان
يفارقك ابدًا . انت تخاف ان تفتح عينيك ، وتخاف ان يفتحها لك الناس ، تخاف

(١) دعتك

ان يثول الامر الى انتقاص شيء من مجدك . هذا المجد الذي يُقسي قلبك لهو اعز مكاناً
في صدرك من العدل ، من راحة البال ، من المحافظة على الشعب الذي تبيده كل يوم
امراض الجوع ، واخيراً من سلامتك الأبدية التي لا تتفق ووثن المجد هذا . تلك هي
يا سيدي الحال التي انت عليها (١) .



(١) من كتاب Chevaillier 345-347 - يجدر بالفارئ الكريم ان يقارن بين رسالة
بوسويه التي وجهها الى لويس الرابع عشر عام ١٦٧٥ يمرض عليه بأسلوبه الرفيق آلام
الشعب ويرسم له الحطة الناجمة ، ورسالة فينيون هذه التي يمرض له فيها الحقائق بشجاعة
وقساوة . لقد كتب فينيون رسالته هذه في اواخر اعوام الملك . ولا شك ان الفرق بين
تاريخ الرسالتين يوضح الاختلاف في اللهجتين ، فقد ساءت الحال كثيراً في المدة الاخيرة
من عهد هذا الملك .

سان سيمون SAINT SIMON

١٦٧٥ - ١٧٥٥

عاصر هذا الاديب لويس الرابع عشر اربعين عاماً وعاش بعده اربعين عاماً ؛ وخلّد في مذكراته ألواناً من الحياة في القرن العظيم . ان الذي يقرأ سيرة هذا الدوق المزهو بأصله ، الحريص على حقوقه الطبقية وافكاره الاقطاعية ، ليمجّب من انه كان في الوقت نفسه معاصراً لرسائل الحرية : فولتير ورستو ومونتسكيو ؛ فان نحن سلكناه في ادباء القرن السابع عشر فلاّنه عاش نصف عمره في هذا القرن ، ولأنه كان صورة حيّة عنه ، ولأنه أرصد إنتاجه لتخليده .

ولد لويس دي روفروي ، دوق دي سان سيمون عام ١٦٧٥ في فرساي ؛ من أب طاعن في الشيخوخة كان مقرّباً الى لويس الثالث عشر ؛ فورث عنه حبه للملك الراحل « ملك النبلاء » ومقتته للويس الكبير « ملك العمال » الذي انتقص من مكانة النبلاء واختار عليهم جماعة من الدماء وثق بهم واستوزرهم . ولما بلغ الدوق السادسة عشرة انتظم في الجيش وخاض بعض الحروب ؛ ثم تزوّج ١٦٩٥ ، وفي ١٧٠٢ لم يكن بعد قد جاوز رتبة الكولونيل ، فساء إبطاء الرتب عليه واستقال (١) .

انه يعيش الآن في القصر ؛ بيد أنه لم يكن يحب الملك كما ذكرنا ؛ ولم يكن الملك يحبه كذلك ، لأنه تقمّ منه استقالته وكبريائه وتعلّقه بامتيازات لقبه ، كما انه كان يحسّ منه النظر الناقد والاستعداد للتأمر . غير ان مقرّ امثاله من كبار النبلاء هو القصر ، فهو يقيم فيه ، لينحاز الى فريق الساخطين . انه ليمقد الآمال الجسام على صديقه ولي العهد دوق دي بورجونّي ؛ وإن هذه الآمال لتنهار بموت هذا الامير ، كما انهارت بذلك آمال فينيلون . ثم يموت العاهل العظيم ويثول الحكم الى صديق حميم هو الوصي الدوق دورليان ، فتتجدّد الحظوة لأديبنا وتحميا الآمال ، اذ يسمى عضواً في مجلس الوصاية . غير أنه لا يلعب الدور الذي كان منتظراً منه . هذا الرجل الماضي العزيمة في صغيرات الامور لم يخلق فيما يظهر للمضائيم ؛ لقد ترك منصبه

(١) L.T. 372-373 .



سان یمون

هذا ليسفر لبلاده عند عاهل الاسبان سفارة كل مهمتها ان يخطف ابنة هذا العاهل على لويس الخامس عشر ؛ وبعد قليل يتوقى الوصي ويعتزل المترجم في منزله بباريس حيناً وفي قصره الريفي حيناً آخر ، حيث يفقد زوجته الحبيبة وابناء الاعزاء وهم في مستقبل العمر ؛ فيعمد الى مذكراته يتسلى بها عن همومه حتى يدركه الاجل ١٧٥٥ (١) .

• • •

اظهر ما في شخصية هذا الاديب : حرارة الطبع . انه ليندفع في صداقانه الى ابعد الحدود . هذا رجل يحظى باعجابه فلا يقنع من صداقته بغير صك الوفاء ؛ ويرضى عن ولي العهد ، الدوق دي بورجوني فيرفمه على ذوي التيجان وينظمه في عداد الابطال ؛ اما الاختيار من الناس فقد كان يألس بهم ويستمرسل اليهم ويحظى باحترامهم ، كما كان يأنف من المتأدبين والمتأففين ويدغمهم بسخريته . انه ليتعشق الفضائل ويبلغ في سلوكه وفي محاسبة نفسه مبلغ الموهوسين . وهو ، على قوة اعتقاده بمذهبه الكاثوليكي وورعه ، ينفر من تمصّب الملك وظلمه لرعيته من البروكستان والجانسينيين ، غير انه لا يسمو الى احترام الضمير الانساني المطلق . انه في سهولة تأثره وتوقّر مشاعره قريب من المرأة . لا لشيء ادعى الى العطف من حبه لزوجته : فقد تحدّث في وصيته ، بعد احد عشر عاماً من وفاتها عن « تلك الوحدة الروحية الكاملة ، واصرّ على ان يشدّ نعضاها باحكام بحيث يتعمّدت فصل احدهما عن الآخر بغير كسر الاثنين معاً ؛ »

والرجل في عداواته اشد اندفاعاً وأضرى غلباً ، بل أقرب الى الهذيان : أصغ اليه يستشيط وتغلي اواذيه اذ يرى الملك « غريباً في موّحل السيدة اسكارون ، في حمائها (٢) ، في دمنها (٣) . » والسيدة هذه هي ارملة الشاعر اسكارون ، وقد تزوجها الملك سرّاً ، باسم « مدام دي مانترون » . وأصغ اليه يسلق بحدّ لسانه احد الدوقات ويكيّل له أوابد التهم . ولا سيما سخطه على الدوق دي نوّاي : « انا لا اخفي ان اجمل ايام حياتي وألذّها هو يوم يتاح لي ان اسحق هذا الرجل وان اسير برجلي على بطنه . » انه الى ذلك عدو الوزراء والقواد العظام ، لا لذب اقترفوه ولا لأذية نالوه بها ، بل لانهم ارتفعوا من غمار الناس الى الوزارة والقيادة . ثم هو لا يعني من بنفسائه رجال البرلمان والحكام والناهبين من رجال المال ، لانهم يراحمون النبلاء من حيث ينبغي

(١) Des Granges 159 L.F.U. T : 2 P : 51—52 L.T. 372—374

(٢) الحمأة : الطين الاسود المتّين (٣) الدمنة : المزلة .

ان يكونوا تبعاً لهم (١) . لم يكن للرجل ذلك القلب الكبير الذي لا يضيق بالناس ويستبشر بما يرى عليهم من يمنٍ واقبال . وله في حديث الاصلاح آراء كثيرة كيفما قلبتها وجدها تقول آخر الامر الى تقديم طائفة النبلاء والحد من حظوة الطبقات الأخرى !

• • •

«مذكراته» : - بدأ سان سيمون جمع مذكراته وهو في التاسعة عشرة من عمره (١٦٩٤) . منذ ذلك التاريخ تعشق كتابة هذه المذكرات واصبح في حاجة ماسة « الى هذا النوع من الغذاء الذي لا يسهه بدونه الا ان يصير الى ذبول » ، وقد بدأها بحوادث عام ١٦٩١ وختمها بحوادث ١٧٢٣ ، وهو تاريخ وفاة الوصي . والمذكرات مقدمة أوضح فيها رغبته بالنفاذ الى البواعث الخفية للاعمال ، وانه لم يفسح المجال كثيراً للحوادث والاشخاص ، ليتوقّر على ازاحة النقاب عن الدوافع النفسية التي كانت تعمل وراء الستار . ولها كذلك خاتمة أكد فيها توخي الصدق ، لا الحياء ، لان هذا امر « يستحيل على رجل يتحدث بما رأى وما صنع » ، ثم يمتنر عن شواهد الإهمال في أسلوبه بقوله : « احسست بهذه الميوب ، ولم يكن في ميسوري ان اتجنبها وانا أسير المادة على الدوام وقليل الالتفات الى طريقة عرضها إلا اذا توقف على ذلك ايضاحها . »
والحق ان سان سيمون لم يغفل مصدرها يمكن ان يقفه على مواطن الامور : كان يسأل بالحاف وبغير انقطاع الوزراء والقادة والنساء والاطباء والخدم ... وكان لا يزهّد في تنف الاخبار بله السرور الملوثة . بيد انه لم يكن يعرف كيف تنقد هذه الاخبار وتحقق ، وان شئت قلت انه لا يجب ذلك ولا يرتضيه . لم يكن له روح العالم واسلوبه . انه ليتقبل كل ما يقع من نفسه موقفاً حسناً ، فهو في ادبه اسير الاهواء الجامحة التي كانت تسير به في طرائق الحب والكراهية . هذه المذكرات ينقصها الدقة وتكتظ بالاخطاء والاكاذيب ، الاكاذيب المفروضة التي يترفع عنها كرام الناس . فلتنفض ايدينا اذا بما فيها من حقائق تاريخية كان بالامكان ان نأخذها من رجل وقف على منبع الحوادث واستقى منها ؛ ولنصرف النظر كذلك عن الحقائق الاخلاقية فيها ، لان الهوى يتحكم فيها ويعصف بها في كل مهب ، ولتكتف بما فيها من الحقائق التصويرية الفريدة الأخاذة . ان سان سيمون على قصر نظره وضيق مضطربه فنان لا يشق له غبار . انه عاجز عن ان يفلسف الامور ويستخلص المعبر ؛ ولكن له عينين حادتين تحيطان ببجيلة الشيء

(١) L.T. 374, L.F.U. 52-53, Mémoires 7

ودقائقه ، ونفاذاً الى اعماق النفس ومقدرة على استجلاء حقائقها ، وذاكرة عجيبة تستحضر المناظر بأشكالها والوانها ، وقدرة على الملاحظة لا تقلت منها نبذة ولا حركة . انه اديب مصور ذو مزاج خاص . انه اعصاب تهيجها الالهواء ونفس لا تنفك في ثورة وغليان . ان عوامل النعمة في نفسه لتجيد بصره وتذكى قوة ملاحظته . بهذا عهد سان سيمون اكبر اديب صور الحياة في فرساي على عهد لويس الكبير ، مع انك لا تقبله ان الى آرائه وتكاد تفيد له في كل صحيفة خبراً ! فما كان في مذكراته من حوادث وافكار فهو في النساب على ضلال ، وما كان فيها من مناظر وصور فهو دائماً صحيح . لقد صور القصور الملكية بريشة فنان تذوق آياتها بفهم وعمق . اما الاناسي^(١) فله فيهم صور لا تبلى جذتها على الزمان . فمذكراته معرض الرسوم الانسانية المتنوعة المتحركة الناطقة . كان يتحدث الطبيعة في تصاويره ، على نحو ما فعل لافونتين ولوساج ؛ غير انه لم ير حاجة مثلها الى الرمز والتلميح ، بل وضع تحت كل صورة اسمها . انك لتقرأ هذه المذكرات فتحسب انك ترى عينك هؤلاء المعاصرين من رجال القصر ، من الملك الى الامراء الى الوزراء الى النساء الى الاطباء الى الحجاب ؛ تراهم فرادى ومجتمعين ، فلم يسراع الرجل في تصوير الجماعات بأقل منه في تصوير الافراد . هذه كلمة تستحضر لك وجه « هارلي » مطران باريس : « بوجه المعيني » ، اودوق اورليان « الأميرة حق على كرسيها المثقوب » ، او « ريون » « ذلك الغلام الضخم القصير المطهم^(١) » الشاحب الذي يشبه الدَّمَل . « وهذان خيطان او ثلاثة خطوط تحي في خيالك صورة لن تفساها ما حييت : « مخلوقة كبيرة نحيفة صفراء ، تضحك في بلاهة ، وتكشف عن اسنان طويلة بشمة ، مغالية في ورعها ، معقدة في مسحتها ، لا ينقصها غير عصا لتكون سباحرة كاملة » : تلك هي السيدة دي مولشيفروي . وهاك صورة المشيرة دي فيلروي : « بالغة الصفر ، عديمة العنق ، الى ضخامة من التنافر بحيث تكاد تمنعها من الحركة ؛ اما ذراعها فاعلظ من فخذين عاديين ، فتتهي كل منهما بقبضة صغيرة وبيد دقيقة ظريفة ، كأجل يد في الدنيا . واما الوجه فلا يختلف عن وجه بغاء سمينة بعينين جاحظتين لا تريان شيئاً . انها تمشي كذلك كالبيغاء . »

واحياناً نرى سان سيمون اشبه بأولئك المصورين الذين يحرصون على ان يأخذوا للشخص اوضاعاً مختلفة ، ليسجلوا مختلف المعاني التعبيرية في وجهه وهيأته ، وليخلصوا

(١) المنتخ الوجـه .

من ذلك الى شخصيته والكشف عن طويته ؛ فتراه يعاود تصوير الوزير دي بوا والاديب فينيون والملك لويس الرابع عشر على الخصوص ، فهو حاضر في مذكراته على الدوام ، نبيلاً وشيقاً دقيقاً رفيع التهذيب ، مشغولاً بالمجد والمظمة ، ولكنه صغير العقل والقلب ، متعلق بالجزئيات مهمل للكليات ، متكتم الى درجة المكر ، في انانية تحمل على الابتسام حيناً وعلى القسمة حيناً آخر (١) .

نموذجان من نشره

لويس الرابع عشر والصراف

لم تكن الحاجة الى المال لتدفع النبلاء وحدهم الى تملق رجال المال من الشعب ؛ فسخرى في القطعة التالية من مذكرات سان سيمون ان الملك نفسه كان يضطر احياناً الى سلوك هذه الطريق للحصول على بعض القروض . اما النزهة الملكية الى « مارلي » التي يتحدث المؤلف عنها فقد كانت في السادس من شهر مايس ١٧٠٨ ، في وقت كانت فيه خزينة الدولة في عجز كبير بسبب الحروب المتوالية التي خاضتها فرنسا ؛ خرج الملك ماشياً في الساعة الخامسة ومرت امام السراقات من جهة « مارلي » . وخرج « برجيك » (٢) من سراقة « شاماتار » (٣) ، ليسير في ركابه . ثم توقف الملك عند الباب التالي ، حيث كان « ديماريه » (٤) ، الذي تقدم مع الصراف الشهير « صاموئيل برنارد » ، وكان قد دعاه للعداء والعمل معه . انه أغنى أغنياء أوروبا وله أضخم وأضخم تجارة ؛ كان يشعر بقوته ويطمح الى ما يناسبها من مكانة ؛ وكان أمروا المالية يشعرون بحاجتهم اليه فيعاملونه باكرام واحترام بالغين . قال الملك لديماريه انه جد « مرتاح لرؤيته مع السيد برنارد ، ثم ما لبث ان خاطب هذا قائلاً : « لم يسبق لك ان رأيت مارلي . تعال تمرق عليها في هذه النزهة التي اقوم بها ، وسأردك بمدئ الى ديماريه . » فسار برنارد وراءه ، ولم يكن الملك طول هذه النزهة يتحدث إلا الى برجيك وإليه على حد سواء ، وقد طاف به كل مكان ، وأطلعه على ما هنالك بلطفه وحسن إيناسه الذين كان يحيد اظهارها عندما يريد تحقيق فكرة ما .

(١) اعتمدنا في دراسة هذه المذكرات على : L.T. 376 ، L.F.U. 53 ، المذكرات نفسها ، تراجم بعض الاسماء من Larousse du xxème siècle (٢) الكونت دي برجيك ، من بطاقة وزير الحرب (٣) وزير الحرب يومئذ (٤) وزير المال .

عجبت — ولم أكن وحدي في ذلك — لهذا النوع من مهانة الملك الضنين عادة بكلماته ، امام رجل من طراز برنارد . على اتي سرعان ما تبينت السبب ، وعجبت حينئذ بما يضطر اليه الملوك العظام احياناً . لقد عجز ديماريه عن الاحتيال للمال . انه اني حاجة الى كل شيء وقد نفذت لديه كل ذخيرة . كان يقرع الأبواب في باريس ؛ لقد طالما نكث عهوده المختلفة وأخل بوعوده الصريحة ، حتى لم يجد امامه إلا ابواباً موصدة ومعادير . كان برنارد ، كغيره ، لا يريد ان يسلف الدولة شيئاً ، فقد كانت مدينة له بالكثير . عتباً بين له ديماريه لحالف الحاجة وضخامة الربح الذي يجنيه من الملك ، فقد بقي برنارد ثابتاً لا يتزعزع . هاهما الملك والوزير في حيرة قاسية من امرهما . وقال ديماريه للملك إنه نظر في الامور جيداً فلم يجد غير برنارد من يستطيع ان يخرج منه من مأزقه ، لأنه بما لا شك فيه انه يملك اكبر رؤوس الاموال ، ولذلك ثأ عليها إلا ان يتغلبا على ارادته واصرارهم اللذين لم يخل من توتش في اظهارهما ؛ وقال انه رجل مفتون بزهوه وجدير ان يفتح كنيسته اذا تنازل الملك فلاطفه . وكان الملك في حاجة ماسة فوافق على ذلك ؛ واراد ديماريه ان يحاول التماس هذه النجدة من غير تبدل ولا تعرض لرفض فاقترح الحيلة التي ذكرتها لك . لقد خدع بها برنارد ؛ وعاد من زهرة الملك الى سراق ديماريه وهو جد مسرور ، وقال له من غير تلبث ولا تمهيد انه يفضل ان يتعرض للخراب على ان يترك في القلق أميراً غمره بلطفه ، فهو شاكر له في حماسة واندفاع . لقد استغل ديماريه ذلك الظرف واستفاد منه اكثر مما انتوي (١) .

فينيلاون في كمبري

هذا الحبش كان رجلاً كبيراً نحيفاً حسن الهندام شاحب الوجه ، ذا أنف كبير وعينين يتدفق منها نار وذكاه كالسيل ، ووجه لم أر له شيئاً ولا يمتحي من الذاكرة ، ولو لم تقع العين سوى مرة واحدة عليه ، يضم شتى المعاني ولا تقنافر فيه الاضداد ؛ ففيه الوفاق والركة ، والجد والدعابة ؛ تتلمس فيه رجل العلم ورجل الدين ورجل الوجهة والنبل ؛ يطغو على ذلك كله ، بل على جماع شخصيته ، دهاء وفطنة وحشمة وفيض من نبل . ان صرف النظر عن تأمله امر غير يسير . كل صوره معبرة ، ولكنها عاجزة عن ابراز الانسجام الدقيق الذي يأسرك به الاصل ، واللطافة في كل صفة

Chevaillier: 323 — 325 (١)

من اوصاف هذا الوجه . اما عاداته وحرركاته فتألف على النسبة نفسها ، في ممسحة
تفيض على الآخرين ، وهيئة وذوق سليم لا يتوصل المرء اليهما الا بمخالطة كرام الناس
والاحتكاك بالمجتمع الكبير ؛ أمور تظهر من تلقاء نفسها في احاديثه المليغة المرسل المذبة
المزهره ؛ ثم أدب قاتن ، بيد أنه نبيل يقدر لكل انساناً قدراً ، وبلاغة سهلة أنقية
مستحبة ، يعبر بها في جلاء ووضاءة عن أعقد الاشياء وأصعبها ؛ هذا الى انه رجل
يأبى كل الاء ان يبدي من الذكاء اكثر مما لدى الذين يخاطبهم ، وينزل الى متناول كل
منهم من غير ان يشعروا ، ويدخل الى قلبهم الطمأنينة والسرور ، بحيث لا يستطيعون
مفارقتة او مقاومته او الامتناع عن السعي اليه . هذه الموهبة النادرة التي أوتيا في أعلى
درجاتها هي التي ربطت به اصدقاءه ربطاً وثيقاً طول حياته ، برغم زوال حظوته ، وهي
التي كانت تجمع شتاتهم ليتبادلوا الحديث عنه ، والاسف عليه ، والتعلق
به على نحو ما يفعل اليهود بمدينة القدس ، والتلف لمودته ، والامل فيه كما ينتظر هذا
الشعب الشقي محيي المسيح في تهف وشوق . بهذا السلطان النبوي الذي كان له على
مريديه اعتاد نوعاً من السيطرة الكاملة ، على اطفالها وبناتها . من اجل ذلك فانه ما
كان ليتحمل طويلاً من ممارضه لو قد ر له ان يعود الى القصر ويدخل مجلس الدولة
الذي كان بغيته الكبرى .

فلما السحب الى اسقيته أخذ يعيش في ورع الكاهن واجتهاده ، مع فن الرجل
الذي لم يزه في شيء وأبته وحرصه على تألف الناس أجمعين . أبداً لم يذم أحد في
الولوع بنيل الاعجاب ، من الخدم والسادة على حد سواء ، ولم يكن في مثل جده
ومثابرة وعموم نظراته ومقدرته على تحقيق الأغراض . وكالت مدينة كمبري قبله الزوار
وطريق السفار ، فلم يكن احد يبرعه في التهذيب ونفاذ البصيرة ولا في البشاشة
والظرف اللذين يستقبل بهما الناس . كانوا يتحامونه في السنوات الأولى ، ولم يكن هو
ليجري وراء أحد ؛ ثم قرب اليه الناس حلاوة معشره وكرم شمائله . ومن حسن حظ
هذه القلة من معارفه أن الكثيرين ممن ابدع الخوف عنه ولكنهم أحبوا ان يبدروا
عنده بذورهم ليحسوا ثمرها فيما بعد ، كانوا يفتنمون فرصة زيارته مقتبطين . كان الناس
يبادرون اليه بين معجب وطامع . وكان قصر الكاهن يعج بالقاصدين كلما لم نجم تلميذه
الدوق دي بورجوني ؛ ثم ما لبث ان اصبح قوة فعالة لما آلت ولاية العهد الى الدوق .
فالديد من الناس الذين استقبلهم او أنزلهم في ضيافته لدن مرورهم بكمبري ، والعناية

التي بذلها للمرضى والجرحى الذين جيء بهم اليها في شتى المناسبات ، كل هذا مكثن له في قلوب رعاياه . كان يواصل عيادة المرضى في المصححات ، يقظان للصغير والكبير ، وكثيراً ما كان يؤوي لديه عدداً منهم بضعة أشهر حتى يتأثلوا نحو العافية ، وهو في ذلك حريص على سلامة نفوسهم ، مزود بتلك المعرفة للناس التي تستطيع ان تكسب ودم وتشرهم بالحاجة اليها ؛ ولم يكن يرى غضاضة في زيارة أحقر المصححات اذا استزاروه ، وكان يتوفر على العناية بهم كما لو لم يكن له شاغل غيرهم ؛ هذا من دون ان يغفل مواساة اجسامهم : فالترق والأغذية وتفريج الكروب والادوية غالباً كانت تخرج من عنده بكثرة ، وهذا على غزارته في اعتناء وانتظام بالعين . وكان يهيمى الاجتماعات للاستشارات الطبية الدقيقة . فلعلك لا تعجب بعد هذا كله اذا علمت انه كان معبود رجال الحرب ، وان اسمه يدوي حتى في أرجاء البلاط (١) .



لا برويار LA BRUYÈRE

لما ظهر كتاب « الطبائع » ، عام ١٦٨٨ ، كان القرن العظيم يهدف الى (١) ما دعونه « بالدور الثالث » . لقد فرغ الادباء الذين تألقوا في سمائه من كتابة آثارهم . ان اكثرهم لا يزال حياً ، بيد أنهم الآن يستريحون . ثم التمت النجم فينيون ولا برويار وسان سيمون ، فأكمل هؤلاء النواحي بنفائس اصباغهم تلك اللوحة الادبية الرائعة (٢)؛ وأتموا بطريق انعامهم تلك المعزوفة الفنية الفريدة . وما كان لأحد ان يضيف الى تلك اللوحة ولا الى هذه المعزوفة شيئاً إلا أن يكون بارع الريشة رائع النفس .

• • •

حياة « لا برويار » مؤلف « الطبائع والصور » (٣) ، يكتنفها غموض كبير . ولد في باريس ١٦٤٥ . وكان أبوه مأمور الواردات في العاصمة ، وكان معسراً يحد مشقة كبيرة في السعي على اولاده الثمانية ؛ ومعنى ذلك ان كاتبنا لشأ قسيراً . وفي عام ١٦٦٦ فاز لا برويار باجازة الحقوق من جامعة « اورليان » ، ولكنه لم يرفع قط فيما يظهر ؛ بل اشترى منصباً في مديرية المال بمدينة « كان » ، بهبة أوصى بها اليه احد اقربائه وعاش منه زمناً ، من دون ان يضطر الى مفارقة باريس والقيام فعلاً بأعباء منصبه . وفي اثناء ذلك كان الرجل يقسم وقته بين المطالعة والنزهة ودور التمثيل ، كما كان يتردد الى الكنيسة ليصغي الى روايات الخطب ؛ حيث التقى الاديب العظيم بوسويه ، وتوثقت بينهما الصداقة ؛ فأدخله في خدمة الامير كوندي صريباً لحيفه « دوق دي بوربون » . وكان لا برويار حينئذ في الاربعين من عمره . وبعد عامين فرغ من عمله ؛ غير انه لم يبرح القصر ، بل انضم فيه الى حاشية الأمير ، بعد ان نهض بعمله الذي لم يشعر ، كما لم يشعر قبله جهد بوسويه نفسه ، خير نهوض ، واستحق بذلك رضى الاديب الكاهن ورضى الأسرة . أما إن كوندي وابناء لقوم غلاظ جفاة ؛ ان الحياة معهم لراعبة مبتسرة . كان لكوندي هذا وجه كواسر الطير ونفس لصوص الاقطاع ، الى ضيق خلق وضراوة يفرق منها

(١) مَدَفَّ الى الشيء : قارب (٢) Portraits lit. 389-390

(٤) Caractères et Portraits



لاہور و پار

سكل من حوله . لم يكن يجمل كيف يكون الالس وحلاوة المشر اذا اراد ، ولكن ما اقل ما كان يريد ! اما ابنه ، دوق انجين ، فهو في الحق « بليّة خدمه وهولهم » ؛ واما التلميذ الحفيد فكان ، كما يقول سان سيمون في مذكراته ، جامعاً بادي الشر ، بل وحشاً ضارياً قريباً من « اولئك الحيوانات التي لم تخلق الا لتفترس . . . » ، وغني عن البيان ان لا برويار لم يكن سميذاً في هذا الوسط الذي كان عليه ان ينتبه فيه ويحتاط لنفسه ابدًا ؛ وآية ذلك تلك المرارة المعتمة التي بثها بين صفحات كتابه . ومع ذلك فقد عاش هناك عشر سنوات ، الى ايام قريب من وفاته ؛ لم يكن في ميسوره ان يتخلّى عن حقّ تجاربه هذا . كل امر ذي خطر في فرنسا كان يمرّ على فيلسوفنا الاديّب المصور في ذلك القصر ؛ ولولا حظه السعيد الذي اتاح له ان يخبر الناس ويطّلع على كبريات الحوادث عن كثب لما ألتف لا برويار كتابه ولا شك .

قصد لا برويار ذات يوم الكتي « ميشاليه » واطلعه على مخطوط من تأليفه وقال له : « أتريد ان تتولى امر هذا الكتاب ؟ لا اعرف ما عساك ان تفيد منه ؛ ولكن اذا كتب له النجاح فسيكون ربحه لصديقي الصغيرة . » يريد ابنة الكتي . اما المخطوط فهو كتاب « الطبائع لتيوفرس^(١) » ، مترجمة عن اليونانية ، مع طبائع هذا القرن وعاداته . « قبل الرجل ذلك العرض وكوفي عليه خير مكافأة » ، قهياً للآنسة الصغيرة مهرٌ حسن من ارباح هذا الكتاب التي تخلى لها اديبنا الطيب عنها ؛ اذ نفذت الطباعات الثلاث الاولى في سنة واحدة ، وتوالت بعدها ست اخرى في صبع سنوات ، كان المؤلف اثناءها لا يني يهذب كتابه ويزيد عليه حتى بلغ ثلاثة امثال حجمه الاول^(٢) ؛ اما القسم المترجم فقد لمس لا برويار ان الجمهور لا يحفله كثيراً فحذفه وسمى الكتاب « طبائع وصوراً » . وفي عام ١٦٩٣ انتخب لا برويار عضواً في المجمع العلمي ، واعتبر انتخابه فوزاً لانصار القديم . وفي عام ١٦٩٦ كان يُعدّ كتابه للطبعة التاسعة فوافاه الأجل في فرساي عن واحد وخمسين ربيعاً^(٣) .

• • •

(١) فيلسوف يوناني عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ؛ وترك مجموعة من ثلاثين «صورة او طبيعة» ، فنقلها لا برويار الى الفرنسية ونشرها في صدر كتابه ؛ ثم بدا له فحذفها من الطباعات الاخيرة .

(٢) ارتفع عدد القطع التي ألفها لا برويار من (٤٢٠) الى (١١٣٠) (٣) اخذنا ما يتعلق بحياة هذا الاديّب من : Des Granges 145—146 ، ومن : L.T. 325—326

ومن : L.F.U. Tome 2 (45—46) ، ومن : Les Contemporains: 296—297 ، ومن : مقدمة كتابه .

عاش لارويار حياة عزب وادع يجب العزلة ويفضل قراءة الكتب على عشرة الناس .
ويلهو بمتع العقل عن حسرة الفشل . هكذا امضى في باريس الشطر الاكبر من حياته .
فكره حرّ يسمو على الاوهام ، ينتقد ولكن لا يثور ؛ ونفس طامحة ، تشعر بفضله
وتأسف لحرمانها ، ولكنها لا تعمل شيئاً لتحقيق آمالها ، أنفة من الوسائل الدنيئة
التي يمكن بها الوصول الى كل شيء . ثم يتدخل بوسويه فيخرجه من عزلته ويلقي به في
احضان العالم المضطرب السادر في غوايته وضراوته وإباطيله ، في قصور السادة
الاشراف . لا يسكن لارويار الى هذا الوسط الجديد ؛ بيد أنه يبقى فيه على مضض ،
مقتوئاً بهذا المجتمع النابض بالحياة ، مشغولاً بتلك الصور الآدمية المتحركة ، يرقبها في
روية ويسجلها في آتاق ، ويضيف اليها افكاره عن المجتمع والانسان ؛ ويتحمل في
سبيل فنه صلف « ابناء الآلهة » ونذالة بطالتهم ، ويألم من ظلم الهيئة الاجتماعية وغفلتها
عن النابهين امثاله ؛ ذلك هو جرح لارويار الذي لا يندمل ، ومنبع جزئه الخفي وحسرتة
ولشاؤمه الذي تستشفه في كتابه ، ولا سيما فصل : الكفاية الشخصية . على انه كان
يحرص على إخفاء حسرتة وغممه ، فلا يبيدهما في حديثه ولا نلمحهما في غير كتابه ؛ وعلى
انا نقيس الى جانب ذلك ، في سيرته وكتابه نفساً كريمة رقيقة الحاشية تأفف من
الصغار وترفع عن الضغائن وتألم لما يحلّ بالانسانية من احزان (١) . يقول سان
سيمون : « انه رجل نبيل جداً حسن المعشر ، بسيط ، غير متعالم ، في منتهى التجرد
والزاهة (١) . »

• • •

تتضمن « الطبائع والصور » ستة عشر فصلاً : ١ - في الآثار العقلية : وفيه
يسلط لارويار مذهبه ويناصر القدامى ؛ غير أنه يعجب بكورني وراسين ومولير
ولافونتين . . . وهو يوجه اللوم الى انصار الحديث ويشبههم بأولئك الاطفال الذين
يوسعون مرضعتهم ضرباً بعدما تغذوا وتقوا بلبنها . ٢ - في الكفاية الشخصية :
وفيه يأسف من ان المجتمع لا يوقّر غير النبلاء وذوي الثراء ؛ ثم يعرف الفضل والكفاية
الصحيحين ، وهما مع ذلك لا يصلان آخر الامر الى اكثر مما وصل اليه بليديغي اونيل .
٣ - في النساء : انهن كواذب طائشات خوادع متأنفات ، ألقين زمامهن الى
الغريزة ؛ وهن خير* أو شر* من الرجال . ٤ - في القلب . ٥ - في المجتمع وخلطة

(١) المصادر السابقة نفسها .

الناس . ٦ - في الثروة : نقد لاذع للتمولين والوصوليين « تلك الانفس الدنسة ،
المعجونة من وحل وقدر ، بغير رحمة وبغير ضمير ؛ تقيء المال والناس من حولها جيع
عراة تنقبض لرؤيتهم النفوس . ٧ - في المدينة : تصوير للمجتمع البورجوازي ،
مرايه وتجاره وقضاته ، الذين بدءوا يفقدون فضائلهم ويتشبهون برجال القصر . ٨ -
في القصر : حيث الحقارة والدناءة والطرسة والضراوة والتقاليد . المصلحة الخاصة هي
الدافع الوحيد الى كل عمل ، والنفاق هو السبيل الوحيد اليها . ٩ - في العظماء : وم
اغبياء أترون فاسدون غلاظ الاكباد معجبون بأنفسهم ، متكبرون على الشعب وهو اسمي
منهم . ١٠ - في المليك والحكومة : صورة للملك الامثل : لويس الرابع عشر .
١١ - في الانسان : وهنا يبين شقاء الفلاح وسوء حاله . ١٢ - في الحكم على
الاشياء : ضعف تفكيرنا وبلاهة رغبتنا في الحروب . ١٣ - في سلطان الاذواق
والازياء الدارجة . ١٤ - في بمض العوائد : نقد للعادات الاجتماعية السيئة . ١٥ -
في الوعظ : نقد للبلاغة الزائفة . ١٦ - في الملاحدة : تفنيد لآراء المتشككين من
مدعي المعرفة (١) .

يدعي لا برويار انه لم يؤلف كتابه إلا ليحضّر الاذهان الى هذه النتيجة : دحض
مزاعم الملحدّين . والحقيقة ان هذا الفصل الأخير والفصل الذي جاء في منتصف الكتاب
عن : المليك والحكومة ، اراد بهما المؤلف ان يذرّ الرماد في عيون السلطتين المدنية
والدينية لثلاثي حجبها الصراحة واستقلال التفكير اللذان يسودان بقية اجزاء الكتاب (١) .
واذا تأملت هذه الفصول لحظت ما يشبه ان يكون خطة مرسومة لترتيبها . غير
انه لا ينبغي لك ان تشدد كثيراً في التماس الصلات بين الفصل وأخيه ؛ إذ « الطبايع
والصور ، ما هي إلا ملاحظات وخواطر سجلها المؤلف من يوم الى آخر وهو يحثك
بالمجتمع ويرقب الناس ؛ حتى اذا امتلأت وقاضه جعل يصنفها وينظمها في فصول ، وربما
تردد اين يضع فكرته ، فاذا هي تتغير بين طبعة واخرى . هذا التساهل في ربط اجزاء
الكتاب كان لا برويار فيما يظهر يرتاح له : إذ أتاح له ان يعبّر عن كل ما رأى ، فالناقضات
والفروق الدقيقة كلها ماثلة في كتابه من غير ان تتنافر ، وذلك لانها تتجاوز ولا
تختلط (١) . ثم أتاح له ذلك ان يتجنب الاسلوب التعليمي الرتيب ليجول في مدى من
الحرية اوسع . فالطبايع والصور هي من الكتب التي يمكن ان نفتحها حسبما اتفق ،

فنقرأ ، ونمضي الى بعض شائنا ، ثم نعود الى القراءة ، ولستفيد من تلك الحصص القصيرة ولستممتع بقراءتها من غير كلفة ولا جهد (١) . يقول سانت بوف : « القارئ لهذا الكتاب يمر في مناهة علمية متصلة الجبل ، تهذب فيها الافكار شيئاً فشيئاً وتنمو ويوضح بعضها بعضاً (٢) » .

مذهبه الاخلاقي : — الانسان في نظر لا برويار لا يختلف عنه في نظر المفكرين في عصره : « اناني » مختال طائش مفرط او مفرط ، لا يلم جادة الاعتدال ، متخذ من اهوائه وعاداته ومصلحه قوانين وحججاً ، وعاجز عن ان يستقر على عاطفة عميقة (٣) . اما تصويره للمجتمع فأقوى جبكاً وأوثق اتصالاً بنفسه . يراه قائماً على الحسب والنسب ، تبعده المناصب ويستبد به حب المال . لا يكتم لا برويار نغمته على النظام الاجتماعي ، بل كثيراً ما يعلي صوته بالنقد اللاذع والاحتجاج الصارخ . كيفما التفت اليه وجدته ساخطاً على الاوضاع في عصره : فالنبالة سلعة تشتري ويقصد بها التخفف من الضرائب ، والدين العوبة يستغلها المنافقون ، وموظفو المال ينهبون الدولة ويشقون كاهل الشعب ، وسادة الاقطاع ظلمة كسالى مفسدون ، والقضاء بطيء الاحكام كثير النفقات بعيد عن العدالة ، والحياة العائلية مضطربة يستهان فيها برغبات البنين والبنات وتستبد بها شهوات الآباء ، والفلاحون والعمال والكادحون لا يقطعون ثمرة اعمارهم ... هذه الامور نفسها اصبحت فيما بعد ثمرات قوض منها ادياء القرن الثامن عشر اركان النظم القديمة ؛ كذلك حدة الالهجة فهي اشبه بلهجة الادياء في هذا القرن . « اذا وجب ان اختار بين الكبراء والشعب فانا لا اتردد : اريد ان اكون الى الشعب (٤) » .

صوره : — هذا الناقد الاخلاقي اديب مفان قبل كل شيء . انه لا يمالى ولا يداني في القدرة على ملاحظة الحركات والسكنات التي تتجلى بها الطبائع والاهواء . هذا هو ميدانه يجول فيه ويصول . لقد جمع في حذاقة ودقة وصبر كل ما تقع عليه العين في الانسان مما يهتك الستار عما لا تقع العين عليه : مشيته ، نظراته ، حركته ، لباسه ، اسلوبه في الكلام ، وعلى الجملة : كل شيء يفضح المضاحك والمخازي فيه . تفكير منوع دقيق ينبض بالحركة والحياة ؛ فهذه صور طريقة غنية بالالوان والخطوط الموضحة ،

Portraits littéraires 409 (٢) Des Granges 147 (١)

• Les Caractères I (5-8), Des Granges 147, L.T. 238—239 (٣)

• Les Contemporains : 297—299, L.F.U. Tome 2, P : 47

تكتسي فيها الفكرة ثوباً مادياً وتتجسد . تارة تهبط عليه الفكرة المجردة ، فيتذكر ما يصادفه في الحياة من اشخاص ، فاذا هو يعمل على ان يستبدل المعاني الخافتة بما يقابلها من اشارات محسوسة . واخرى يستعير من هنا حركة ومن هناك اشارة ويؤلف صورة مركبة لا يستبعد ان تكون في الحياة . وثالثة تتناول الصورة انساناً بذاته تعرضه بكل صفاته وشواذاته ومناقضاته عرضاً اميناً لا توجهه فكرة خاصة ولا تحاول ان تغير فيه شيئاً . ورابعة يبدو له فيدس في هذه الصورة الواقعية خطأ او خطين ليؤزغ عنها عيون الناظرين ويصرف عنها تفكير المتعرضين (١) . وهو في كل ذلك لا يخرج عن واقع الحياة وان خرج عن واقع المثال الذي يحتذيه . ومن هنا جمعت « صورته » بين امرين عظيمين قلما يسر اديب اليهما معاً وهما : طرافسة الواقعية وعمومية الصورة ، يجمع بينهما في تألف عجيب . فالصورة تبرز لك خطوطاً مادية ومعنوية تمثل صفاتاً من الناس على وجه العموم ، ولكنها في الوقت نفسه تشعر بك بخصوصيتها وذلك بما تختار من عناصر طريفة تضعها الى جانب العناصر العامة الثابتة . ومعنى ذلك ان لارويار يرى الانسانية من خلال الاشخاص ، فاذا قرأت « صورته » عرفت انه لا يسير وراء المعاني المجردة التي لا حياة فيها ، بل وراء المعاني متلبسة اشخاصاً لهم فرديتهم او طابعهم الخاص ؛ هذه الفردية في ادب الصور تشابه الألوان المحلية في ادب المسرح ؛ وما كانت لهذه او لتلك ان تخرج الانتاج الفني عن عموميته ، ولكنها تقويه وتنفع فيه الحياة .

اسلوبه : — لهذه النظرات السديدة والصور البارة سخر المؤلف اسلوبه العبقري العجيب . انه ليولي التعبير الحكم الرشيق اقصى عنايته . فاذا كان رأس ما يعنى به الاتباعيون سلامة الفكرة وجلالها ، لاعتقادهم بأن جودة التعبير تأتي بعدئذ من تلقاء نفسها ، فان لارويار يجد المتعة الكبرى في قوة السبك واشراق الأداء ؛ الاسلوب للاسلوب : هذا هو شعاره ، وهذا هو الجديد الآخر في ادبه . انه لينتفع بسعة اطلاعه اللغوي حق انتفاع ؛ فأنوس الكلم واوابده ومصطلحه ، كل اولئك يتجاوز ويتألف ويملك الالباب . اما العبارة فمرة طيبة منوعة الى غير نهاية : من سرد الى عرض الى استفهام الى تعجب الى إنكار الى حذف الى ايماء الى التفات الى حوار الى إخبار . ومن حكمة الى صورة الى نقد الى رأي الى أمنية ، فللاديب الصنعة الذي يحوي بريشته

• Les Caractères I (5-8), Dds Granges 147, L.T. 238-239 (١)

• Les Contemporains : 297-299, L.F.U. Tome 2, P : 47

البارعة جميل المعاني . فلا يجري وراءه قارىء الا مأخوذاً مبهور النفس . ثارة تنطلق
العبارة وتسرع فتملك اعجابك بصناعة مدخلها وبراعة مقطعها ، واحياناً تنكش لتتوابع
الى فهمك تعبيراً شاردًا وقولاً مأثورًا جديرًا ان يُنقَر على المرمر والرخام : انه ادب :
الأحسن في الانصر ، كما يقول سانت بوف . هنالك صفحات كل كلمة فيها "زلت" في
مكانها بعد لآني وطول نظر ؛ واما لنقرأها فنتردد بين الاعجاب لهذا الفن الرفيع
والاحتجاج لما يبدو لنا احياناً من أثر الجهد والكلفة . ذلك بأن النقاد اذا اجمعوا على
طرافة هذا الاسلوب ورشاقته وحياته ، فقد اجمعوا كذلك على ان هنالك فقرات واحياناً
مقاطع ظهر فيها اثر الكلفة والعناء . ومهما دار الأمر فكثيراً ما يتغلب لايروبار المقتن
الصناع على لايروبار التأمل المفكير ؛ وعلينا نحن ان نتميز ما يكون منه نفعه من نفعات
الالهام او حسبة من وقفات الفن ؛ كما ان علينا ألا نؤخذ بسحر هذا الفن وذلك الالهام
فننسى القيمة الانسانية الكبرى لافكار هذا الاديب العظيم وصوره (١) .

منازع من كتاب الطبائع

ان صنع الكتاب لحرفة ، مثل صنع الساعة ؛ ان تصدّيك للتأليف يقتضيك حظاً
أوفر من الذكاء . لقد بلغ احد الحكماء بالعمية أعلى المناصب ؛ كان رجلاً حاذقاً دَرِباً
حسن التأتّي للأمور . ثم طبع كتاباً يصوّر فيه الاخلاق والمعادن فكان في الصحافة
منقطع النظر .

• • •

لأسهل عليك ان تنتزع الثناء على كتاب حقير بشهرة اكتسبتها من ان تال
الشهرة بكتاب بلغ حد الكمال .

• • •

هنالك اشياء لا يطاق التوسط فيها : كالشعر والموسيقى والرسم والخطابة .

• • •

للفن ذروة من الكمال ، كما للطبيعة ذروة من المطف والنضج ؛ فن مرها وأحبها

• Des Granges 147-148, L.F.U. Tome 2, P : 47, L.T. 330 (١)

Les Caractères Tome 1 P : 9, Portraits littéraires 411

• Les Contemporains : 299

فهو صاحب الذوق الكامل ؛ ومن لم يعرفها واحب ما دونها او ما فوقها فهو صاحب الذوق الفاسد . هنالك اذن ذوق رفيف وآخر سخي ، وهنالك اساس لمناقشة الافواق .

• • •

ركام النموت امدى رديئة : هي اعمالك تنفي عليك ، ثم طريقة مرضها .

• • •

بين مختلف الطرائق التي في قدرتها ان تؤدي فكرة واحدة لا ترى غير واحدة مثلى . اننا لا نعتبر عليها دائماً حين نتحدث او نكتب : بيد أنها في الحق موجودة ، وان كل ما عداها ضعيف لا يرضي رجلاً اريباً يحاول التعبير عن نفسه . المؤلف البارع الذي يكتب في عناية يشعر غالباً بأن التعبير الذي يبحث عنه منذ طويل من دون ان يجده ثم يجده آخر الأمر : هو التعبير البسيط والاجرى مع الطبع ، الذي يبدو اول الرأي انه كان ينبغي ان يسهل علينا وان يتسابق اليه .

• • •

لذة النقد تحول بيننا وبين الاستمتاع بأجمل الاشياء .

• • •

كثيرون يلبغون ان يقدروا افضل مخطوط يتلى عليهم ؛ بيد أنهم لا يستطيعون ان يجبروا بالثناء عليه ، حتى يروا ما سيناله بين الناس من رواج بعد الطبع ، او ما سيكون حظله بين المارفين : انهم لا يخطرون برأيهم ، ويريدون ان تدعهم اليه الجماهير دعاً (١) وان تحملهم عليه حملاً . عندئذ يقولون انهم اول من استحسنوا هذا الكتاب ، وان الجمهور قد رأى رأيهم .

هؤلاء الناس يفتنون اجمل القرص لاقتناعنا بفضلهم وعلمهم وبأنهم يسددون الحكم ، فيرون الجيد جيداً والرائع رائعاً . يقع بين ايديهم مؤلف جيد لم يشتهر واضعه بعد وليس هناك ما يقتضيه بالحظوة ؛ هذا الى ان استحسانه لا يقربهم في القصر ولا يعطف عليهم الكبراء : لسنا لسالك يا زيلوت (٢) ان تهتف : هذه تحفة الذكاء ، الانسانية ما إن تجاوز هذا ، الى هنا فقط يسمو اللفظ الانساني ، لن 'يحكم' بذوق احد الانسبة ما يسينغ هذه القطعة : عبارات مستكرهة ، مبالغ فيها ، تفوح بالاجر ، وتضر

(١) الدع : الدفع النيف (٢) هذا الاسم من كلمة يونانية معناها : المنافس الحسود .

حتى بالجيد الذي يراد توجيه الثناء اليه . لماذا لا تكثني بالقول : « هذا كتاب حسن ، ؟
ألحن أنك قلت ذلك مع فرنسا كلها ، مع الاجاب والمواطنين ، حين طبعته اوربا كلها
وحين ترجم الى عدد من اللغات . لقد فات الآوان .

• • •

— ماذا تقول في كتاب « هيرودودور » ؟ أجاب « أنتم » : انه رديء — رديء ؟
— من الرداءة بحيث لا يكون كتاباً ، أو أنه لا يستحق ان يتحدث الناس عنه .
— ولكن هل قرأته ؟ — كلا .
لماذا لا يضيف أنتم أن ف.ول. أسقطاه من دون ان يقرأه ، وأنه صديق لم (١) ؟

• • •

« أرسان » يتأمل الناس من أعلى ذروات فطنته ؛ وهو في ذلك البعد الذي يطل
منه عليهم يكاد يساوره الخوف من صفاتهم ؛ ان تقرأ ممن تواعدوا بتقارض الاعجاب
ليمدحونه ويمجدونه ويرفعونه الى السموات ؛ فهو يحسب بماله من فضل زهيد أنه قد
امتلك كل ما يدخل في الطوق امتلاكه وما لن يفوز به ابدأ ؛ استغرقته افكاره العظيمة
فما إن يجد الفراغ ليفقه ببعض الآيات ؛ وهو اذ سما بطبعه على الاحكام البشرية فقد ترك
لسواد الناس فضيلة عيش مشغول رتيب ، وما كان ليتحمل تبعه حماقته الا امام تلك
الحلقة من الاصدقاء الذين يعجبون بها ويقدمونها ؛ هم وحدهم يحسنون الحكم ، يحسنون
الكتابة ويجب عليهم ان يكتبوا ؛ ليس من مؤلف حصيد يلاقي من احتفال الناس
ويمجم الثقات على تذوقه الا أنف من قراءته ، ولا اقول انه ابي ان يستحسنه (٢) : انه
اذن غير أهل ليصلح نفسه بهذه الصورة التي تقدمها بين يديه ، لأنه لن يقرأها ابدأ .

• • •

يعرف « تيوكرين » أشياء لا فائدة منها ؛ افكاره غريبة على السوام ؛ ينجح الى
النظام ولا يطيل التعمق ؛ وهو لا يدرّب غير ذاكرته . لقد شغلته افكاره وأخسر
الاحتقار للناس ؛ ويظهر انه لا يفتأ يضحك في نفسه من أولئك الذين يعتقد انهم لا
يساوونه . اتفق لي ان قرأت عليه كتابي ؛ فأصنى اليه . ماكدت انتهي حتى حدثني
عن كتابه . ستقول لي : « وما رأيه في كتابك ؟ » — لقد ذكرته لك ، فهو انما
حدثني عن كتابه .

• • •

(١) الخط الصغير اشارة الى تير المتكلم (٢) لاحظ دقيق التكم .

ما من مؤلف مها تنام واكتمل إلا ويحول عن آخره امام النقد ، اذا صدق صاحبه فيه جميع اللاتمين الذين يريد كل منهم ان يحذف منه موضعاً لا يروقه .

• • •

ما ابعد الشقة بين كتاب جميل وآخر صحيح . ترى هل لهذا النوع الاخير وجود ؟ لعل اسهل على العبقرات الفذة ان تأتي بالمعظم الجليل من ان تتحاشى انواع الخطأ . لم يرتفع مع « السيد » حين ولادتها غير صوت واحد ، صوت الاعجاب ؛ لقد بدت أقوى من السلطة والسياسة (١) اللتين جاهدتا ان تقضيا عليها من غير جدوى (٢) ؛ فاجتمع على اكبارها عقول مشبى واهواء متباينة ، المظاء والشعب : اتفقوا جميعاً على استظهارها وسابقوا الممثلين على المسرح في تلاوتها . جملة القول ان السيد هي احدى نفس المنظومات التي يمكن ان تجرد بها قريحة ؛ ومع ذلك فان من اشد الممارك النقدية التي دارت رحاها حول موضوع ادبي : معركة السيد .

• • •

عندما يسمو كتاب بمقلك ويلهمك نبيل العواطف وجريئها ، فلا تلتمس قاعده اخرى للحكم عليه ؛ انه جيّد انتجته يده صناع .

• • •

ينفق الفيلسوف (٣) عمره في ملاحظة الناس ، ويستنفد مواهبه في تمييز عيوبهم ومضاحكهم ؛ إن يحرص على حسن اداء افكاره فليبرز ما يرى من حقيقة بجلاء بكفي لايجاد التأثير الذي يحقق رغبته ، لا لارضاء زهو المؤلف فيه . ان بعض القراء يحسبون انهم يعملون أجراً اذا قالوا متعالمين انهم قرءوا كتابه وانهم وجدوا فيه فطنة ؛ بيد أنه يرد عليهم كل اماديهم التي لم يسع اليها مرة بمجده وسهره . انه ليذهب بامانيه الى اعلى من ذلك وانه ليعمل لغاية اسمى : فهو يطلب من الناس نجاحاً اكبر واندر من الثناء ، بل ومن حسن الجزاء ، الا وهو اصلاح امرهم .

• • •

لا يكفي الا تكون تصرفات الابطال على المسرح رديئة ، بل يجب كذلك ان تحتشم وتفيد . قد تعرض 'أضحوكه' وضيفة غليظة تافهة بحيث لا يسمح للشاعر ان

(١) اولى مآسي كورني العظيمة ؛ تقدم تحليلها . (٢) يشير الى موقف المداء الذي وقفه منها الوزير ريشليو والمجمع العلمي من ورائه . (٣) يقول الشارح الاستاذ « روينه تيرنوا » : ان المؤلف يعني نفسه ولا شك .

يميرها التفاتا ولا يمكن للنظارة ان يجدوا فيها استمنا . الفلاح او السكير يلهم
المهرج بعض المشاهد ؛ غير انه لا يكاد يدخل في الملهة الحق : وإلا فأنشئ له ان يكون
ركناً وعملاً أساسياً في الملهة ؟ يقولون ان هؤلاء الاشخاص طبيعيون . على هذه
القاعدة فسيتم المسرح بخادم يصغير ، وبمريض يشخير (١) ، وبشمل ينام او يقي :
أهناك شيء أكثر طبيعية من هذا ؟

• • •

يتمجد بعض الناس بالكتابة الجيدة ، ويمجد آخرون بالأل يكتبوا شيئاً .

• • •

— هوراس (٢) او ديسبريو (٣) سبقك الى هذا . — اصدق ما تقول . على اني
ذكرته كقول لي . أنزاني لا استطيع ان افكر بمدهما في شيء صحيح سيفكر به
آخرون بعدي ؟

• • •

كثير من الناس ليس فيهم ما يجدر بالتقدمة غير الاسماء : فان الت رأيهم من قرب
فهم اقل من الهباء ؛ اما عن بعد فيوحون اليك الرهبة والاجلال .

• • •

على اعتقادي بان الذين اختيروا لمختلف الاعمال ، كل حسب قابليته ومهنته ، قد
احسنوا عملاً ، فاني اجرؤ على القول بانه ربما كان في العالم عدد كبير من الرجال ، بين
معروف ومجهول ، لم يعبء اليهم عمل ، وهم مع ذلك أحقّاء ان يكونوا احسن عملاً من
اولئك . يحملني على هذا الرأي ذلك النجاح الباهر الذي اصابه اناس قدّمهم الصدفة
وحدها ولم نسمع عنهم من ذي قبل اشياء كبيرة .

كم من رجال افذاذ نوابغ قد ماتوا من دون ان يتحدث عنهم احد ! وكم منهم من
لا يزال على قيد الحياة ولا يجري ذكرهم على لسان ولن يجري أبداً الأبدان !

• • •

(١) حدثنا في هذا الفعل عن الاصل (٢) الناقد الرومان الشهير (٣) بوالو ، كبير النقاد
في هذا القرن .

ماذا نصنع ؟ « ايجريب » الذي يطلب عملا ؟ أنضمه في المائة ام في الجيش ؟ سيان ، يجب ان تبت المصلحة وحدها بذلك : لأنه قادر على تدبير المال وإعداد الحساب قدرته على قيادة الكتائب . « انه اهل لكل شيء » ، كذلك يقول اصحابه ؛ الامر الذي يعني دائما أنه ليس أقبل لشيء منه لغيره . او بتعبير آخر : أنه لا يصلح لشيء . كذلك شأن الكثرة من الناس الذين تشغلهم انفسهم في شبابهم وتفسدهم اللذة او الكسل ، فهم يظنون خطأ حين تتقدم بهم السن أنه يكفي ان يكونوا عاطلين معوزين حتى ترى الحكومة لزاما عليها ان تبادر الى تعيينهم او مجديتهم ؛ ولما استفادوا من هذا المدرس العظيم الاهمية : وهو ان الناس ينبغي لهم ان يبذلوا سني حياتهم الاولى ليكونوا بالدراسة والجدد بحيث تحتاج الدولة الى نشاطهم ومعارفهم ، وبحيث يكونون اشبه بقطعة ضرورية لبنائها ، وبحيث تجد أنها محمولة بمحض منافعها على إغنائهم واسعادهم .

علينا ان نعمل على ان نصبح جديرين حقاً بعمل ما ؛ اما ما سوى ذلك فلا يعنيننا ، انه عمل الآخريين .

• • •

ما كان لرجل ذي كفاية ومنصب ان يتقل علينا بصقله ؛ انه اقرب الى الخجل المنصب الذي لا يحتله والذي يعتقد انه به جدير ، منه الى الزهو بما يشغله من عمل ؛ فهو أجدر بالقلق منه بالاعتزاز او باحتقار الآخريين ، فهو لا يتقل الا على نفسه .

• • •

التواضع من الكفاية والفضل كانظلال من الصور في اللوحة : تعطىها قوة ورواء . المظهر البسيط هو ثوب الرجال العاديين ، ففصل من اجلهم وعلى قياسهم ؛ لكنه زينة لأولئك الذين ملأوا حياتهم بمجالات الاعمال : اني اشبهها بجمال زاده الاهال روعة .

هناك فئة اعجبهم انفسهم ورضوا عن عمل قاموا به او كتاب الفوه وصادف بعض الرواج ، ثم سمعوا بان التواضع يناسب عظماء الرجال ، فتجروا على ان يكونوا متواضعين وقلدوا البسيط والطبيعي : هم أشبه بذوي القامات القميئة (١) الذين ينحنون امام الابواب لثلا يصطلموا بها .

• • •

— تقول ان الذهب يتوهج على ثياب « فيليحون » ؛ انه ليتوهج كذلك عنسد

(١) الصنرة الحقيرة .

التجار . - لقد ارثى اجمال الاثواب . - افتكوا اقل جمالا حين تعرض في الحوانيت ؟ - بيد أن الوشي والتطريز يزيدانها بهاء . - فانا اثني على عمل الصانع . - ان يسأل عن الوقت يخرج ساعة هي احدى التحف ؛ مقبض سيفه عقيق يمان ؛ على اصبعه ماسة رائعة تلمع للعيون ؛ لا ينقصه شيء من تلك الزينات الثمينة التي تحمل للافتخار بها والاستفادة منها معاً ؛ ثم هو لا يأبى على نفسه كل حلية يتقلدها شاب تزوج عجبوزاً من ذوات الثراء . - اما انك لتوحي اليّ بحب الاستطلاع ؛ يجب ان ارى على الاقل اشياء بهذه النفاسة : ارسل الي ثوب فيليمون هذا وجواهره ، وانا أعفيك من شخصه .

تخطى يا فيليمون اذا كنت بهذه العربة الالعة وهذا العدد الضخم من الصعاليك الذين يسرون في ركابك ، وهؤلاء البهائم الست التي تجرك ، تعتقد بأنك اكثر حرمة بين الناس : انهم يتخطون كل هذا المتاع الغريب عنك لينفذوا الى شخصك التافه البليد .

ليس معنى ذلك انه يجب ألا نسمح الرجل الذي يظن لنفسه اصلاً انبل وعقلاً ارجح ، لما يرتدي من حرّ اللباس ولماله من موكب وتبع : انه يقرأ هذا في وجوه المتحدثين اليه وفي عيونهم .

• • •

« سيلس » رجل من سواد الشعب ، غير ان الكبراء يوسعون له ؛ ما هو بعام ، بل تصله بذوي العلم أو اصر ؛ ضئيل الفضل ، غير انه يعرف اناساً جدد فضلاء ؛ ما هو بذكي ، غير أن له لساناً معبراً ورجلين تحملاه من مكان الى آخر ؛ لقد خلق ليفندو ويروح ، ليستمع الى عروض وينقلها ويتكلم بها ، ليجاوز مهمته ويجرّ على نفسه اللوم ، ليصلح بين جماعة تناكروا من اول لقاء ، ليفوز في مسعى ويخيب في الف ، ليعزو الى نفسه مجد الفوز كله ، وليصرف الى الآخرين سخط الخيبة . يعرف الاخبار الشائعة ، وحكيات المدينة ؛ لا يقوم بعمل ، بل يحدث بما فعل الآخرون او يصني الى الحديث عنه ؛ انه إخباري ، يحيط حتى بأسرار العائلات ؛ ويخوض في اعماق الخصوصيات ؛ يقول لك لماذا نفى هذا الرجل ، ولماذا استدعي هذا الآخر ؛ لا تخفى عليه اسباب النفرة بين الاخوين والقطيعة بين الوزيرين : ألم يتنبأ للأولين بعواقب الشقاق الوخيمة ؟ ألم يقل عن هؤلاء ان وحدتهم لن تطول ؟ ألم يحضر بعض ما قيل من كلام ؟ ألم يدخل

في نوع من المفاوضة ؟ هل ارادوا ان يصدقوه ؟ هل استمعوا له ؟ ألا من مخاطب في هذه الامور ؟ من شارك بنصيب اوفى من « سلس » في كل ما دار في البلاد من مؤامرات ؟ ولولم يكن ذلك ، ولولم يحلم به على الاقل او يتخيله ، أكان يفكر باقناعك به ؟ أكان يبدو فيما يبدو فيه الرجل العائد من سفارته من هيئة خطيرة غامضة ؟

• • •

اعرف « موبس » من زيارة قام بها لي من غير ان يعرفني . انه ليرجو نقرأ لا تصله بهم صلة ان « زيرو » (١) آخرين هم له منكرون ؛ يكتب الى نساء يعرفهن بالنظر ؛ يندس في حلقة من رجال محترمين لا يعلمون من هو ؛ وهناك ، من غير ان ينتظر منهم سؤالاً ومن غير ان يشعر بانه يقاطع ، يتكلم ، فيفيض ويسف . يدخل مرة اخرى في محفل فيجلس حيثما كان ، غير ملتفت الى احد او الى نفسه ؛ ازاحوه عن مكان « حجين » لوزير فجلس في آخر للدوق الكبير ؛ انه هناك على التحقيق الرجل الذي يضحك منه الجمع والذي يحافظ وحده على وقاره فلا يتسم . اطرده كلباً من عرش الملك يتسلق منبر الواعظ ؛ ينظر الى الناس من غير مبالاة ولا حيرة ولا حياء ؛ ليس عنده ولا عند الابه ما يستحي منه .

• • •

المظلة الزائفة حقود وعرة الجانب : انها تشعر بضعفها ، فهي تتوارى او على الاقل لا تظهر وجهاً لوجه ، ولا تبدو إلا بالقدر اللازم لتغر ولتلا تظهر على حقيقتها ، اعني على صفاتها . المظلة الحق حرة ودعابة ألوف شعبية لينت المريكة والجانب ، لا تفقد شيئاً بقربها من الانظار ؛ كلما زدت بها معرفة زدت بها اعجاباً . يعطفها الرفق على من دونها ، ثم تعود من غير جهد الى طبيعتها ؛ تستسلم احياناً وتترأخى وتهاون بميزاتها وهي قادرة دائماً على استعادتها واظهار قيمتها ؛ تضحك ، تلعب ، تمزح ، ولكن في وقار ؛ تقترب منها بحرية واحتشام معاً ؛ ذات طبع نبيل جيب ، يوحى بالاحترام والثقة ، ويظهر لنا الامراء حق عظماء من دون ان يشعرنا باننا صغار .

• • •

اذا بنينا حكننا على هذه المرأة بما لها من جمال وشباب وزهو واحتقار ، فما من

(١) من آزاره : جعله يزور

احد منا يساوره الشك في ان الذي سيحظى باعجابها هو بطل مغوار . لقد فرغت من اختيارها : فكان مسخاً عديم الذكاء .

• • •

انا يا « هيرماس » إن اتزوج بخيلة فلن افقر ، او مقامرة فقد اغتني ، او عالة فربما تفقتي ، او عاقلة فلن تنضب ، او غضوباً فسأمرن على الحلم ، او متظرفة فربما أعجبتني او مجاملة فربما احببني ؛ اما المنافقة ، فأجيني يا هيرماس : ما عسى ان انتظر من التي تخادع ربها وتخادع نفسها ؟

• • •

المرأة البليدة الشعور هي التي لم تر بعد الرجل الذي يجب ان تحبه : كان في ازмир فتاة بارعة الجمال تدعى « اميرة » ، وكانت أقل شهرة بجملها منها بجفاء طاداتها ، ولا سيما بفتور موقفها من الرجال ، الذين كانت ترام ، على حد قولها ، بشعور الاخت والصديقة . هي لا تؤمن بجزء يسير من كل تلك الحماقات التي يقولون ان الحب دفع اليها على مرّ العصور ؛ اما تلك التي رأتها بنفسها فانها تعجز عن فهمها : لم تكن تعرف غير الصداقة . انها مدينة بهذا الشعور لفتاة صبيّة كعاب ، زينته لها وحبته الى قلبها ، حتى اصبحت لا تفكر " الا " بالعمل على استبقائه ، ولا تتصور شعوراً غيره يستطيع ان يثنىها عما اكتفت به من شعور الثقة والاحترام . لم تكن تلجج الا بذكر « اوفروسين » : ذلك هو اسم هذه الصديقة الوفيّة ؛ ولم تكن ازмир لتتحدث إلا عنها وعن اوفروسين ، فقد اصبحت صداقتها مضرب الامثال . كان لاميرة اخوان شابان في منتهى الوسامة (١) حتى هامت حباً بهما نساء المدينة جميعاً . ومن الحق انها احبتهما دائماً حبّ الاخت لاخوتها . هناك قس " كان له في بيت ابيها حظوة ، فأعجبه وباح لها بذلك ، فلم يجرّ على نفسه غير الاحتقار . وهناك عجوز يمزّ بحسبه ونسبه ، كانت له الجراحة نفسها ، فجري له الحادث نفسه . على انها اذا انتصرت ، اذا كانت حتى آتئذ تقول انها عديمة الاحساس فلائها كانت بين اخويها وقس " وشيخ فان . وقد كان يحيل ان النساء ارادت ان تعرّضها لتجارب اشد ؛ بيد أن هذه التجارب لم تنفع غير ان زادتها غطرسة وثبتها على ما اشتهرت به من امتناع على سلطان الحب . من العشاق الثلاثة الذين اكتسبتهم على التوالي بفتنتها ، والذين لم تكن تخشى ان ترى هواهم كله ، طعن الاول

(١) الجمال

صدره على قدميها ، في احدى فورات الحب ؛ والثاني رآها في صمم عنه ، فاستبد به اليأس وانطلق ينشد الموت في حرب « كريت » ؛ والثالث قضى بحبه ذواياً مسهداً . ان الذي يجب ان ينتقم لهم لم يكن بعد قد ظهر . غير أن ذلك المعجوز الذي كان جد ناعس في هواء شني منه حين اخذ يفكر في عمره وفي خلق المرأة التي اراد ان يفوز باعجابها ؛ وقد ابدى رغبته في مداومة رؤيتها فسمحت بذلك . صحب اليها ذات يوم ابنه ، وكان شاباً حسن الطلعة نبيل القامة . نظرت اليه باهتمام ؛ وبما انه لازم السكوت في حضور ابيه ، فقد وجدت انه لم يكن على ماتروم من الذكاء ، وتمت له منه المزيد . ثم رآها وحده ، وتكلم بما فيه الفناء والذكاء ؛ على انه أفلّ النظر اليها ، وأوجز الحديث عنها وعن جمالها ، فدهشت لذلك وكأنها غضبت من ان رجلاً مهذباً ذكياً لم يلاطفها . لقد تحدّثت عنه الى صديقتها فرغبت في ان تراه . انه لم يصوب نظره إلا شطر اوفروسين وقال لها انها حسناء ؛ اما اميرة التي كالت خالية الفؤاد ثم اصبحت غيوراً ، فقد فهمت ان « استيزفون » مقتنع فيما يقول ، وانه لم يكن مجاملاً فحسب ، بل انه كان عطوفاً كذلك . منذ ذلك الحين جعلت تضيق بعشرة صديقتها . كانت ترغب ان تراها معاً مرة اخرى لتكون على بيئنة اكبر من امرها ؛ وقد أرتها المواجهة الثانية فوق ما خشيت ان تراه ، وبدلتها من شكها يقيناً . ابتعدت عن اوفروسين ، ولم تعترف لها بعد ذلك بالفضل الذي كان يسحرها ، وفقدت الميل الى عشرتها ؛ انها لا تحبها ؛ وقد اشعرها هذا التحول بان الحب في قلبها اخذ مكان الصداقة . ان « استيزفون » و « اوفروسين » ليتقابلان على الاوام ، ويتحابان ، ويفكران في الزواج ، ثم يتزوجان . انتشر الخبر في المدينة ؛ وذاع بين الناس ان اثنين حظيا اخيراً بتلك السعادة النادرة قزوجاً من احبباً . وعلمت « اميرة » بذلك فاستولى عليها اليأس . انها لتشعر بحبها حقّ الشعور . ثم هاهي ذي تسمى الى اوفروسين لجرّ المتعة برؤية استيزفون ؛ بيد ان هذا الزوج الشاب لا يزال يهيم بامرأته ، فيرى الحبيبة العزيزة في الزوج الجديدة ؛ انه لا يرى في اميرة الا صديقة اشخص اثير عنده . هذه الفتاة التاعسة فقدت النوم وزهدت في الطعام ؛ انحطت قواها وضاع لها ؛ فهي تحسب اخاها استيزفون ، وتخطبه كحبيب ؛ ثم تصحو لأمرها وتحمر من شرودها ؛ ثم جعلت تزلّ في ذهول اكبر ولا تستحي منه ؛ انها لا تعي من ذلك شيئاً . عندئذ اصبحت تخاف الرجال ، ولكن بعد فوات الاوان : لقد جئت . بين فترة واخرى كان يعود اليها صوابها ، وكانت تنتحب لعودته . ان شيبية ازميز

الذين رأوها ذات يوم فخوراً جافية يجدون ان الآلهة افرطوا في عقابها .

• • •

للسداقة الخالصة لذة لا يدركها اولئك الذين ولدوا صغار النفوس .

• • •

يلد الحب بفتة ، من غير تفكير ، لضعف او لاستعداد طبيعي . والصدقة ، على النقيض من ذلك ، تتكون شيئاً فشيئاً ، مع الوقت ، بالمراس وطول العشرة . كم من الذكاء ، من طيب القلب ، من المثابرة ، من الخدمات ، ومن المراقبة في الاصدقاء ، لتنشئ في عدة اعوام اقل مما يصنع احياناً في لحظة واحدة وجه جميل أو يد بضئة ؛

• • •

الزمن الذي يقوي الصداقة يضعف الحب .

• • •

الحب البالغ اكثر شيوعاً من الصداقة الكاملة .

• • •

مخالطة الذين يحجبهم تكفيينا ؛ وسواء علينا بعدئذ ان نحلم ، او نتحدث اليهم ، او لا نتحدث ، او نفكر فيهم ، او نفكر في اشياء لا اهمية لها ، على ان نكون بقربهم .

• • •

من اللذة ان نلتقي عيني من احسننا اليه .

• • •

اذا صبح ان الرحمة هي رجعة الى انفسنا تضمننا موضع النساء ، فلماذا لا يحظون منا الا باقل من القليل في آلامهم (١) ؟

• • •

الاشياء المتعنة كثيراً لا تأتي ، واذا أتت ، فلا يكون ذلك في الاوقات والظروف التي نتحدث لنا فيها اقصى السرور .

• • •

الحياة قصيرة ، إن هي لم تستحق هذا الاسم الا عندما تلتطف وتصفو ؛ وذلك

(١) كأنه يرد على لاروشفوكو ، راجع حكمه .

لأننا اذا خططنا (١) مما كل الساعات التي نمضيها على ما نشتهي ، فما تكاد نصنع من عدد السنين الضخم حياة من بضعة اشهر .

• • •

يبدأ الناس بالحب ، ويتنهون بالطمع ، ولا يجدون انفسهم في الغالب قد استقروا على حال الا عندما يموتون .

• • •

ذكاء الحديث يقوم على الاخذ بيد الآخرين لظهاره عندهم اكثر مما يقوم على عرض ما عندك منه : ان الذي يخرج من تحفته اليك راضياً عن نفسه وعن عقله ، فهو لابداً كامل الرضا عنك . الناس لا يحبون ان يعجبوا بك ، بل يريدون ان يعجبوك ؛ وحرصهم على ان يتعلموا ، بل على ان يفتبطوا اقل من حرصهم على ان ينالوا الاستحسان والهناف ؛ وان من الطغى المسرات ان تبث المسرة في قلب غيرك .

• • •

داخل الاسر في الغالب مضطرب بما فيه من ضعف الثقة والغيرة والكراهية ؛ على حين ان مظاهر راضية هادئة باشة تخدعنا وتجعلنا نشوم الطمأنينة التي لا وجود لها ؛ قليلون هم الذين يربحون اذا تعمقت في حياتهم . هذه الزيارة التي قمت بها منعت خصومة بيتية لا تنتظر غير ذهابك لتعود .

• • •

لقد شخت يا تيوبالد ، أعرف ذلك ؛ ولكن أناذن لي ان اعتقد انك قد هبطت ، وانك لم تبق شاعراً ولا رجلاً لامعاً ، وانك في الحاضر حكيم مسيء على انواع الكتب بقدر ما انت مؤلف غث ، وانه ليس في حديثك شيء على طبيعته وعذوبته ؛ مظهرك الطلق الختال يطمئنني ويوحى الي بخلاف ذلك . قالت اليوم اذن كما كنت او اكثر من ذلك : لانه اذا كنت في هذه السن عنيقاً متجبراً ، فأبي اسم يا تيوبالد يجب ان تعطيك في شبابك ، عندما كنت ظل بمض النساء ومثار أهوائهن ، وعندما كنت لا يحلفن إلا بك وعلى قولك ، وكن يقلن : « هذا متعم ؛ ماذا قال ؟ » (٢) ،

• • •

على الارض بؤس تنقبض له القلوب ؛ فثمة من يفنقرون حتى الى القوت ، ويرهبون

(١) من خاط يخطط (٢) اي انهن يستحسن اقواله قبل ان يسمعن او يفهمنها .

الثناء ، ويخافون الحياة . وفي اماكن اخرى ياكلون الفواكه قبل أوانها ، يقسرون الارض والفصول ان تؤمن لهم رغد العيش ؛ بعض المواطنين العاديين تجرؤوا ، لجزء غنام ، على ان يتلوا في لقمة واحدة غذاء مئة أسرة . من يستطع فليتحمل هذه الحالات المتطرفة ؛ لا اريد ان اكون ، لو قدرت ، شقياً ولا سعيداً : انا القي بنفسي والتجىء الى الحالة الوسطى .

• • •

يدخر المرء من شبابه لهرمه ، ومن هرمة لموته . فالوارث المتلاف ينفق على جنازة حافلة ويفترس الباقي .

• • •

لا القلاقل التي تزعم امبراطوريتك ، يا زنوبيا ، ولا الحرب التي نهضت بها في شجاعة ضد امّة ذات بأس شديد ، منذ وفاة زوجك الملك ، بقادرة على ان تنقص شيئاً من ابهتك وجلالك . فضلت شواطئ الفرات على كل بقعة لتشيدي فيها قصرك المنيف ؛ الهواء صاف عليل والمكان باسم بهيج ، تظله غابة مقدسة من جهة الغرب . آلهة سوريا الذين يسكنون الارض احياناً ما كانوا ليختاروا سكناً اجمل ؛ البرية حوله مسجاة رجال يفصلون ويقطعون ، يذهبون ويحيثون ، يدحرجون خشب لبنان او ينقلونه على عربات ، مع القار والرخام الاحمر ؛ رافعات الاثقال والآلات تن في الهواء وتحمل الذين يسافرون الى الجزيرة العربية على الامل في ان يروا عند اوتهم الى مساكنهم هذا الفصر قد أشرف على التهام وهو في تلك الروعة التي تريد ان تحملها اليه قبل ان تسكنه انت وابنائك الامراء . لا تذخري عنه شيئاً ، ايها الملكة العظيمة ؛ استعملي فيه الذهب وكل ما عند جهاذة الفن من ابداع ؛ ليظهر اساطين النحت والتصوير في عصرك كل علمهم على سقوفك وجدرانك المصفحة بالخشب ؛ خطي فيه حدائق رحيبة غناء ، تمثيل الى الملاء بسحرها انها ليست من صنع البشر ؛ استنفدي كنوزك واستفرغي مجهودك على هذا العمل المنقطع النظير ؛ وبعد ان تضعي فيه يا زنوبيا آخر يد ، سيتقدم احد هؤلاء الرعاة من سكان الرمال في جوار تدمر ، وقد اغتنى بجباية الضرائب على حقاف انهارك ، ليشتري ذات يوم بدنانيره هذه الدار الملكية ، وليجملها ويجعلها أجدر به وبثروته (١) .

• • •

(١) يشير الكاتب بهذه القطعة الى تدمير الملك والامراء في عصره ، والى استغلال الجباة وموظفي المال وظائفهم لجمع المال ثم لمساومة الكبراء المبذرين على املاكهم .

هذا القصر ، هذا الاثاث ، اولئك الحدائق والامواه ، تسحرك ، وتعلي صوتك لأول نظرة اعجاباً بدار جدّ ظريفة وبسعادة مالکها القصوى . لقد فارق الحياة ، من غير ان يستمتع بها مثلك في صفاء وهدوء ؛ لم يمرّ بها نهار رائق ولا ليل مطمئن ؛ فرق في الديون ليصل بها الى هذه الدرجة من الجمال الذي يملك ليك . ان دائنيه ليطردونه منها ، وانه ليلتفت ليلقي عليها من بعيد نظرة أخيرة ؛ ثم يلفظ انفاسه همساً وكمدّاً .

• • •

الكبراء يُعنون بشق طريق في غابة ، بحماية ارض بأسوار طويلة ، يتذهيب السقوف ، بأجراء المياه ، بإنشاء الحدائق ؛ أما لإفراح قلب ، وإفاضة السرور على نفس ، واستدراك حاجات بالغة ومعالجتها ، فان عنايتهم لا تمتد الى هذا .

• • •

يعتقد الكبراء انهم وحدهم كاملون ، ولا يكادون يعترفون للاخرين باستقامة التفكير وبالمهارة والرّاحة ؛ بل يستولون على هذه المناقب الخصبية على انها اشياء تابعة لكرم منيتهم . انه لضلال مبين مع ذلك ان يغذو المرء في نفسه مزاعم خطأ كهذه ؛ ان روائع الفكر ، وشوارد الكلم ، وفائس المكتوب ، بل لعلّ اجمل ما في حسن التصرف من فطنة ودقة ، لم تأت دائماً من قبلهم : ان لهم لأملاكاً عريضة وسلاسل نسب رفيعة هذا ما لا يَنَازَعون فيه .

• • •

اذا كان عدد الخطباء البارعين قليلاً ، فهل هناك عدد كبير من الناس يستطيعون ان يفهموه ؟ اذا لم يكن عدد الكتاب الفحول كافياً ، فأين هم اولئك الذين يعرفون ان يقرؤهم ؟ الناس يشكون كذلك من ضآلة عدد الذين هم اهل لنصح الملوك ومدّيد المعونة اليهم في ادارة الاعمال ؛ ولكن اذا ولد اخيراً هؤلاء الرجال المهرة الاذكياء ، اذا تصرفوا وفق نظراتهم ومعارفهم ، أيحظون بالمحبة والاحترام بقدر ما يستحقّون ؟ أيحمدون على تفكيرهم بالوطن وعملهم لاجله ؟

• • •

اذا وازنت بين صنفين من الناس مختلفين ، اريد ان اقول : بين الكبراء والشعب ، فان هذا الاخير يبدو لي مكتفياً بالضروري ، والآخرون مضطربون فقراء على ما في

ايديهم من وفر . رجل الشعب قد لا يستطيع ان يقارب اية اذية ، والكبير يأبى ان يفعل اي جميل ، وهو قادر على ان يعمن في الاذى : الواحد لا يتخرج الا بين الاشياء النافعة ولا يمارس غيرها ، والآخر يضيف اليها المضرات ؛ هناك تبدو الغلظة والصراحة واضحتين ، وهنا تتوارى فمالية خبيثة فاسدة تحت قشرة من آداب المجتمع ؛ الشعب لا عقل له ، والكبراء لا روح لهم ، لذلك المخبر الطيب من غير مظهر ، وليس لهؤلاء الا المظهر . افيجب ان اختار ؟ لن اتردد : اريد ان اكون من الشعب .

• • •

ينبغي لنا ألا نخوض في حديث ذوي السلطان : فغالبا ما يكون الملق في الكلام عنهم بالخير ، ومن الخطر ان نتكلم عنهم بالسوء ما داموا احياء ، ومن اللوم ان نفتابهم امواتا .

• • •

عندما ترى احيانا قطيعاً ضخماً قد انتثر على هضبة في اصيل يوم جميل واخذ يرتعي في هدوء السمير والنبام ، او يقطم في احد المروج حشيشاً ناعماً غصاً قد أفلت من منجل الحاصد ، فانك ترى الراعي واقفاً قرب هذه النماج في عناية وانتباه ، لاتفارق عينه ، بل يتبعها حيناً ويقودها حيناً ، ويغير لها المرعى ؛ ان تفرقت جمعها ، وان عرض لها ذاب شره أفلت كلبه فطرده ؛ يطعمها ويدفع الاذى عنها ؛ يدركه الفجر وسط البراري ولا يعود الا مع الشمس الغاربة . ياللعناية ! يالليقظة ! ياللتفاني ! اي الطرفين احب واكثر انطلاقا ، الراعي ام الغنم ؟ ترى أخلق القطيع للراعي ام الراعي للقطيع ؟ صورة صادقة للشعوب والامير الحاكم عليها ، اذا كان اميراً صالحاً .

الهرج والبذخ في المليك اشبه بالراعي يرتدي الذهب والجواهر ، ويمسك بيده عصا ذهبية ، لكلبه طوق من ذهب ، مربوط برسن من ذهب وحرير : ماذا يجدي كل هذا الذهب على القطيع او امام الذئاب .

• • •

اكرم بمنزلة تتيح للرجل في كل اللحظات ان يفعل الخير لآلاف من الناس ؛ وباله من مقام خطير ذلك الذي يعرض صاحبه في كل آن لأذى مليون من الرجال ؛

• • •

لا ينبغي لنا ان ننقم على الناس قساوتهم ونكرانهم وظلمهم وكبرياءهم وجهم

لا أنفسهم ونسبائهم للآخرين: كذلك خلّقوا، تلك هي طبيعتهم، وإلا، فكأننا لا نطيق أن يقع الحجر أو أن ترتفع النار.

• • •

يتساءلون لماذا لا يؤلف الناس كلهم أمة واحدة، ولا يريدون أن يتكلموا لغة واحدة، وأن تظلّهم نفس القوانين، ولماذا لا يتفقون فيما بينهم على عادات مشتركة وعبادة واحدة. وأنا أفكر في اختلاف العقول والأذواق والمشاعر، فأعجب لرؤية سبعة أشخاص أو ثمانية يجتمعون تحت سقف واحد، في بيت واحد، ويؤلفون أسرة واحدة.

• • •

«إيرين» تنفق في رحلتها إلى «إبيدور»^(١) مالا كثيرا، فترى «اسكيلاب»^(٢) في معبده، وتستشيريه في أوجاعها. تشكو إليه أولاً ما يعترها من ضعف ومال، فيعلم الآله أن ذلك يحدث لها بما قطعت من طريق طويل؛ تقول أنها تفقد شهوة الطعام عند المساء، فيأمرها الهاتف أن «تقبل» وجبة الغداء؛ تضيف أنها عرضة للقلق، فيصف لها ألا تدخل سريرها إلا ليلا؛ تسأله: لماذا يزداد وزنها، وما الدواء؟ فيجيب الهاتف بأن عليها أن تستيقظ قبل الظهيرة، وأن تستخدم بالمشي أحيانا ساقها؛ تصرح له بأن الخمر تؤذيها، فيقول لها الهاتف: اشربي الماء؛ وتقول أنها مصابة بسوء الهضم، فيضيف أن عليها أن تأخذ الحمية. — بصري يضعف. — اتخذي نظارتين. — قواي تنحور، ولست اليوم على ما كنت عليه من قوة وصحة. — ذلك بأنك تشيخين. — ولكن ما السبيل إلى الشفاء من هذا الخول؟ — أقصر السبل، يا إيرين، أن تموتي، كما فعلت أمك وجدّك. فصاحت إيرين: يا ابن أبولون، أي نصيحة تعطيني؟ أفهذا هو كل العلم الذي يذيع به الناس والذي يُعَلِّي قدرك على الثرى؟ ماذا لقّنتني من نادر أو غامض؟ أفتراني لا أعلم كل هذه الأدوية التي تعلمني إياها؟ — فلماذا لا تستعملينها إذن، من دون أن تسمي إليّ من مكان بعيد ومن دون أن تفصّري أيامك برحلة طويلة كهذه؟

• • •

(١) مدينة يونانية قديمة، اسمها اليوم: آغوليد (٢) الآله الشافي، ابن أبولون

ليس للأطفال ماضٍ ولا مستقبل ، هم انهم يستمتعون بالحاضر ، الامر الذي لا يتحدث لنا ابداً .

• • •

الرجل التافه يبتغي النفع في التحدث عن نفسه بالخير والشر ، والرجل الرزين لا يتحدث عن نفسه ابداً .

• • •

ما الدافع لـ « ألسيب » الى ان يبحث الي هذا اليوم بالتحية ، ويبتسم لي ، ويطلب علي من نافذة عربته خشاة ان أفوته ؟ لست بغني ، وانا راجل : كان العرف والعادة يقضيان الا يراني ؛ اليس ذلك ليرى هو نفسه في ركن عربة واحدة الى جانب رجل عظيم ؟

• • •

اننا نشعر بنوع من الحزي حينما نرفل في السعادة الى جانب بعض مشاهد البؤس .

• • •

ما اسرع ما نعرف أصغر محاسننا ، وما أبطأ ماتئين نقائصنا : ما كان لانسان ان يجهل ان له حاجتين جميلين واطافر جيدة ، ولكنه لا يكاد يعرف انه اعور ، وهو حق جاهل أنه غني .

• • •

نزع « آرجير » كفتها لتكشف عن يد جميلة ، ولا تسهر ان تبدي حذاءها الصغير الذي يقضي ان يكون لها قدم صغير ؛ تضحك لهزل القول وجدته لترينا اسنانها الجميلة ؛ إن تبدي أذنها فلائها احسنت تجميلها ، وان احجبت عن الرقص فلائها غير راضية عن قائمتها الغليظة ؛ انها تفهم وجوه منافعها جميعاً ، ما خلا واحداً : انها تتكلم دائماً وليست على شيء من الذكاء .

• • •

ليس لـ « كليتون » في حياته غير شاغلين : أن يفطر صباحاً وان يتعشى عند المساء . يخيل أنه لم يولد الا للهضم . وليس له كذلك غير حديث واحد : ان يذكر المأكولات التي قدمت في آخر مأدبة وجد فيها ، وكية الحساء ، وكم نوعاً منه ، ثم يضع الشواء والتوابل ، ويتذكر على الدقة كم طبقاً قدم في اول وجبة ، ولا ينسى المقبلات والفاكهة والصحاف ، يسمى كل ما شرب من خور وسوائل ، يملك لغة المطبخ على اساعها ، ويفرني بالأكل من مائدة شهية لا يكون فيها ؛ ان له لذوقاً حسناً لا يمتدح ،

فلم يُرَ قط غرضة لحادث سوء فطيع مكان يا صُكْل مُقبلاً غثاً او ان يشرب خمرًا عادية .
انه رجل نسيج وحده في هذا الباب ، اذ وصلت موهبة التغذية الحسنة عنده الى آخر
ما يمكن ان تصل اليه ؛ لن يرى الناس رجلاً يبذره في كثرة الاكل وجودته : من
اجل ذلك كان الحكم على القطع الطبية ، ولم يُسمح لامرئ ان يسبغ مالم يسبغ . قضى
نحبه ، بيد انه امر ان يُحمل الى المائدة حتى آخر رمق : فأولم حتى في يوم وفاته . كان
يأكل حينما كان ؛ وان قدر له ان يعود الى الحياة فلاجل ان يأكل .

• • •

وَخَطَّ الشيب رأس « روفان » ، لكنه صحيج الجسم ، زاهي الوجه ، حديد
البصر ، تبشر صحته بعشرين عاماً آخر من الحياة . فريحٌ ، فريحٌ ، أليف ، بارد
الماطفة ؛ يضحك ملء جوانحه ، ويضحك وحده ومن غير سبب ؛ راضٍ عن نفسه ،
عن اصحابه ، عن ثروته الصغيرة ، وهو يقول انه سعيد . فقد وحيداً ، وهو شاب
مفتوح الامل ، لو عاش لكان ذات يوم فخار اسرته ؛ ترك للآخرين أمر البكاء عليه وقال :
« مات ابني ، هذا ما سيقضي على امه » ، ثم سلا . أغلف القلب ؛ لا صديق له ولا
عدو ؛ لا يربكه أحد ، كل الناس يلائمونه ، كل شيء يرضيه : يتحدث الى ذلك الذي
يراه لأول مرة بما يتحدث فيه من حرية وثقة الى اولئك الذين يدعوم اصدقاء القدماء
ويشركه بمد هنية بسخافته وحكاياته ؛ لا يلقي بالاً الى من يدنو منه ولا الى من يبتعد
عنه ؛ فالقصة التي بدأ يقصها على رجل ما يكملها هي نفسها لمن يأخذ مكانه .

• • •

نرى بعض الحيوانات المتوحشة ، بين ذكور واناث ، منتشرة في البرية ، سوداء
غبراء قد لفتحها الشمس ، وهي وثيقة الصلة بالارض تبشها وتمجرها في غناء ودهوب ؛
ينبعث منها ما يشبه ان يكون صوتاً ملفوظاً ، فاذا انتصبت على اقدامها أبدت وجوهاً
بشرية ، والحقيقة انهم بشر ؛ يفسحبون الليل الى اجحار يعيشون فيها على الخبز الاسود
القفار والماء والجذور ؛ انهم ليعفون الرجال الآخرين من مثونه الحرث والبذر
والحصاد لتأمين الحياة ؛ وعلى هذا فهم يستحقون ألا تصفر أيديهم من هذا الخبز
الذي زرعه .

• • •

من العجيب اننا على ما ينفعنا من كبرياء واعتداد بحسن حكمنا على الاشياء ، فاننا
نتهاون في استخدام هذه الموهبة حين نكشف عن رأينا في ما للآخرين من فضل الشهرة ،

عطفت الجماهير ، رعاية الامير ، كل اوائك يجرفنا امامه كالسيل : فنحن امدح المدوح
من لمن يستحق المدح .

• • •

الناس قلما رضي بعضهم عن بعض ومالوا الى تقارض الاستحسان : فلا العمل
ولا السلوك ولا الفكر ولا التعبير ولا غيره بدافع لهم الى الرضا وحسن القبول ؛ انهم
يضعون مكان ما يحكى لهم وما يقال وما يتلى عليهم ما كان في ميسورهم ان يفعلوه هم في
موقف مماثل ، او ما كانوا احرى ان يفكروا فيه او يكتبوه في موضوع مشابه ؛ وهم
بعد مملوون بأفكارهم بحيث لم يبق لأفكار الآخرين مكان عندهم .

• • •

« ليفيز » يرى في الكنيسة حذاء جديد الزيّ ، فينظر الى حذاءه ويحمر كما لو
كان عاريا ؛ جاء الى الصلاة ليظهر ، وانه ليتوارى ؛ هاهو ذا قد احتجزته قدمه في
غرفته طول النهار . له يد رخصة ، وهو يعالجها بمعجون معطر ؛ يحرص على ان يضحك
ليكشف عن اسنانه ؛ يقلص فاه ، وامن مرة ابى ان يتسم ؛ ينظر الى ساقيه ، يرى نفسه في
المرآة ، فما احده أرضى عن احد منه عن نفسه ؛ لقد اكتسب صوتاً رخيماً رقيقاً ، ومن
حسن الحظ انه الثلج ؛ ان له حركة رأس ولا أعرف اية عذوبة في العنين لا يفوته ان
يتجمل بها ؛ يسير في استرخاء بأجل هيئة يستطيعها ، يضع الاحمر ، ولكن على قلة ،
فلم يتخذ من ذلك عادة . الحق انه كذلك يرتدي ثياب الرجال ، وانه لا تفرط له ولا عقد
جمان : من اجل ذلك لم أنظله في فصل النساء .

• • •

لم نر قط من ينذر لولي شيئاً ولا من يحجج اليه ليحظى بذهن هادئ ، او نفس
يزكو عندها الجليل ، ليكون اكثر انصافاً واقل ميلاً الى الاذى ، ليشفي من انانيته
وضلاله ومجونه .

• • •

« شبين » لدى خروجه من غداء تناول فيه الطعام على هيئته ونفخ به معدته ،
وحينما انتشى ببخار الحمرة اللذة ، وقّع أمراً قدّم اليه ، يقضي بحرمان مقاطعة كاملة
من الخبز ، اذا لم يتدب احد لتدارك الحال . اما انه لمعذور : أنسى له ان يفهم في ساعة
الهضم الاولى ان في بعض النواحي من قد يقضي عليهم الجوع .

• • •

لقد حملوا « كرزوس » الى المقبرة : من كل امواله العريضة التي اقتناها بالسرقه والاختلاس ثم انفقها بالبذخ والاطعمة الشبيهة ، لم يبق معه ما يفي بدفته . مات عاجزاً عن وفاء ديونه ، صفرأ من جميع امواله ، محروماً لذلك من كل عون : فما رثي عنده شراب مسكّن او دواء مقو ؛ لا اطباء ولا كاهن يؤكد له خلاصه .

. . .

واجب القضاة ان يحقّقوا الحق ؛ ومهنتهم ان يؤخّروه : فبعضهم يعرف واجبه ويعمل وفق مهنته .

. . .

« هيريل » يعمد الى الرواية ، سواء أتكلّم ام وعظ ام كتب : يقول على لسان امير الفلاسفة (١) : إن الحجر تسكر ، وعلى لسان الخطيب الروماني (٢) : ان الماء تعدّ لها : فان تكلم في الاخلاق فانما يتكلّم افلاطون المقدس الذي يؤكد ان الفضيلة محبوبه والريضة كريهة ، او ان كليهما يتحولان الى عادة . مالوف الاشياء ، اتفها ، تلك التي يمكنه هو نفسه ان يفكر فيها : يريد ان يرفعها للقدمات ، للاتين ، اليونان . وماذا ك ليزيد في خطر اقواله ، وربما لم يكن كذلك ليزهو بمعرفته ، وانما هو حبه الرواية .

. . .

ليس حب الاستطلاع ميلا الى النافع او الجليل ، ولكن الى النادر الفريد الذي يكون عند فريق ولا يكون عند غيرهم .

. . .

فلان (٣) ، فجأة ، ومن غير سابق تفكير ، يتناول ورقاً وريشة ، ويقول في نفسه : « سأؤلف كتاباً » ، غير معتمد على موهبة ، سوى انه في حاجة الى خمسين ديناراً . عبثاً أصبح به : « خذ منشاراً ، يا ديوكور ، واثّر أو اخط او اصنع جزءاً من دولاب ، فستنال اجر ك . » انه لم يتقن كل هذه الحرف (٤) . « اذن فالنسخ ، انقل ، كن مصححاً في مطبعة ، ولكن لا تكتب . » بل يريد ان يكتب وان يطبع ؛ واذ كانوا لا يرسلون الى المطابع دفترأ ابيض ، فانه يسوّدّه كما يحلو له . سيكتب

(١) ارسطو . لاحظ ان من عادة الرواية ان يطلب في مدح المروي عنه « المرب » .

(٢) سيشرون (٣) لم يذكر المؤلف لهذه الصورة اسماً اول الامر ، كمادته ، امعاناً في تكبير

صاحبها « المرب » (٤) هذا ما قد يجيب به « ديوكور » .

طوع خاطره ان « السنين » يجري في باريس ، وان في الاسبوع سبعة ايام ، وان الجو مطر ؛ وبما ان هذا السلام لا يتعرض بسوء الدين او الدولة ، وانه لا يزيد في الاذى على ان يفسد ذوق الجمهور وعلى ان يموِّد التفاهة والبلاهة ، فسيؤذن بطبعه ، وسيعاد طبعه ليكون خزيًا للعصر ومهانة للناهين من رجال التأليف .

• • •

اشعر بوجود الله ولا اشعر بعدم وجوده : بحسبي هذا ، ولا فائدة لي من كل ما عند الناس من حجج واقية ؛ اني لا ختم بوجوده تعالى . هذه النتيجة هي في طبعي ، تلقيت مبادئها في منتهى اليسر في طفولتي ، واحتفظت بها منذ ذلك بصورة جد طبعية في عمر جد متقدم فما ان يخالجي في صحتها شك .

— لكن هنالك عقولًا تتخلى عن هذه المبادئ .

— ان وجد امثال هؤلاء فانها لمشكلة كبرى ؛ واذا كان ذلك كذلك ، فان هذا لا يبدو ان يقيم الدليل على ان في هذه الدنيا من شأته عقولهم (١) .

• • •

ليس الجحود بشيء . ان اكابر من اتهموا به لا كسل من ان يبتؤوا في اذهانهم بان الله غير موجود ؛ وكسلهم يبلغ ان يلبّد شعورهم نحو هذه الاشياء ولا يقرّونها ، انهم لا يفكرون فيها البتة .

• • •

هل الناس من الطيب والامانة والمدة بحيث يكونون اهلًا لكامل ثقنتنا ولا يبيعوننا في الاقل الى تمنّي وجود آله نلتمس قضاؤه فيهم ونفزع اليه من ظلمهم وغدرهم ؟

• • •

« أرياس » قرأ كل شيء ، رأى كل شيء : هكذا يريد ان يوحى الى الناس . انه رجل عالمي ، كذلك يعتبر نفسه . يفضل ان يكذب على ان يسكت او ان يبدو جاهلاً للأمر ما .

يتحدثون على مائدة عظيم عن بلاط ملك من ملوك الشمال ، فيتناول الحديث ،

(١) اعتمد المؤلف على الشعور في « برغنة على وجوده تعالى . وقرب منه قول باسكال : « القلب هو الذي يشعر بوجود الله ، لا العقل » وقول ديكارت : « يجب ان استنتج بالضرورة وجود الله بوضوح من مجرد اني موجود وان في نفسي فكرة كائن لانهاية لكماله ، اعني الله .

بل ينزعها انزعاً من اوائك الذين كانوا سيحدثون فيه بما يعرفون : انه ليتوجه الى تلك البلاد الثانية كما لو كان احد ابنائها ، فيحاضر عن عادات ذلك البلاط ، عن سيدات ذلك القطر ، عن شرائعه وتقاليده ، ويروي حكايات جرت هناك ، فيراها مضحكة ، ويكون منها اول الضاحكين . . اتفق ان احد جاسائه عارضه ، وبرهن له بجلاء على انه يقول اشياء غير صحيحة . بيد أن أرياس لا يضطرب لذلك ابداً ، ويزيد فتأخذه العزة امام مقامه ، ويقول : « اني لا اتقدم خطوة على غير ثقة ولا انبس بكلمة لم تتحدث الي من مصدرها الاصيل . لقد بلغني انباء ذلك من فلان ، سفير فرنسا في هذا البلاط ، وقد عاد الى باريس منذ بضعة ايام ، وبني وبينه معرفة لا كلفة فيها ، وقد اكرت سؤاله ولم يطو عني شيئاً . » ثم يعاود سلسلة حديثه بثقة اكبر مما بدأ ، واذا باحد صاغيته يقول له : انه السفير نفسه ذاك الذي تخاطبه ، وقد عاد من سفارته .

. . .

« لجيتون » لون نضير وخذ لحيم ، وجنتاه متديتان ، ونظرته ثابتة مطمئنة ؛ كنفاه عريضتان وصدرة عال ومشيته رزينة جريئة . يتكلم في ثقة ، يستعيد الحديث من محادثه ، ولكنه لا يسبح ما يقال له . يبسط متديلا واسماً ، فيمخط بضجة كبيرة ، يبصق الى بعيد ، ويعطس بصوت عال . ينام نهاره ، ينام ليله ، ينامها مساء عينية . يشخر بين اصحابه ويتوسطهم . يشغل على المائدة وفي الزهرة مكان اثنين . يقف فيقفون ، يتابع سيره فيتايعون . الكل يعمل وفق هواه . يقاطع محادثه ثم يمود فيصل حديثه . مامن احد يقاطعه ، بل انهم يصغون اليه مها اطال . الكل من رآه ، الكل يصدقون ما يلفقه من اخبار . اذا جلس رأته يفوس في اريكته ويضع احدى ساقيه على الاخرى ويقطب حاجبيه ، ثم يسدل قبعته على عينيه لئلا يرى احداً ، ثم يبدو له فيرفعها ليكشف عن جبين مزهوء . فكه ، ساخر ، نزع ، مختال ، غضوب ، مفكر ، داهية ، كتوم ؛ يظن انه كتلة مواهب وشعلة ذكاء : انه غني .

. . .

ماذا تقول ؟ كيف ؟ لم افهم بمد . انجب ان تميد ؟ ما ازال غير فاهم ، حرث أخيراً ! تريد يا آسي ، ان تقول لي ان الطقس بارد ، فلماذا لم تقل لي : الطقس بارد ؟ تريد ان تخبرني بان المطر ينهمر او بأن الثلج يتساقط ، قسل : المطر ينهمر او الثلج يتساقط ! تجدد وجهي صافياً وتود ان تهنتي عليه ، قل : وجك صاف ! غير انك قد

فجيبني بأن هذا سهل وواضح وبأن الناس جميعاً يستطيعون أن يقولوا مثله . ماذا يهم
يا صديقي ؟ أهو مصاب عظيم أن يكون الانسان مفهوماً وأن يتكلم مثل جميع الناس ؟
شيء واحد ينقصك يا آسي ، أنت وامسألك من المتكلمين ، لا تشك في ذلك ، واني
لحاملك على الدهشة ، شيء واحد ينقصك هو : الذكاء ؛ وليس هذا كل شيء ؛ في
رأسك رأي ؟ أنت مغال به ، هو الاعتقاد بأن حظك من الذكاء اوفر من حظ الآخرين .
هذا هو مصدر تشدقك وتعيقك وكلماتك الكبيرة التي لا تعني شيئاً . تقترب من هذا
الرجل ، او تدخل هذه الغرفة ، فاما أجرك من ثوبك وألقي في مسمعك : ألا تفكر
أبداً بأن تتظاهر بالذكاء ، هذا هو دورك الذي يجب ان تمثله . لتتخذ اذا استطعت لغة
سهلة كتلك التي يتكلمها اوائك الذين لا تظن فيهم إثارة من الذكاء : فلعلمهم حينئذ
يعتقدون فيك الذكاء (١) .



انتهى

بمؤن الله تعالى وفضله

(١) القطع السابعة عن بناها عن اسحتي الاستاذ R. Radouant و René Ternois
عن 211 Chevaillier

مصادر الكتاب

جمهورية اولاطون : نقلها الى العربية عن الترجمات الانكليزية : حنا خباز ، هدية
المقتطف السنوية ١٩٢٩ ، طبعت في مصر ١٩٢٩ م .

. . .

الادب المقارن : تأليف : فان تيجم ، استاذ الادب المقارن في السوربون ،
نقلته عن الفرنسية : دائرة المعارف الادبية العالمية ، طبع
في مصر .

. . .

قصه الأدب في العالم : الجزء الثاني ، القسم الاول ، تأليف : احمد أمين ، وزكي
نجيب محمود . طبع في القاهرة ١٩٤٥ م .

. . .

في اصول الادب : لأحمد حسن الزيات ، طبع في مصر ١٩٣٥ م .

. . .

قصة الفلسفة الحديثة : الجزء الاول : تأليف احمد امين ، وزكي نجيب محمود —
طبع في القاهرة ١٩٣٦ .

. . .

فنون الأدب : تأليف ه. ب. ثشارتن

تعريب زكي نجيب محمود

طبع في القاهرة ١٩٤٥

. . .

الياذة هوميروس : لسليمان البستاني ، طبعت في مصر ١٩٠٤

. . .

قواعد النقد الأدبي : تأليف : آسل آبر كرمي :

Lascelles Abercrombie

نقله الى العربية الدكتور محمد عوض محمد

طبع في مصر

• • •

جان دارك : تأليف جورج برناردشو

نقله الى العربية مع مقدمته الهامة : الدكتور احمد زكي

طبع في مصر ١٩٣٨

• • •

المثل السائر في أدب السكاك والشاعر : لضياء الدين بن الاثير طبع في مصر ١٩٣٥

• • •

لويس الرابع عشر : الدكتور علي ابراهيم حسن وامين غالي

دار الفكر العربي ، مصر ، ١٩٤٧

• • •

هوراس ، فن الشعر : ترجمة لويس عوض مصر ١٩٤٧

• • •

XVII^e & XVIII^e siècles. Cours complet d'Histoire.

Par : A. Malet & J. ISAAC

Paris 1923

• • •

La littérature Expliquée.

Par : Ch. - M. Des Granges & Ch. - Charrier.

Quatorzième édition.

Paris 1933

اشرنا الى هذا الكتاب في الهوامش بكلمتي : Des Granges

• • •

Petite Histoire des grandes doctrines littéraires en France

De la Pléiade au Surréalisme.

Par : Philippe Van Tieghem.

Paris 1946

اشرنا اليه في الهوامش بكلمتي Van Tieghem

• • •

Histoire de la Littérature Française illustrée.

Publiée sous la direction de:

M. M. Joseph Bédier et Paul Hazard

Deux tomes

Paris 1923 - 1924

اشرنا اليه بـ L. F. U.

ملاحظة : كل صفحة تجاوزت الرقم ١٠٠ فهي من الجزء الاول

كل صفحة دون هذا الرقم فهي من الجزء الثاني .

• • •

Larousse Universel

اشرنا اليه بـ L. U.

• • •

Manuel Illustré d'Histoire de la littérature Française

Par : G. Lanson et P. Tuffrau

Paris 1930

اشرنا اليه بـ L. T.

• • •

Les nouveaux textes Français

Classe de cinquième

Par J - R. Chevaillier, P. Audiat, E. Aumeunier

Classiques Hachette 1941

اشرنا اليه بـ : Chevaillier

• • •

Pascal

Pensées et opuscules philosophiques

Extraits

Par : Fernand Flutre

Paris 1935

• • •

La Bruyère
Les Caractères, Deux volumes
Classiques Larousse
Paris 44^e Edition

• • •

Idées et doctrines littéraires
Du XIX^e siècle
Par Vial et Denise
Paris

• • •

Boileau
Le Lutrin et l'Art Poétique
Classique Larousse
Paris 19^e Edition

• • •

Introduction à la lecture des poètes français
[Par ; René - Albert Gutmann
Paris 1940

Gutmann : اشرنا اليه باسم

Introduction : او باسم

• • •

Aristote
Poétique
Texte Traduit
Par

J. Hardy
Paris 1932

• • •

Histoire de la littérature française

Par Gustave Lanson

Paris

Librairie Hachette

لanson اشترنا اليه بـ

• • •

Dix-Septième siècle

Par :

Emile Faguet

Paris

Faguet اشترنا اليه بـ

• • •

Corneille : Le Cid

Classique Larousse 53^e Édition

Paris

• • •

Literature and Life, Book four, By : **DUDLEY MILES,**

Robert C. Pooley and Edwin Greenlaw

Printed in the United States of America

• • •

Corneille : un grand poète malheureux

Par F. Montagnon

Paris 1931

• • •

Explication de la littérature allemande

Par :

René Lote

Paris

• • •

Voltaire :

Le siècle de Louis XIV

Deux volumes

Les classiques pour tous,

Paris

• • •

Corneille

Horace

Classiques Larousse

• • •

Corneille

Horace

Les classiques Français

• • •

La vie de Jean Racine

Par : François Mauriac

Paris : 1928

• • •

Racine

Andromaque

Classiques Larousse

• • •

Portraits littéraires

Par : Sainte-Beuve

Paris

• • •

— ٧٦١ —

Racine

Bérénice

Les classiques pour tous,

• • •

Racine

Théâtre

Deux tomes

Les meilleurs auteurs classiques

Français et Etrangers

Paris

• • •

Racine

Phèdre

Classiques Larousse

28^e Édition

• • •

Racine

Bajazet

Classiques Larousse

• • •

Les contemporains

Par Jules Le Maître

Paris , Ancienne librairie Furne

• • •

Molière : sa vie dans ses œuvres

Par : Pierre Brisson

Dix - septième édition

Imprimé en France

• • •

Molière : Tartuffe

Les classiques Français

Publié sous la direction du Comité
de la Culture Française 1942

• • •

Molière : Le Tartuffe

Classiques Larousse

• • •

Molière : Le Misanthrope

Classiques Larousse

• • •

Molière : L'Avare

Classiques Larousse

• • •

Notre littérature étudiée dans les textes

Par : Marcel Braunschvig

Deux volumes

Paris 1937

• • •

Molière : Le Bourgeois Gentilhomme

Classiques Larousse

• • •

Molière : Les Femmes Savantes

Classiques Larousse

• • •

Molière : Le Malade imaginaire

Les Classiques pour tous

• • •

La Fontaine

Par : Pierre Clarac

Paris 1926

• • •

La littérature du siècle classique

Par V. L. Saulnier

2^e Édition

Paris 1947

• • •

H. Taine

La Fontaine et ses Fables

Paris

• • •

La Fontaine

Fables Choiesies

Deux volumes

Classiques Larousse

• • •

La Rochefoucauld

Maximes

Classique Larousses

• • •

Mme de La Fayette

La princesse de Clèves
Classiques Larousse

• • •

Mme de Sévigné

Lettres choisies
Classiques Larousse

• • •

Qu'est-ce que la littérature ?

Par : Charles Du Bos

Paris 1946

• • •

Textes Choisis et illustrés

Par : P. Avisseau

• • •

Bossuet

Oraisons Funèbres et Sermons
Classiques Larousse

• • •

Histoire

Les temps modernes

Par André Alba

Beyrouth.

• • •

Nouveau cours d'histoire
Le XVII^e et le XVIII^e siècles

Par Victor - L. Tapié

Paris 1946

• • •

M. Regnier

Poésies choisies
Classiques Larousse

• • •

Boileau : Satires

Les classiques pour tous
Paris

• • •

Saint - Simon

Mémoires
Classiques Larousse

• • •

Racine : Athalie

Classiques Larousse

• • •

Voltaire : Œuvres critiques

Classiques Larousse

• • •

Racine : Iphigénie

Classiques Larousse

• • •

Fénelon

L'Éducation des Filles
Les Classiques pour Tous

• • •

Fénelon : Fables

Les Classiques pour Tous

• • •

فهرس الجزء الثالث

صفحة	صفحة
٦٦٩ من تأبنة للاميرة هـازيت	٥٧٦ لافونتين
دانجلوتير .	٥٩٠ مغازي لافونتين
٦٨٢ الدور الثالث دور الانتقال .	٥٩٢ اسلوبه
٦٩١ المعركة بين القدماء والمحدثين	٥٩٥ نماذج مختارة من الامثال
٦٩٥ فينيون .	الخرافية لافونتين
٦٩٩ أدبه	٦١٨ لاروشفوكو .
٧٠١ تيلياك .	٦٢٣ نماذج من حكم لاروشفوكو .
٧٠٧ فنه واسلوبه .	٦٣٠ رتر .
٧٠٨ نماذج اخرى من ثر فينيون	٦٣٤ نموذج من مذاكراته
٧١٧ سان سيمون .	٦٣٧ القصة في القرن السابع عشر
٧٢٢ نموذجان من ثره .	٦٤١ مدام دي لافايت .
٧٢٦ لابرويـار .	٦٤٦ مدام دي سيفنيه .
٧٣٣ نماذج من كتاب الطبائع	٦٥٣ مختارات من الرسائل .
٧٥٦ مصادر الكتاب .	٦٦٢ بوسوية .
	٦٦٧ رسالة الى لويس الرابع عشر .
	ابوسويه .



